

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

غزوة بدر

عبد محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولقد نصركم الله ييدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم
تشكرون • إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم
ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين • بلى إن تصبروا
وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة
آلاف من الملائكة مسومين • وما جعله الله إلا بشري لكم
ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز
الحكيم • ﴾

(قرآن كريم)

مدينة الرسول تنبض بالحياة . المهاجرون والأنصار في عدة القتال
 فقد سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا في غير قريش من الشام ،
 فندب المسلمين إليهم وقال :
 — هذه غير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله
 ينفلكموها .

فانتدب الناس فحف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا
 أن رسول الله ﷺ يلقي حربا . حتى إن كان الرجل يساهم أباه في
 الخروج ، فكان ممن ساهم أباه سعد بن خيشمة فقال سعد لأبيه :
 — إنه لو كان غير الجنة أثرتك به ، إنلأ لأرجو الشهادة في وجهي
 هذا .

فقال خيشمة :

— آثرني وقر مع نسائك .

فأبى سعد فقال أبوه :

— أنه لا بد لأحدنا من أن يقيم .

فامتهما فخرج سهم سعد .

وأبطأ عن النبي ﷺ وآله بشر كثير من أصحابه وكرهوا خروجه ،
 وتخلف بعضهم من أهل النيات والبصائر لم يظنوا أنه يكون قتال إنما
 هو خروج للغنيمة ، ولو ظنوا أنه يكون قتال لما تخلفوا منهم أسيد بن

حضير .

وبقى عثمان بن عفان إلى جوار زوجة رقية بنت محمد عليه السلام
فقد اشتد بها المرض وطاف بها شبح الموت .

وراح عثمان يرنو إلى وجه رقية الذليل فيغص حلقه بالدموع وتنثال
على رأسه الذكريات ، فغدا يرى نفسه وهو يحنو على بنت رسول الله
ﷺ يوم أن هاجرا إلى الحبشة فرارا بدينهما وهما على قرب عهدهما
بالزواج . وسرعان ما احتل أقطار رأسه وجه رقية المشرق الصبوح وقد
زاده الانفعال جمالا لما كانت تصفى إلى جعفر بن أبي طالب وهو
يحاور النجاشي وأصحابه يوم أن جاء عمرو بن العاص يدبر لغدره .
ورن في أغواره صوت رقية الرصين وهي تحدث المهاجرات حديثا
يريح النفوس ويبعث في الصدور الآمال ، فحرك أشجانه وزاد في
مخاوفه فهو يحب زوجه حيا ملك عليه كل حواسه . ولكن كان
أخشى ما يخشاه أن تموت رقية فينقطع نسبه لرسول الله عليه السلام .
وتذكر عثمان يوم أن جاء الناعى ينعى الطاهرة أم المؤمنين . إنه
حزن لموت خديجة حاضنة الإسلام حزنا كادت أن تنفطر له كبده ،
ولكن حزن رقية على أمها كان ثقila هزه من الأعماق ، إنه ما انفك
يواسيها وإن كانت نياط قلبه تتمزق ، وإن كان على بينة من فداحة
المصاب ، كان يكفكف دموعها بينا العبرات تبلل روحه وتسيل في
قلبه على سيدة نساء قريش ، وعلى رقية التي كانت تضطرب من الأسى
كريشة في مهب الرياح .

ورأى عثمان بعين خياله يوم أن ركب البحر مع رقية والزبير بن
العوام وعبد الله بن جحش وأبو سلمة وامراته هند بنت أبي أمية زاد

الركب ، إنها كانت مستبشرة تهلل وجهها الجميل بالفرح دون أن تكثر بالموج ، فقد كانت فى طريقها إلى مكة ، إلى أبيها الحبيب رسول الله ﷺ الذى طال إليه الشوق وهوى إليه القواد .

إن عثمان لا يستطيع أن ينسى تلك اللحظة النابضة بأنبل مشاعر البشرية ، ساعة أن ارتمت رقية فى أحضان أبيها وهو يغمرها بقبلات الحنان . إنه استشعر أن الكون كله يخفق بالرقعة حتى إنه لم يستطيع أن يحبس دموعه التى جرت من شدة الانفعال .

ورنا عثمان إلى وجهه وزوجه الذابل الذى علاه الاصفرار فقرت سكينته ولفه حزن شديد امتزج بخوف قاتل ، فالأنفاس المضطربة التى كانت تلتقطها رقية فى جهد كانت على الرغم من خفوتها تعلن بأعلى صوت فناء صاحبها ، وأنها تسرى فى نفس الطريق الذى سرت فيه أم المؤمنين من قبل ، سبيل الخلود فى ملكوت الله .

إنه حملها إلى يثرب بعد أن أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة وهو يعنى النفس بحياة مستقرة سعيدة يعمل فيها لآخرته ودنياه . وقد كانت أول أيامه بالمدينة مشرقة بالآمال فقد وضعت رقية طفلها عبد الله بن عثمان فكاد يطير من الفرح أن صار له ولد جده رسول الله عليه السلام ، وإنها لهناء الدنيا وسعادة الأبد أن يكون له ذرية من نسل خير البشر عليه صلوات الله .

وغمر الدار استبشار وجاء رسول الله ﷺ يغمر حفيده بفيض من حنانه ورقته ، وتوجت الشفاه بسمات فسروا عليه السلام كان يسر المهاجرين والأنصار ، ولكن هذه البهجة سرعان ما غاضت فقد نقر ديك عبد الله بن عثمان فمات ، فذاقت رقية مرارة الشكل ، ولما كانت

مرهفة الحس فقد سقطت صريعة الحمى .
وغدا رسول الله ﷺ يزور ابنته التي تحملت في سبيل دينها كل
الآلام وصنوف العذاب ، وكان يرى الفناء يدب فيها فيتلوى ألما ،
وود أن يقى إلى جوارها يخفف عنها بعض ما تقاسى فهو يحبها بكل
عواطفه ، ولكن ما إن سمع بأبى سفيان مقبلا من الشام بعير قريش حتى
نذب المسلمين للخروج ، فحبه الله كان يفوق كل حب .
كان رسول الله قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو
ابن نفيل قبل خروجه من المدينة بعشر ليال يتحسسان خبر العير ، فنزلا
على كشد الجهني بالموضع المعروف بالنخيار من وراء ذى المرة على
الساحل ، فاجارهما وأنزلهما فلم يزالا مقيمين في خباء وبر حتى مرت
العير فرفعهما على نشر من الأرض ، فنظر إلى القوم وإلى ما تحمل العير
وجعل أهل العير يقولون لكشد :

— يا كشد هل رأيت أحدا من عيون محمد ؟

— أعوذ بالله ! وأنى لمحمد عيون بالنخيار ؟

فلما راحت العير باتا حتى أصبحا ثم خرجا وخرج معهما كشد
خفيرا حتى أوردتهما ذا المروة ، وساحت العير فأسرعت وسار بها
أصحابها ليلا ونهارا فرقا من الطلب .

وجاء إلى رسول الله عبد الله بن عمرو بن حزام فقال :

— يا رسول الله لقد سرني منزلك هذا وعرضك فيه أصحابك
وتفألت به ، إن هذا منزلنا بنى سلمة حيث كان بيننا وبين أهل حسيكة
ما كان ، فعرضنا يا رسول الله ها هنا أصحابنا فأجزنا من كان يطيق
السلاح ورددنا من صغر عن حمل السلاح ، ثم سرنا إلى يهود حسيكة

وهم أعز يهود كانوا يومئذ فقتلناهم كيف شئنا فذلت لنا سائر يهود إلى اليوم . وأنا أرجو يا رسول الله أن نلتقى نحن وقريش فيقر الله عينك منهم .

وكان خلاد بن عمرو بن الجموح لما كان من النهار رجع إلى أهله بخبراء فقال له أبوه عمرو بن الجموح :

— ماظننت إلا أنكم قد سرتم :

— إن رسول الله ﷺ يعرض الناس بالبيع .

— نعم الفال ! والله إنى لأرجو أن تغنموا وأن تظفروا بمشركى

قريش . إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى الحسيكة .

وانطلق رسول الله عليه السلام وأمامه رايتان سوداوان إحداهما مع على بن أبى طالب وهى العقاب وكانت من مرط لعائشة ، وكان على ابن عشرين سنة تتألق الشجاعة فى عينيه ويشع التقى من وجهه ولا غرو فهو ربيب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، والثانية مع سعد بن معاذ . وسلم عليه السلام اللواء إلى مصعب بن عمير . وسار جيش المسلمين حتى انتهى إلى المكان المعروف بالقع ، وهى بيوت السقيا وهى متصلة ببيوت المدينة ، فكان عبده رباح يستقى له من بئر غرس مرة ومن بيوت السقيا مرة .

وتأهب المسلمون للسير وقد لبس رسول الله درعه ذات الفضول وتقلد سيفه العضب ، وأمر ﷺ حين فصل من بيوت السقيا أن تعد المسلمون ، فوقف لهم عند بئر أبى عتبة وهى على ميل من المدينة فعدوا ، فعرض أصحابه ورد من استصفر ، وكان ممن رده عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأمسيد بن ظهير

وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت .

ورأى سعد بن أبي وقاص أخاه عمير بن أبي وقاص يتوارى فقال له :
— مالك يا أختي ؟

— إني أخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وآله فيستصغرنى
فيردنى ، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقنى الشهادة .
فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره فقال :
— ارجع .

فبكى عمير فرق له فأجازه .

وحين فصل ﷺ من بيوت السفيا قال :

— اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وعراة فاكسهم ، وجياع
فأشعبهم ، وعالة فأغنهم من فضلك .
ودعا لأهل المدينة فقال :

— اللهم إن إبراهيم عبدك وخليتك ونبيلك دعاك لأهل مكة ، وإنى
محمد عبدك ونبيلك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى صاعهم
ومدهم وثمارهم ، اللهم حبب إلينا المدينة واجعل ما بها من الرباء
بخم^(١) . اللهم إنى حرمت ما بين لابتيها كما حرم إبراهيم خليتك
مكة .

ثم خرج عليه السلام فى خمسة وثلاثمائة رجل : من المهاجرين
أربعة وستون وباقيهم من الأنصار ، بعد أن رد أبا لبيبة واستعمله على
المدينة ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس فى المدينة ،

(١) خم : على ميلين من الجحفة .

وخلف عاصم بن عدي على أهل قباء وأهل العالية بعد أن أصبحت تلك البقاع مسرحا للمنافقين وأعداء الإسلام .

وخرج حبيب بن يساف نجدة لقومه من الخزرج طالبا للغنيمة ، وكان ذا بأس ونجدة ولم يكن أسلم ، ففرح المسلمون بخروجه معهم ولكن رسول الله ﷺ لم يستبشر بخروجه فقال له :

— لا يصحبنا إلا من كان على ديننا . ارجع فإننا لا نستعين بمشرك .

وراح حبيب يزين لرسول الله ﷺ خروجه معهم والنبي عليه السلام يؤكد أن المسلمين لا يتصرون بأهل الشرك على أهل الشرك ، فلما رأى حبيب صدق رسول الله عليه السلام مع مبادئه قال :

— تؤمن بالله ورسوله .

— نعم .

فأسلم وسار مع المهاجرين والأنصار بعد أن أشرق قلبه بنور اليقين ، وقد وطد النفس على الجهاد في سبيل الله .

وكان رسول الله ﷺ صائما ، فلما رأى ما يتحمل المسلمون من جهد في السير أفطر ونادى مناديه :

— أفطروا .

فلم يفطروا ، فعاد مناديه ينادي :

— يا معشر العصاة إني مفطر فأفطروا .

وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ سبعين بعيرا فاعتقبوها كل ثلاثة يعتقبون بعيرا ، فكان رسول الله عليه السلام وعلى بن أبي طالب ومرثد يعتقبون بعيرا ، فكان إذا كانت عقبة النبي ﷺ قال له رفيقاه :

— اركب حتى نمشي معك .

فيقول عليه السلام :

— ما أنتم أقوى مني على المشي ، وما أنا بأغنى عن الأجر
مكما .

وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا ، ورفاعة
وخلاّد ابنا رافع وعبيد بن يزيد الأنصاري يعتقبون بعيرا ، وكان حمزة
وزيد بن حارثة وأبي كبشة يعتقبون بعيرا ، وكان سعد بن أبي وقاص
من أعظم أصحاب النبي عليه السلام عنه غناء وأكثرهم قوة على المشي
وأمرأهم لسهم ، لم يركب خطوة ذاهبا ولا راجعا ، وكان يعقد لأخيه
عمير بن أبي وقاص حمائل سيفه من صفه .

وغدت الأجراس المعلقة في أعناق الإبل تصلصل فأمر رسول الله
عليه السلام بالأجراس أن تقطع حتى لا ترشد أصواتها أعداءه إلى
مطلعه .

ولم يكن في الجيش إلا فرسان : فرس المقداد بن الأسود ويقال له
سبحة ، وفرس الزبير بن العوام ويقال له اليعسوب ، ولكن كانت بين
الحواح قلوب عامرة باليقين نابضة بحب الله .

وخرج رسول الله ﷺ من بيوت السقيا حتى سلك بطن العقين ثم
سلك طريق المكيم حتى خرج على بطحاء ابن أزهر فنزل تحت
شجرة هناك ، فقام أبو بكر إلى حجارة هناك فبى منها مسجدا فصلى
فيه رسول الله ﷺ ، وأصبح يوم الاثنين وهو هناك ، ثم صار إلى بطن
مل وتربان بين الحفيرة وملل .

فلما كانوا بتربان قال رسول الله عليه السلام لسعد بن أبي وقاص :
— انظر إلى الظبي .

فصوب سعد سهمه إلى الظبي وقد وضع رسول الله عليه السلام رأسه بين منكب سعد وأذنه ، ثم قال :
— اللهم سدد رميته .

فمال أخطأ سهم سعد عن نحر الظبي .
فتبسم رسول الله عليه وآله ، وخرج سعد يعدو فأحد الظبي وبه رمق فذبحه ، وحملوه حتى نزلوا قريبا ، فأمر به رسول الله عليه السلام فقسم بين أصحابه .

وفى أثناء الطريق بعرق الظبية لقوا رجلا من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده حبرا ، فقال له أصحاب الرسول عليه السلام :
— سلم على رسول الله ﷺ .

قال :

— أفيكم رسول الله ؟

— نعم :

فسلم عليه ثم قال :

— إن كنت رسول الله فأخبرني بما في بطن ناقتي هذه .

فقال له سلامة بن سلامة بن وقش .

— لا تسأل رسول الله ﷺ ، أقل على أنا أخبرك عن ذلك : بروت عليها فتى بطنها منك سخلة .

فقال له رسول الله ﷺ :

— مه ! أفحشت على الرجل .

ثم أعرض عن سلامة فقد كان عليه السلام يكره فحش القول .
وراح رسول الله ﷺ يرقب عودة طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد فقد بعثهما يتحسنان خبر غير أبي سفيان ، حتى إذا ما نزل المسلمون

بواد يقال له دهران أتاه الحبر عن قريش بمسيرهم ليمدعوا غيرهم ، فقال لأصحابه :

— إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب ودلول فما تقولون ؟ ألعير أحب إليكم من النعير ؟

إنه يحيرهم بين العذمة ولحرب فقالت طائفة منهم :

— بلى . العير أحب إلينا من لقاء العدو .

وارتفعت أصوات تقول :

— هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له ؟ إنا خرجنا للنعير

— يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو .

فعبير وجه النبي ﷺ وأوحى الله إليه : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم يظنون . وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليعق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ .

وقام أبو بكر فقال وأحس ، ثم عمر فقال وأحس ، ثم قام المقداد فقال :

— يا رسول الله امض لما أمرك الله فحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد^(١) لجالدنا معك من دونه حتى

(١) موضع بتاحية اليمن .

تبلعه .

فقال له رسول الله ﷺ حيرا ودعا له به ، ثم قال رسول الله ﷺ :
— أشيروا على أيها الناس .

وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين يابعوه بالعقبة
قلوا : يا رسول الله إنا برآء من دمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا
وصلت إليها فأنت في دمتنا بمنعك مما نمنع منه أباءنا وساءنا . فكان
رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عيها نصره إلا ممن
دهمه بالمدية من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من
بلادهم ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ :

— والله لكأنت تريدنا يا رسول الله ؟

— أجل .

— فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق
وأعطيناك على ذلك عهدنا وموثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا
رسول الله لما أردت فمحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت
بنا هذا البحر محضه لحضناه معك ما تحلف منا رجل واحد ، وما
نكره أن تلقى بنا عدونا عدا . إنا لنصر في الحرب صدق في البقاء .
نعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .
وأشرق وجه رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال عليه
السلام :

— سيروا وأبشروا فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين ، والله
لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

لحققت قريش بالشام في غيرها ، وكانت العير ألف بعير وكان فيها أموال عظام ، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به في العير حتى إن المرأة لتبعث بالشئ التافه ، وإن أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبي أحيحة إما مال لهم أو مال مع قوم قراض على النصف . وكان لبني محزوم فيها مائتا بعير وخمسة آلاف مثقال ذهبا ، وللحارث بن عامر بن نوفل فيها ألفا مثقال ، وإن في القافلة لخمسين ألف دينار .

ولما لحقت قريش بالشام أدر كههم رجل من جدم فأحبرهم أن محمدا عليه السلام قد كان عرض لعيرهم في بدأتهم وأنه تركه مقيما ينتظر رجعتهم قد حالف عليهم أهل الطريق ووادعهم .

ولما كانوا بالرقاء وهم منحدرون إلى مكة لقوا رجلا فقال لهم : — قد كان عرض محمد لكم في بدأتكم في أصحابه .

— ما شعريا .

— بلى ، فأقام شهرًا ثم رجع إلى يثرب وأنتم يوم عرض محمد لكم مخفون فهو الآن أحرى أن يعرض لكم ، إنما يعد لكم الأيام عدا فاحذروا على عيركم وارتموا آراءكم ، فوالله ما أرى عدد ولا كراع ولا حلقة (سلاح) .

فأجمع القوم أمرهم فبعثوا صمصم بن عمرو وكان في العير ، وقد

كانت قريش مرت به وهو بالساحل معه بكران فاستأجروه بعشرين مثقالا ، وأمره أبو سفيان أن يحبر قريشا أن محمدا قد عرض لغيرهم . وكانت عائكة بنت عبد المطلب قد قدم صمصم مكة ثلاث ليال قد رأت رؤيا أفرعتها فقصتها على أخيها العباس والتمست منه أن يكتمها ، ولكن العباس قصها على صديقه الوليد بن عتبة بن ربيعة واستكنمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش في أنديةها .

وسخر أبو جهل بالعباس وبني عبد المطلب وهريء رؤيا عائكة ، فلم يملك العباس إلا أن ينكر أن تكون عائكة رأت شيئا فلما جاء المساء عدت ساء عبد المطلب يلمس العباس لديه مع أبي جهل ، فعدا في اليوم الثالث من رؤيا عائكة وهو حديد فعصب فدخل المسجد فرأى أبا جهل ، وهيم هو يشدد إليه إذا بصوت صمصم بن عمرو العناري يصرح ببطن الوادي واقفا على بعيره قد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول :

— يا معشر قريش ! اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها . العوث العوث ! وقسمت حدود أهل مكة ، نزلت بأفئدتهم رهة ، كانوا يسحرون من رؤيا عائكة لما قالت إنها رأت راكنا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرح بأعلى صوته : ألا انقروا يا لعذر لمصاركم في ثلاث ، وإن أساس اجتماعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينا هم حوله قام به بعيره على ظهر الكعة ثم صرح بمثلها : ألا انقروا يا لعذر لمصاركم في ثلاث . ثم قام به بعيره على رأس أبي قيس

فصرح بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل تفتت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة . فإذا بالرؤيا التي جعلت من رجال بنى عبد المطلب وسائهم هدفاً للسخرية تدو لكأنما كانت نوءة ، فقد جاء صمضم مكة بعد ثلاث ليال من تلك الرؤيا ، وكادت الهزيمة أن تشيع في نفوس الرجال فيقعندو عن الخروج لولا ذلك الحقد الذي يملأ قلوب أبي جهل وعقبة ابن أبي معيط والنصر بن الحارث علي محمد بن عبد الله ، فراحوا يحثون القوم على الخروج لاستئصال شأفة ابن أبي كبشة الذي فر من القتل يرم أن حاصروه في داره في مكة ليفتكوا به ، ويؤكدون أن القرصة مواتية لنقصاء عيه قبل أن يسفح أمره في المدينة ويقطع عليهم تجارتهم مع الشام .

وقام سهيل بن عمرو في رحال من قريش فقال :
— يا معشر قريش ، هذا محمد والصبأة من شبانكم وأهل يثرب قد عرضوا لغيركم ولطيبتكم^(١) ، فمن أراد صهرا فهذا طهر ، ومن أراد قوة فهذه قوة .

وقام زمعة بن الأسود فقال :
— إنه والللات والعري ما نزل بكم من أمر أعظم من أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعرضوا لغيركم فيها خرائثكم ، فأوعبوا (فاستعدوا) ولا يتحلف منكم أحد ، ومن كان لا قوة له فهذه قوة ، والله لئن أصابها محمد وأصحابه لا يروءكم منهم إلا وقد دخلوا عليكم بيوتكم .

(١) التجارة : وقيل المطر خاصة .

وقال طعيمة بن عدى :

— يا معشر قريش والله ما نزل بكم أمر أحل من هذه ! أن يستباح
غيركم ولطيمة قريش فيها أموالكم ونخرائكم والله لا أعرف رجلا ولا
امراة من بنى عبد مناف له بشى (ورث نواة من ذهب) فصاعدا إلا وهو
فى هذه العير ، فمن كان لا قوة به فعندنا قوة نحمله ونقويه .

وقام حنظلة بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان فحصا الناس على
الحروج ولم يدعوا إلى قوة ولا حملان ، فقبل لهما :

— ألا تدعوان إلى ما دعا إليه قومكما من الحملان ؟

— والله ما مال مال ، وما المال إلا لأبى سفيان .

ومشت قريش إلى أبى لهب فقالوا له :

— إنك سيد من سادت قريش وبك إن أنت تحلمت عن الفير يعتبر

بك غيرك من قومك ، فاخرج أو ابعث رجلا .

— واللات والعزى لا أخرج .

فقال له أبو جهل :

— أقم يا أبا عتبة ، فوالله ما حرجنا إلا غصبا لديك ودين آبائك

كان أبو لهب يشفق من رؤيا عاتكة فبعث مكانه العاص بن هشام

وكان قد استرقه لدين فى الميسر .

كان أناس قد أجمعوا على القعود فكان أبو جهل وعقبة والتضرر

يسخرون منهم ، يقولون لبعضهم : أقعد فإنما أنت من النساء .

ويشيرون فى البعض السخوة والأحقاد فحرج كثير من الناس وهم

كارهون ، وقد خرج العاص بن عبد المطلب وبعض بنى المطلب

وهاشم وهم يمشون النفس بالأ يكون قتال بين الفريقين ، فقد أخرجوا

كرها ولولا خشيتهم من الناس ما تجهزوا وما أجمعوا المسير .
وتأهبوا للخروج إلى النبي ﷺ فأخذوا بأستار الكعبة وقالوا :
— اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفقتين وأكرم الحزبين وأفضل
الدينين اللهم لا تعرف ما جاء به محمد فاتح بيننا وبينه بالحق .
وساروا : أبو جهل ينهش صدره الحقد ويأكل قلبه الحسد ، وعقبة
ابن أبي معيط يتلهف على اللقاء ليسمك دم ابن عبد الله الذي توعد
بالقتل إن التقى به خارج مكة ، والنضر بن الحارث يتلمظ تلمظ
الحيات قد استولى على ذهنه رسول الله عليه السلام وكان طيفه هدفا
لسيفه وكل ما في جعبته من سهام . فهو لا يستطيع أن ينسى الآيات
التي نزلت فيه تسحره وتوعده بعدد النار .
وكان عقبة بن ربيعة على جمل أحمر ، إنه قد ألقى سمعه كثيرا إلى
محمد عليه السلام وكان رأيته أن يخلى بينه وبين القبائل فإن قتله
كفؤهم دمه وثأر بني هاشم ، وإن ظهر كان ذلك لقريش . ولولا عاد
أبي جهل وحقده على رسول الله ﷺ لكان عقبة من أتباع رسول
الإسلام

إنه خارج للقتال وهو كاره ، فإن كان حليفه ابن الحضرمي قد قتله
واقد بن عبد الله السيمي في الشهر الحرام لما بعث محمد بن عبد الله
ابن عمته عبد الله بن جحش على رأس سرية في شهر رجب . فهو على
استعداد لأن يدفع دية حليفه وأن يحق الدماء لولا إصرار ابن الحظلية
أبي جهل بن هشام على قطع دابر محمد وأصحابه ليخلو له وجه
قريش .

وكان حكيم بن حزام على بعيره شارد اللب يستشعر عدم راحة

لذلك الخروج الذى دفعهم إليه ابن الحظليه دفعا . إنه صاحب دار
الدوة وله رأى نافذ فى شئون مكة ، ولكن الأحداث قد جعلته يتقاد
إلى أبى جهل دون تدبير ويخرج لقتال المسلمين الذين انطلقوا ليستولوا
على أموالهم التى مع أبى سفيان .

إنه لا يستطيع أن ينسى أيام أن حصروا بنى هاشم فى الشعب ،
كانت عمته خلدجة فيهم وكان قلبه يكاد يتمزق لما يفكر أنه يأكل بينا
عمته الحبيبة تتلوى من الجوع ، فكان يسوق العير التى تأتية من الشام
تحمل الحطة إلى الشعب ثم يضرب أعجازها فتدخل عليهم فيأخذون
ما عليها من الحطة ، وهو لا يستطيع أن ينسى أن الصاهرة سيدة نساء
قريش قد ماتت وهى على الدين الذى جاء به زوجها محمد بن عبد
الله . إنه لو أطاع مشاعره للوى عنق بعيره وانقلب إلى أهله لولا حشيتته
من الناس !

إنه ما توجه وجهها قط كان أكره إليه من مسيره إلى بدر ، وما بان له
فى وجه قط ما بان له قبل أن يخرج ، إنه استقسم بالأزلام فكان فى كل
مرة يخرج ما يكره ، ولولا ابن الحظلية ما مضى لوجهه .

وأطلق أبو البختری بن هشام بن الحارث بن أسد لخياله العنان فأدا
به يذكر قيامه فى نقص الصحيفة التى كتبها فريش وتعاهدت فيها أن
لا تبيع لبنى هاشم ولا تبناع منهم وأن لا تزوجهم وألا تزوج فيهم ، إنه
قال لأبى جهل فى المسجد : لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به .
وما زال مع أصحابه حتى أخرج بنى هاشم من الشعب وحطم ما
ضرب حولهم من حصار ، فإن كان القضاء على محمد بن عبد الله
وصحبه هو الهدف فقيم كان قيامه فى نقص الصحيفة !

وما كان أحد ممن خرج إلى العير أكره للخروج من الحارث بن عامر فإنه قال :

— ليت قريشا تعزم على القعود وأن مالي في العير تلف ومال بني عبد مناف أيضا .

— إنك سيد من ساداتها أفلا تردعها عن الخروج ؟

— إنى أرى قريشا قد أزمعت على الخروج ولا أرى أحدا به طوق (قوة) تخلف إلا عن علة ، وأنا أكره خلافها وما أحب أن تعلم قريش ما أقول ، على أن ابن الحظلية رجل مشثوم على قومه ما أعلمه إلا يحرز قومه أهل يثرب .

وجاء صمصم بن عمرو وكات للحارث عنده أبياد فقال :

— أب عامر إني رأيت رؤيا كرهتها وإني لكاليقظان على راحتى ، وأراكم أن وادىكم يسيل دما من أسفله إلى أعلاه .
فقال الحارث :

— ما خرج أحد وجهها من الوجوه أكره له من وجهى هذا .

— والله إني لأرى لك أن تجلس .

— لو سمعت هذا منك قبل أن أخرج ما سرت خطوة ، فاطو هذا الخبر عن قريش فإنه تنهم كل من عوقها عن المسير .

وكان الأخنس بن شريق مع بني رهرة أحوال محمد بن عبد الله ، إيهم خرجوا كارهين كما خرج العاص وبنو المطلب وبو هاشم ، ولولا الملامة لعدوا مع القاعدين ، ولولا عقبة بن أبى معيط والنصر بن الحارث وأبو جهل بن هشام ما خرج منهم أحد لقتال ابن أمية رهرة بني رهرة ، ولو وجدوا سببا للكوص لقفلوا راجعين .

وكان أمية بن خلف يرتجف من الخوف . إنه رأى رؤيا أفزعته فكان قلبه كقلب الطير كلما خففت الريح خفق معها ، وجعل يرمق عقبة بن أبي معيط في غيظ فهو الذي قال له لما أراد أن يقعد : يا أبا علي استجمر ، فإنما أنت من النساء .

فأحقه ذلك القول حتى قال : قبحك الله وقبح ما جثت به . ثم تجهز ليخرج مع الناس .

دفع شياطين قريش : أبو جهل بن هشام وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث الناس للخروج ليشفوا مرض قلوبهم ، وكان كثير من المحاربين كارهين للقتال يتمون أن تغلت العير من أيدي المسلمين حتى يجدوا عدرا للعودة بسلام ، ورؤيا عاتكة وإن سحروا منها كانت تنزل الأرض تحت أقدامهم .

ونزلوا بحر الطهران فبحر لهم أبو جهل بن هشام عشر جزائر ، وراحت القيان يضربن بالدعوف وعكموا على الشراة ثم سهصوا يستأنمون الرحلة ، حتى إذا بلغوا عسفان حطوا الرجال وبحر لهم سميان بن أمية تسع جزائر ، وبحر لهم سهيل بن عمرو بقديد بعد أن طافوا باللات عشر جزائر ، وساروا من قديد فصلوا بها ثم أصبحوا بالبحرمة فبحر لهم عتبة بن ربيعة عشر جزائر .

وجلس عبد الشية البيضاء عداس علام عتبة وشيبة الذي قبل رأس رسول الله ﷺ يوم أن لقي من سفهاء الطائف أشد ألوان الاضطهاد ، وراح الناس يمرون ، إذ مر عليه عتبة وشيبة ابنا ربيعة فوثب إليهما فأخذ بأرجلهما في غرزهما وهو يقول :

— يا بني أنتما وأمي ! والله إنه لرسول الله ﷺ وما تسافان إلا إلى

مصارعكما !

وإن عييه لتسيلان دمعاً على خديه ، ومر به العاص بن منه بن الحجاج فوقف عيه حين ولى عتة وشيبة فقال :

— ما يكيك ؟

— يكييني سيدا أهل الوادى يحر جان إلى مصارعهما ويقاتلان رسول الله ﷺ .

— وإن محمدا لرسول الله !

فانتمص عداس انتفاضة واقشعر جده ثم يكي وقال :

— إى والله ، إنه لرسول الله إلى الناس كافة .

وكان مع قرين رحل من بى المطلب بن عبد مناف يقال له جهم

ابن الصلت ، فوضع رأسه فأعفى ثم قام فرعا فقال لأصحابه :

— هل رأيتم فارس الذى وقف على ؟

— لا .

فقال وهو مسهور الأنفاس :

— قد وقف على فارس فقال : قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة

وأبو البختری وأمّية بن حلف ، وأسر سهيل بن عمرو . ثم رأيت ذلك

الفارس ضرب فى بة بعيره ثم أرسله فى العسكر فما من خباء من أخبية

العسكر إلا أصابه من دمه .

فقال له أصحابه :

— إنما لعب بك الشيطان .

وشاعت هذه الرؤيا فى المعسكر فإذا بالخوف يزل بالقلوب . وإذا

برؤيا عاتكة تستولى على النفوس فتقشعر الجلود ، وإذا برهبة من

المجهول تجثم على الأفدة ، وسنت الرؤيا أبا جهل فضجرت عضيه
ورأى أن حير ما يفعله أن يسفه صاحبها ليعيد الطمأنينة إلى القلوب
الواجمه وإلى النفوس التي دهست شعاعا فقال .

— قد جئتم يكذب بى عبد المطلب مع كذب بى هاشم . هذا
بى اخر من بى عبد المطلب سيعلم غدا من المقتول نحن أو محمد
وأصحابه .

ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران حتى برل قريبا من بدر ، فركب عليه السلام هو وأبو بكر رضى الله عنه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ :

— لا أخبر كما حتى تخبراني من أئتما .

فقال له رسول الله ﷺ :

— إذا أخبرتنا أخبرناك .

فقال الشيخ :

— ذاك بذاك ؟

— نعم .

— فإنه قد بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن

كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا .

وذكر المكان الذى نزل به رسول الله ﷺ وأصحابه وقال :

— وبغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذى

أخبرنى به صدق فهم اليوم بمكان كذا وكذا .

المكان الذى نزلت به قريش ، فلما فرع من خبره قال :

— من أئتما ؟

فقال رسول الله ﷺ :

— نحن من ماء .

ثم انصرفا عنه فقال الشيخ :

— من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

ثم رجع رسول الله عليه السلام إلى أصحابه وهو يفكر في قريش ، ورجع صوت عمر يتردد في نفسه : « يا رسول الله إنها قريش وعزها ، والله ما دلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت — والله لتقاتلك فتأهب لذلك أهبتها وأعدد لذلك عدته » . وراح صدى صوت سعد بن معاذ يسرى في ذاكرته عليه السلام : « إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاطمئن حيث شئت ، وصل جبل من شئت ، واقطع جبل من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا فحزن تبع لأمرك ، فامض يا رسول الله لما أردت فحسن معك » .

فوفت ابتسامه رضا على شفتي رسول الله ﷺ ، فلما أمسى عليه السلام بعث على بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نهر من أصحابه إلى بدر يتمسكون الحجر فأصابوا إبلا لقريش تحمل الماء معها غلام لسي الحجاج وعلام لبني العاص ، فأتوا بهما ورسول الله ﷺ قائم يصلى فقالوا :

— لمن أحما ؟

وظنوا أنهما لأبي سفيان فقالا :

— نحن سقاة قريش يعثونا نسقيهم من الماء .

فصر بهما فلما أوجعهما صريا قالوا :

— نحن لأبي سفيان .

فتركوهما ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته قال :
— إذا صدقاكم صرتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما . صدقا
والله إيهما لقريش .

والتفت عليه السلام إلى العلامين وقال :
— أخبراني عن قريش .
— هم وراء هذا الكتيب بالعدوة القصوى (جانب الوادي
المرتفع) .

— كم القوم ؟
— هم والله كثير عددهم شديد بأسهم .
— ما عدتهم ؟
— لا بدري .

وجهد النبي عليه السلام أن يخبره كم مأيا ، قال ﷺ :
— كم تنحرون كل يوم ؟
— يوما تسعا ويوما عشرا .

فقال ﷺ :
— القوم ما بين التسعمائة والألف .
ثم قال للعلامين :

— فمن فيهم من أشراف قريش ؟
— عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن
حزام ووفل بن خويلد والحرث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدي بن
نوفل والنصر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن
خلف ونبية ومببه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبدود .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال :

— هذه مكة قد ألفت إليكم بأفلاذ كبدها .

وأملت من الأسر عجير فكان أول من جاء قريشا بحير النسي ﷺ ،

فنادى :

— يا آل غالب ! هذا ابن أبي كبشة وأصحابه وعد أخذوا

سقاءكم .

فماج العسكر ، وكان حكيم بن حزام وصحبه في حياء لهم على

جزور يشوون من لحمها ، فما هو إلا أن سمعوا الخبر فامتنعوا عن

الطعام ، ولقى بعضهم بعضا ولقى حكيم عتبة فقال عتبة :

— يا أبا خالد ما أعلم أحدا يسير أعجب من مسيرنا ، إن غيرنا قد

نحت وإننا جئنا إلى قوم في بلادهم بعيا عيهم .

— أراه لأمر حُمٍّ ولا رأى لمن لا يطاع ! هذا شؤم ابن الحظلية .

— يا أبا خالد أتخاف أن تبيت القوم ؟

— لأنني آمن من ذلك .

— فما الرأي يا أبا خالد ؟

— نتحارس حتى نصبح وتروا رأيكم .

— هذا الرأي .

فتحارسوا حتى أصبحوا ، فقال أبو جهل في سحرية :

— هذا عن أمر عتبة كره قتال محمد وأصحابه ، إن هذا لهو

العجب . أنظروا أن محمدا وأصحابه يعترضون لجمعكم ! والله

لأنتحين ناحية بقومي فلا يحرسا أحد .

فتسحى أبو جهل ناحية وإن السماء لتمطر عليه ، فقال عتبة :

— إن هذا لهر النكد

ثم مضى رجالان من الصحابة إلى ماء بدر فنزلا قريبا منه عند تل هالك ، ثم أحذا شاة لهما (قربة) يستقيان فيه ، وإذا بشخص على الماء ، وإذا جاريتان تتخاصمان وتمسك إحداهما الأخرى على الماء تطلب مها ما عليها من دين ، فتقول المدية لصاحبتها :
— إنما يأتي العير غدا أو بعد غد فأعمل لهم وأقضيك الذي لك .
وإذا بالشخص الذي كان على الماء يقول :
— صدقت .

ثم حلص بينهما والرجلان من الصحابة بصعيان إلى ذلك الحوار الدائر بين الجاريتين وذلك الرجل الذي على الماء ، فجلسا على بعيرهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا .
وتقدم أبو سفيان العير حذرا حتى ورد الماء فلقى ذلك الرجل فقال به :

— هل أحسست أحدا ؟

— ما رأيت أحدا أنكره ، إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثم استقيا فى شن لهما ثم انطلقا .
فأتى أبو سفيان صاحبهما فأخذ من أبعاد بعيرهما ففتته فإذا فيه النوى ، فقال :
— والله علائف يشرب .

فرجع إلى أصحابه سريعا فصوب غيره عن الطريق وترك بدرا يسار وانطلق حتى أسرع ، فلما علم أنه قد أحرز غيره وهو من أبسدى المسلمين المتريصين به أرسل إلى قريش ، وكانوا بالجحفة :

إنكم إنما خرجتم لثمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم وقد سجاها الله ، فارجعوا . وعاظ ذلك القول أما جهل وعقبة بن أبي معيط والنصر بن الحارث الدين كانوا يريدون أن يطمئثوا بور الله بأفواههم وأد يقتلوا رسوله ، وإن صادف ذلك القول هوى في نفوس بى زهرة وبى المطلب وهاشم وعتبة بن ربيعة وأمّية بن حلف الذى كان يرتجف فرقا من الرؤيا التى أرقّت مضجعه . وخاف أبو جهل أن يصيح القوم إلى قول أبى سفيان فقال :

— والله لا ترجع حتى يحضر بدرا فنقيم عليه ثلاثة أيام ، فلا بد أن نسحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الحمر وتعرف علينا القيان بالمعازف وتسمع بها العرب وبمسيرنا وجمع فلا يرالون يهابونا أبدا بعدها .
وحرست الألسن إلا ما كان من بنى رهرة فإن قائدهم الأخنس بن شريق قال :

— يا بى زهرة ، قد نحى الله أموالكم وحلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل ، وإنما نفرتم لثمنعوه وماله واجعلوا بى حميتها وارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير منفعة لا ما يقول هذا .

أصر على العودة فلم يعد هناك ما يقاتل من أجله بعد أن نجح أبو سفيان فى أن يفلت بالقافلة من المسلمين الذين خرجوا لاقتناص أموال قريش ، فرجع بمن كانوا معه من بنى رهرة وكانوا نحو المائة .
وخلا عتبة بأخيه شيبة فقال له :

— هل لك فى الرجوع ؟ لعمرى إن كان محمد كاذبا إن فى العرب لمن يكفيه ، ولكن كان صادقا إنا لأسعد العرب به للحمته .

— هو على ما تقول ، أفرجع من بين أهل العسكر ؟

فجاء أبو جهل بن الحظلية فقال :

— ما تريدان ؟

— الرجوع . ألا ترى إلى رؤيا عاتكة وإلى رؤيا جهم بن الصلت

مع قول عداس لنا ؟

— نخذلان والله قومكما وتقطعان بهم .

— هلكت والله وأهلكت قومك !

وبلع أبا سفيان إصرار أبي جهل على أن يقيم بينر ثلاثة أيام يحرق

الجدور ويطعم الطعام ويسقى الحمر ، فلم يستصوب رأيه وقال :

— هذا بني والغى مقصة وشؤم . والله لمن أصاب محمد النفير

ذللاً إلى أن يدخل مكة علينا .

وأراد بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال :

— لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .

واطلق أبو جهل وكفار قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى قريباً من

الماء ، ونزل رسول الله ﷺ والمسلمون بعيداً من الماء بينهم وبين

الماء رحلة . فطمى المسلمون وأصابهم صيق شديد وراح الشيطان

يوسوس في صدورهم : « ترعمون أنكم أولياء الله وأنكم على الحق

وأيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم عطاش ، فإذا

قطع العطش أعاقكم مشوا إليكم تقتلوا من أحوا وساقوا بقيتكم إلى

مكة » .. فحزنوا حزناً شديداً وأشفقوا ، وكان الوادي لنا كثير التراب

تسيخ فيه الأقدام فإذا بالمطر يهمر من السماء ، فاطلق المسلمون

تحت الشجر والجحف يستظلون نحتها من المطر وما كان فيهم قائم

إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة ويكثر من سجوده أن يقول :
— يا حى . يا قيوم .

وأصاب المسلمين نعاس شديد أُمه من الله ، واستمر عليه السلام
فى قيام وسجود وابتهاال طوال الليل حتى أصبح ، فإذا المطر أطفأ
الغبار ولبد الأرض وطهر المسلمين وشربوا منه وملئوا الأَسقية وسقوا
الركائب . وأصاب قريشا منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا منه ويصلوا
إلى الماء فكان المطر نعمة لمؤمنين ونقمة على المشركين .
وطلع الفجر فادى رسول الله ﷺ .

— الصلاة عباد الله .

فجاء اناس من تحت الشجر والحجف فصلى بهم رسول الله ﷺ
وحرص على القتال فى خطبة خطبها ، ثم حرح عليه السلام يسابق
قريشا إلى الماء فسبقهم عليه حتى جاء أدبى ماء من بدر فنزل به ﷺ
فقال له الحباب بن المنذر :

— يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمرل أنزلكه الله تعالى بس لنا
أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟
فقال رسول الله عليه السلام فى بساطة :
— بل هو الرأى والحرب والمكيدة

لو كان وحيا لرم السدر الصمت ، وما دام رسول الله عليه السلام
قد قال به الرأى فإب للمنذر رأيا أفضل ، وإن الدين المصيبة ، ويا
طالما برز رسول الله ﷺ على رأى أصحابه إذا ما ظهرت فيه مصلحة
أو خير ، فقال المنذر :

— يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى

أدى ماء من القوم فإني أعرف غزارة مائه وكثرته بحيث لا ينزح فتنزله ، ثم تغور ما عداه من القلب ثم تبي عليه حوصا فتملأه ماء فشرب ولا يشربون

فقال رسول الله ﷺ في رضا :

— لقد أشربت بالرأى .

كان رأيا صائنا فقله عليه السلام وإن كان معارضا لرأيه ، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فصار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ثم أمر بالقلب فعورت وبى ﷺ حوصا عني القلب الذي نزل به فملأه ماء ثم قذفوا فيه الآية .

وخطب رسول الله ﷺ المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال .

— أما بعد فإنني أحثكم عني ما حثكم الله عليه وأنهاكم عما بهاكم الله عنه ، فإن الله عظيم شأنه يأمر بالحق ويحب الصدق ويعطي على الخير أهله على ما رلهم عده ، به يذكرون وبه يتفاضلون ، وإنكم أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه . وإن الصبر في اليأس مما يفرج الله به الهم ويبقى به من الغم ، تدركون به النجاة في الآخرة فيكم بهي الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمتككم عليه فإنه تعالى يقول : « لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم » انظروا إلى الذي أمركم به من كتابه وأراكم من آياته وما أمركم به بعد الذلة فاستمسكوا به يرض ربكم عكم ، وابلوا ربكم في هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومعرفته ، فإن وعده حق وقوله صدق وعقابه شديد ، وإنا أنا وأنتم بالله الحي القيوم إليه الحأنا ظهورا وبه اعتصما

وعليه توكلنا وإليه المصير ، ويفقر الله لى وللمسلمين .
كان الليل قد انتصف وكان الجهد قد نال من المسلمين فأسلموا
جوبهم ليرقاد ، حتى إذا ما تنفس الصبح جاء سعيد بن معاذ إلى رسول
الله ﷺ وقال :

— يا نبى الله ألا بنى لك عريشا تكون فيه وبعد عندك ركائبك ؟
ثم تلقى عدونا فإز أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما
أحببنا ، وإن كانت الأخرى حلت على ركائبك فلتحقت بمس
وراءنا ، فقد تخلط عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم
ولا أطوع لك منهم ، لهم رغبة فى الجهاد وبة . ولو ظنوا أنك تلقى
حربا ما تحلموا عندك إنما طوا أنها العير . يصعبك الله بهم ويناصحوك
ويجاهدون معك .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير وقال :

— أو يقضى الله خيرا من ذلك يا سعد .

كان رسول الله عليه السلام على ثقة من نصر الله فقد وعده إحدى
الطائفتين ، فإذا كانت العير قد أفنت فليس تفت قريش فقد رأى
مصارع القوم .

وبنى العريش لرسول الله ﷺ فوق تل مشرف على المعركة ، وقال
المسلمون :

— من مع رسول الله ﷺ ؟

كانوا يحشون أن يهوى إليه عليه السلام أحد من المشركين ، فلم
يدين منهم أحد إلا أبو بكر شاهرا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ
قائلا :

— لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه .

ووقف أبو بكر وسعد بن معاذ على باب العريش في نهر من الأنصار ، فلما كان الصباح أقبلت قريش من الكتيب . ولما رأى رسول الله ﷺ قريشا وقد أقبلت بالدروع للساترة والحموع الوافرة والأسلحة الشاكية قال :

— اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وعجبها وفحرها تحادك وتخالف أمرك وتكذب رسولك ، فصرك الذي وعدتني .

اللهم إنك أنزلت على الكتاب وأمرتني بالثبات ووعدتني إحدى الطائفتين وإنك لا تحلف الميعاد . اللهم احنهم الغداة .

واطمأنت قريش فأرسلوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا :

— احرز لنا أصحاب محمد .

فخرج عمير ليظهر عدة جيش المسلمين فاستجبال بفرسه حول عسكر النبي ﷺ ، ثم رحل إليهم فقال :

— ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، ولكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كميناً أو مدداً .

فذهب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئا ثم رجع إليهم وقال :

— ما رأيتم شيئا ولكن قد رأيتم يا معشر قريش البلايا^(١) تحمل

المايا ، ألا تروهم خرسا لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعي لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهلهم ، والله ما يرى أن يقتل منهم رجلا حتى

(١) الوق تترك على قبر صاحبها فلا تعلق ولا تسقى حتى تموت ويقصد

الإبل تحمل الموت .

يقتل رجل مكرم ، فإذا أصابوا مكرم أعدادهم فما حير العيش بعد ذلك ؟

وصادف ذلك القول هوى فى نفس حكيم بن حزم فهو يكره قتال روح عمته الطاهرة سيدة ساء قريش ، وإن خرج كارها لينقذ نفسه من تفريع ابن الحظلية أبي جهل بن هشام ، فمشى فى الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال :

— يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها إلى آخر الدهر ؟
— وما ذاك يا حكيم ؟
— ترجع بالناس .

فقام عتبة حطيباً على حمل أحمر ، فقال رسول الله عيم السلام :
— إن يكن فى أحد من القوم حير فعند صاحب الجمل الأحمر .
وقال عتبة :

— يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصعبون بأن تلعنوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن لا يزال رجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن حاله ورجلاً من عشيرته ، ارجعوا وحلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك أكفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون

يا قوم اعصبوها اليوم برأسى (أى اجعلوها عارها متعلقاتى) وقولوا حين عتبة وأنتم تعلمون أبى لست بأحبكم
وولدت على السماء هسات :

— ودم ابن الحضرمي ؟

فحف حكيـم بن حزام إلى عتبة وقل له :

— تجير بين الناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي وتحمل ما أصاب محمد من تلك العير .

فقال عتبة :

— نعم قد فعلت ، ونعم ما قلت ونعم ما دعوت إليه .

وصار عنة يحيل جملة في صفوف قريش يقول :

— يا قوم ! أطيعوني فإيكم لا تطلبون غير دم ابن الحضرمي وما أخذ من العير وقد تحميت ذلك . يا معشر قريش أشدكم الله في هذه الوجوه التي تصي ، صياء المصاييح أن تجمعوها أندادا لهذه الوجوه التي كأنها عيون الحياة .

كان عتبة بن ربيعة الرحن الذي حكته السنون يضيق بقريش أن تلقى أقواما ليس لهم ملجأ إلا سيوفهم فجعل يزين لهم الرجوع ، فلما رأى رسول الله عليه السلام راكب الجمل الأحمر يجيله في صفوف قريش قال :

— يا على ، ناد حمزة .

وكان حمزة أقربهم للمشركين ، فلما سمع نداء على اتجه إلى ابن أخيه رسول الله عليه السلام وفي وجهه إجلال وتوقير ، فقال له ﷺ :

— من صاحب الجمل الأحمر ؟ وماذا يقول لهم ؟

— هو عتبة بن ربيعة ينهى عن القتال .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام :

— انطلق لابن الحنظلية فقل له هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن

ابن عمك ؟

فجاءه حكيم فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه ، وإذا بعامر
ابن الحضرمي واقف على رأسه . إنه أخو عمرو بن الحضرمي الذي قتله
واقده بن عبد الله في سرية عبد الله بن حبحش إلى نخعة ، وهو لا يرى إلا
الحرب ليشفي غليل نفسه وهو يقول :

— قد فسخت عقدي من عبد شمس وعقدي إلى بني محزوم .
كان يهدد بفسخ ما بيته وبين عتبة بن ربيعة وأبي جهل بن هشام إذا
لم تثار قریش من قتله أخيه ، فلم يعرفه حكيم التفاتاً بل قال لأبي جهل
— يقول لك عتبة بن ربيعة هل لك أن ترجع بالباس عن ابن عمك
بمن معك ؟

فقال أبو جهل في غضب :

— أما وجد رسولاً غيرك ؟

— لا ، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره .

ثم قفل حكيم بن حزام بن خويلد راجعاً إلى عتبة لئلا يفوته من الخير
شيء ، وعتبة متكئ على إيماء بن رخصة العماري وقد أهدى إلى
المشركين عشر جزائر ، فطالع أبو جهل الشر في وجهه فقال لعتبة :
— انتفخ سحرک (١) ؟

قال له عتبة : ستعلم .

فسل أبو جهل سيفه فضرب به متى فرسه ، فقال إيماء بن رخصة :
— بئس القائل هذا .

(١) السحر : الرثه فيقال للحيوان انتفخ سحره ، لأن انتفاحه يرفع العنق إلى
الحلقوم وهو مثل لشدة الخوف .

دب الشقاق في معسكر قريش قبل أن يشب القتال ، فقد تبادل عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام وأبو جهل بن هشام أفحش السباب ، قال أبو جهل لعتبة :

— أنت تقول ارجع بالناس عن ابن عمك بمن معك ؟ والله لو غيرك يقول هذا لأعضضته (أى قلت له : اعضض على بظر أمك) ، أن قد ملأت رثك خوفاً رهبا . كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .

والتفت إلى حكيم بن حرام وقال :
— ما بعثه ما قال . ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور وبهيم ابنه أبو حليفه فقد تخوفكم عليه .

وأعجبت الفكرة قائلها فقام أبو جهل في الناس فقال :
— يا معشر قريش إنما يشير عليكم عتبة بهذا لأن ابنه مع محمد ، ومحمد ابن عمه فهو كره أن تقتلوا ابنه وابن عمه .

فغضب عتبة وسب أبا جهل وقال :
— سيعلم أينما أفسد لقومه .

وحسب أبو جهل أنه يقلب القوم على رأى عتبة لما ذكر أن ابنه في صفوف المسلمين ، وما دار بخلداه أنه أيقظ الذكريات الرقيقة من مصاحبتها وحرك أنبل ما في الإنسان من مشاعر ، وشائج القرى

والصدافات ، فإذا بكل من في عسكر قريش يذكر الأقارب والخلان في عسكر رسول الله ﷺ ، فاحتلت رأس عبد الرحمن بن أبي بكر صورة أبيه الشيخ الحليل ، وإذا بالعباس بن عبد المطلب يمكر في ابن أخيه سى الله الذى خرج معه ليلا إلى العقبة ليستوثق له من الخروج أن يمنعوه ما دام قد أبى إلا الانحياز إليهم . إنه كان يعنى سلامته فى تلك الليلة العاصلة أن يحاربه اليوم ليسفك دمه ١٩

وتذكر أحاه حمرة وابن أخيه عبي بن أبى طالب وكل من فى صفوف المسلمين من سى المطلب وسى هاشم ، فإذا به يتمنى من كل قلبه ألا يكون قتال ، ولولا حشيتة من نشوب حرب بين أبى جهل ورهطه وبين سى هاشم لقتل راجعا كما رجع الأخس بنى رهرة وتذكر أمية بن خلف رفيق العمر عبد الرحمن بن عوف ، إنه صديقه العزيز الذى فرق بينهما الإسلام . برى لو اختلطت الجمعان والتقى هو والصديق الحبيب وجها لوجه أيسطيع أحدهما أن يهوى بسيفه ليقضى على حبيبه ١٩ .

وتذكر رجال سى تيم الأحبة من بنى تيم الذين يقفون مع رسول الله عند ماء بدر ، وفكر هو مخزوم فى إخوانهم المسلمين من بنى محروم ، وإذا بكل قيمة من قريش تشفق على أباؤها الذين أبوا إلا الإسلام ، فوفقت الهزيمة فى قلوبهم قبل أن يشهروا السيوف ويدور القتال .

كان العقل يقضى بأن يعود أبو جهل بمن معه بعد أن أفلت أبو سميان بالخير ، ولكن الله قد بدد ذلك الصوت لأن الله أراد أمرا ليوطد لدينه فى الأرض ، فجعل أبا جهل يركب رأسه ويقاد لغروره ويصر

على خوض غمار القتال ويقول دون وعى مه : كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بينا وبين محمد !

وانتفت المشركون إلى عسكر المسلمين فجعلهم الله في أعينهم قليلا ليستدرجهم إلى مصارعهم ، وجعل الله المشركين في أعين المسلمين قليلا ليقوى جأشهم على مقاتلتهم حتى إن عبد الله بن مسعود التفت إلى رجل بجواره وقال :

— أترأهم سبعين ؟

— أراهم مائة .

وأَنزل الله تعالى : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدَّةِ الدِّينِ وَهُمْ بِالْعُدَّةِ الْقُصْوَى وَالرَّكِبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاحْتِلَاقِمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، لَهْلَكْتَ مِنْ هَهُنَا عَنْ بَيْنَةِ وَبَيْنَةٍ مِنْ حَيْثُ عَنْ بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ يَرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكِبٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُمُ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلِتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنْ اللَّهُ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يَرِيكُمُوهُمْ إِذْ التَّفَتُّنِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ ﴾ .

وكان قباث بن أشيم في صفوف المشركين ، فلما ألقى نظرة على عسكر المسلمين محس في قلبه : « لو خرجت ساء فريش بأكمتهما لردت محمدا وأصحابه » .

وأراد رسول الله ﷺ أن يستفد كل وسائل الصلح قبل أن يحوص القتال ، فما أُرسل إلا رحمة للعالمين ، فبعث إليهم عمر بن الخطاب سفيرهم في الجاهلية ليقول لهم :

— ارجعوا فإنه أن يلي هذا الأمر سي غيركم أحب إلى من أن تلوه

منى .

فتلقفها حكيم بن حزام فقال :

— قد عرض نصفاً فاقبوه ، والله لا تصرون عليه بعد ما عرض من النصف .

وصوبت العيون إلى أبي جهل الطاغية الذي فرض إرادته على الجميع ، فأدابه يقول :

— والله لا نرجع بعد أن مكسا الله منهم .

وخشى أبو جهل أن تنتصر رغبة السلام على القتال فبعث إلى عامر ابن الحضرمي أخى المقتول وقال :

— هذا حيفك يريد أن يرجع بالناس ويخدل عن القتال وقد تحمل دية أخيك من ماله ويزعم أنك قبلتها . ألا نستحي أن تقبل الدية من مال عتية وقد رأيت ثأرك بعيبك ؟ فقم فأذكر مقتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف إسته وحثا عليه التراب ثم صرخ :

— واعمره ! واعمره !

فثارت نفوس قريش يبا كاذ أخوه العلاء بن الحضرمي في صفوف المسلمين ينظر وقد ملئ أسى على ما يفعل أخوه من إثارة الأحقاد ، ورأى الأسود بن أبي سلمة المحرومى وكان رجلا سيء الحلق شديد العداوة لرسول الله ﷺ أن يشعل نار الحرب قبل أن تلعب بالرعوس دعوة السلام فقال :

— أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه .

وحرج الرجل الشرس ليقتحم عسكر المسلمين فخرج إليه حمرة

بن عبد المطلب يلعب بسيفه ، فلما التقيا ضربه حمزة فقطع قدمه
بنصف ساقه ، فطارت وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشجب
رجله دما . ولم يحزع لما أصابه بل عدا يحبو إلى الحوض حتى اقتحمه
وهدمه برجله الصحيحة يريد أن تبر يمينه ، فأتبعه حمزة فضربه حتى
قتله في الحوض .

وقضى مقتل الأسود بن أبي سلمة المخزومي على آخر أمل في
السلام ، فراح عتبة بن ربيعة يلتمس حوذة ليدخلها في رأسه فما وجد
في الجيش بيضة تسع رأسه لعظمه فتممم يرد له . ولم يجعل تحت
لحيته من العمامة شيئا .

ورأى حكيم بن حرام عبة يعمد إلى القتال فقال له حكيم :

— مهلا مهلا يا أبا الوليد ! لا تنه عن شيء وتكون أوله .

كان عتبة يحاول أن يقنع ابن الحظلية بالرجوع ، وأما وقد أخفق
وشب القتال فلا بد أن يكون أول من يخوض غماره ، فخرج بين أخيه
شبية وابنه الوليد حتى فصل من الصف ودعا للمارزة ، فخرج إليه فتية
من الأنصار ثلاثة إحوة أشقاء هم : معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء ،
فقال عتبة :

— من أنتم ؟

— رهط من الأنصار .

— ما لنا بكم من حاجة .

فأمرهم عليه السلام بالرجوع فرجعوا إلى مصافهم وقال لهم خيرا ،
ونادى منادى عتبة وشبية والوليد :

— يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا .

فقال النبي ﷺ :

— قوموا يا بني هاشم فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم إذ جاءوا .
ببطلانهم ليطفنوا نور الله .

قم يا عبيدة بن الحرث ، قم يا حمزة ، قم يا على .
فما قاموا ودنوا قالوا لهم :

— من أنتم ؟

كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح ، قال عبيدة :
— عبيدة بن الحرث .

وقال حمزة :

— أنا حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله

وقال على :

— أنا على بن أبى طالب .

— نعم . أكفاء كرام .

ومشى عبيدة وكان أسن الثلاثة إلى عتبة ، واتجه حمزة إلى شيبة ،
وبارز على الوليد ، ومد الجيشان الأبصار وقد حبست الأنفاس .
فالجولة الأولى كانت بين أباء العم سادات عبد شمس وصناديد بنى
هاشم . وغدت الدعوات ترف على شعاه المهاجرين والأنصار بعد أن
ابتهلت بها الأفئدة التى عمرت بأموار اليقين ، فلو قتل عبيدة وحمزة
وعلى فى أول لقاء لكات فاجعة رسول الله ﷺ فيهم تعز عن العزاء
وكان أبو بكر ينظر خافق انقلب وقد لفته رهبة ، بينما كان عمر
يحتلس النظرات إلى وجه رسول الله ﷺ وهو يرصد القتال فيستشعر
ثقل مرور اللحظات ويتمنى من كل وحدانه أن ينتصر رجال بنى هاشم

ليسعد عليه السلام بصر المسلمين ونجاة الأحياء .
وكان في عسكر المشركين رجال يرجون أن يظهر عبيدة وحمزة
وعلى وإن كانوا على غير دينهم ، فوشائح القرى كانت أقوى مما
يربط بينهم وبين السماء .

ولم يمهل حمزة أن قتل شعبة فأشرقت وجوه المسلمين بالأمل
وبسرت وجوه الكافرين ، وسرعان ما قتل عبي الوليد فندت من شفاه
المسلمين صيحات فرح يبا غامت وجوه المشركين بالأسى ،
واحتلف عبيدة وعتبة بينهما بصريتين كلاهما أثت صاحبه ، وقعت
الصربية في ركة عبيدة فأصاحت رحله وصار مع ساقه يسيل ، ثم مال
حمزة وعلى على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فجراه إلى أصحابه
فأصبحوه إلى جانب موقفه فأمره رسول الله ﷺ قدمه ، فوضع حده
عليها وقال لرسول الله عليه السلام :

— أأنت شهيدا يا رسول الله ؟

— أشهد أنك شهيد .

وعند رسول الله ﷺ — صوف أصحابه بسهم في يده ، عمر
بسواد بن عربة حليف بني النجار وهو خارج من الصف ، قطعه في
بطنه بالسهم الذي لا يصل له ولا ريش وقال :

— استو يا سواد .

— يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقذني من
نفسك .

كان سواد يطب القصاص من رسول الله عليه السلام ، فلم يعضب
عليه السلام بل كشف عن بطنه وقال .

— استقد .

فاعتفه سواد وقبل بطه فقال ﷺ :

— ما حملك على هذا يا سواد ؟

فقال سواد في انفعال :

— حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جدى

جلدك .

ولما عدل عليه السلام الصموف قال لهم :

— إن دنا القوم منكم فانضحوهم عنكم بالنبل ، واستبقوا نلکم

ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم .

إنه يصحبهم بأن يدفعوا عنهم أعداءهم بالسبل ثم يستبقوا نبلهم ولا

يرموه على بعد ، فالرمي على البعد يخطيء فيضيع النبل بلا فائدة ، ثم

رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره ، وسعد بن

معاذ قائم على باب العريش متوشح بسيفه مع نفر من الأنصار في خوف

على رسول الله ﷺ — كفرة العدو ، والركائب مهيأة لرسول الله

عليه السلام إن احتاج إليها ركبها .

ولما صطف الناس للقتال رمى قطبة بن عامر حجرا بين الصفيين

وقال :

— لا أفر إلا إن فر هذا الحجر .

وكان أول من حرج من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب

فقننه عامر بن الحصرمى بسهم أرسله إليه ، وأصاب حارثة بن سراقة

سهم عرب وهو يشرب من الخوص ، فإذا برسول الله ﷺ —

يتذكر ما كان بينه وبين حارثة . إنه عليه السلام قال لحارثة يوما وقد

استقبله :

— كيف أصبحت يا حارثة ؟

— أصبحت مؤمناً بالله حقاً .

— انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة .

— يا رسول الله ، عزلت نفسي من الدنيا فأسهرت ليلي وأظلمات

بهازي ، فكأنني بعرش ربي بارداً وكأنني أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون

فيها وكأنني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها .

— أبصرت فالرم ، أنت عبد بلر الله الإيمان في قلبه .

— ادع الله لي بالشهادة .

— فدعا له رسول الله — ﷺ — بذلك .

كان رسول الله عليه السلام وأبو بكر الصديق في العريش ، وطفق

— ﷺ — بإشاد ربه ويقول :

— اللهم لا تودع مني ولا تخدلي ، أشدك ما وعدتني ، اللهم

أنشدك عهدك ، اللهم إن نهلك هذه العصاة لا تعيد .

وما زال يدعو ربه ماذا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن

مكبه ، وشق على أبي بكر تعب السبي — ﷺ — في إلحاحه بالدعاء

فأخذ أبو بكر رداءه عليه السلام وألقاه على مكبه ثم التزمه من ورائه

وقال :

— كففاك تماشد ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك .

كان الصديق في مقام ارجاء والسبي — ﷺ — في مقام الحوف ،

فإذا به يحقق خفة وهو في العريش ثم يتبته ويقول :

— أشير يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا حبريل أحد عباد فرس

يقوده على شاياء النقع .

ثم خرج رسول الله ﷺ — إلى الناس فحرضهم وقال :

— والذى نفس محمد بيده لا يقاتنهم اليوم رجل فيقتل صابرا

محتسبا ، مقلدا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة

فقال عمير بن الحمام أحو نني سلمة وهي يده تمرات يأكلهن :

— بح بح ! أفما يبني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء !

ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وانطلق ليحارب حتى يقتل في

سبيل الله .

ورأى المسلمون القتال قد شب فعجوا بالدعاء إلى الله تعالى ،

فأنزل الله تعالى عبد ذلك ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي

مُمِدُّكُمْ بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ . (١)

راح المؤمنون والمشركون يقتتلون ، وطر سراقه بن مالك إلى المسلمين فإذا به يرى الموت يطل من أسياهم وهم يتلمظون تلمظ الحيات ، فاحلغ قلبه وتذكر يوم أن حرح في أثر الرسول عليه السلام وهو في هجرته إلى المدينة فرارا من قريش وما كان من سقوطه عن ظهر جواده كلما دنا من سبي الله ، فوقع في نفسه أنه يقاتل في سبيل الفضل مكص عبي عقيه ، فقال رحل لسراقه .

— يا سراقه ، أترعم أنك لنا جار !

— إني برء مسكم ، إني أرى ما لا ترون ، إني أحاف الله والله شديد العقاب .

فتشيت به الحارث بن هشام أخو أبي جهل وقال له :

— والله لا أرى إلا خفافيش يثرب .

وإذا بضربة تصوب إلى صدره فيسقط ويعت سراقه وبعض من معه خارجين من المعركة .

وحشى أبو جهل أن يفت ذلك في عصبة المشركين فقال :

— يا معشر الناس لا يهكم حدلان سراقه فإنه كان على ميعاد من

محمد ، ولا يهكم قتل عقة وشيبة والوليد فإنهم قد عجلوا ،

واللات وانعري لا ترجع حتى نقر محمد وأصحابه بالحال .

لا تقتوهم ، حدوهم باليد .

(عروة بنر)

وقال رسول الله ﷺ — لأصحابه

— إنكم قد عرفتم أن رجلا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا
إكره لا حاجة لهم بقتالنا . فمن لقي العباس بن عبد المطلب فلا
يقتله . ومن لقي أبا البختري فلا يقتله .

كان أبو البختري ممن نهض في تمزيق الصحيفة الطالمة ورفع
الحصص الذي صرته قريش على بني المطلب وبني هاشم لمصيرتهم
رسول الله عليه السلام ، فلماذا ذكر العباس دون غيره من بني هاشم ؟
أكان العباس قد أسلم وكنم إسلامه ليكون عينا له على قريش ، أكان
قلم محارباته عليه السلام ؟!

فقال أبو حذيفة :

— أقتل آباؤنا وأبائنا وإخوانا وعشيرتنا ويترك العباس ؟ لن لقيته
لأجمة السيف .

رأى أبو حذيفة مقتل أبيه عنة بن ربيعة وعمه شيبه وأخيه الوليد
فهرته المأساة على الرعم من صدق إيمانه فقال مقالته : فلما بعث
رسول الله عليه السلام قال لعمر :

— يا أبا حفص ، أصررت وجه عم رسول الله بالسيف ؟

كأن ذلك أول يوم كساه فيه رسول الله ﷺ — بأبي حفص
فقال عمر في تأثر وانفعال :

— يا رسول الله ، دعني أصرر عمه بالسيف هو الله لقد وافق
ولم يدعه رسول الله ﷺ — يصرر عم أبي حذيفة ، فقد نزع
الرسول أربه بإعلان أنه لن يرصني عن قاتل العباس ، ولو كان العباس
كافرا ما اهتم به رسول الله ﷺ الذي بعث بالحق والعدل كل هذا

الاهتمام ، ولكنه كان عليه السلام يحشى أن يقتل مطلوماً وأن يفقد قلم مخابراته في مكة .

ودعا عوف بن الحرث بن عفرأ من رسول الله عليه السلام وقال :

— يا رسول الله ما يضحكك الرب من عبده ؟

كان عوف يريد أن يرصى ربه غاية الرضا ، فقال له رسول الله —

ﷺ :

— غمسه يده في العدو حاسراً .

ومرغ درعا كانت عليه فقدمها . ثم أخذ سيفه ليقاثل حتى يقتل .

وقاثل معبد بن وهب زوح هريرة بت رمعة أحت أم المؤمنين سودة

بت رمعة سيميس ، ثم أخذ رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه —

حصة من الحصباء فاستقبل بها قريشاً ثم قال :

— شأنت الوجوه ! اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم .

وكان علي ميممة رسول الله — ﷺ — أبو بكر ، وكان علي

ميسرته علي بن أبي طالب ، وكان علي ميممة قريش الحارث بن عامر

بن نوفل ، وعلي ميسرتهم رمعة بن الأسود . وعلي حيل لمشركين

الحارث بن هاشم .

ويصف المسلمون وتراجعوا وهم لا يسون السيوف ولكمهم قد

انتصوا القسى ، فقد أمرهم رسول الله عليه السلام ألا يسولوا السيوف

حتى يعيشهم ، وغدا المسلمون يهتفون بشعارهم : يا منصور أمت .

يا منصور أمت . فإذا بالأرض ترلزل تحت أقدام أعدائهم .

ولقى الزبير بن العوام عبيدة بن سعيد بن العاص على فارس عليه

لأمة^(١) كاملة لا يرى منه إلا عيناه ، وهو يقول :

— أنا أبو ذات الكرش .

فقد كانت له صبية صغيرة ، وكان لها بطين وكانت في يد الربير عنزة (شبيه العكار ، أطول من العصا وأقصر من الرمح لها زح في أسفلها) ، قطعن بها في عيه فوقع وراح الربير يطأه برجله على خده حتى أخرج العزة متعققة^(٢) وأخرج حذقته .

وأقبل عاصم بن أبي عوف السهمي لما جال الناس واحتلطوا وكأنه ذئب وهو يقول :

— يا معشر قريش عيكم بالقاطع مفرق الجماعة الآتي بما لا يعرف محمد . لا نجوت إن نجا !

فاعترضه أبو دحانة فاحتلفا ضربتين ، فصر به أبو دحانة فقتله ووقف على سلبه يسليه ، فمر به عمر بن الخطاب فقال :

— دع سبه حتى يجهض العدو وأن تشهد لك به

وأُقتل معبد بن وهب أحد بني عامر بن روى فصر أبا دحانة ضربة برك مها أبو دحانة كما يرك الحمل ، ثم انتهص وأقبل على معبد فضربه ضربات لم يصنع سبه شيئا حتى يقع معبد في حفرة أمامه لا يراها ، ونزل أبو دحانة عليه فديحه دبحا وأحد سلبه

وراح عقبة بن أبي معيط يتقدم ليس له هدف إلا أن يصل إلى رسول الله عليه السلام ، فقد بدت العداوة من فمه لما قال يوم أن هاجر رسول الله ﷺ :

(٢) عليها اندم

(١) الدرع .

ما راكب الناقة القصواء هاجرنا

عما قليل تراهي راكب الفرس

أعِلْ رمحي فيكم ثم أنهل

والسيف يأخذ منكم بكل ملتبس

إنه قال ذلك وقد بلغ رسول الله ﷺ — وهو يحارب ليحقق ما

قاله في شعره ، فعاية أمانيه أن يسدد رمحه إلى قلب رسول الله عليه السلام .

ورأت بنو مخزوم مقتل من قتل فقالت :

— أبو الحكم لا يخلص إليه ، فإن ابني ربيعة عجلا وبطرا ولم تحام

عنهما عشيرتهما .

فاجتمعت بنو مخزوم فأخذوا به فحعلوه في مثل الحرجة ،

وأجمعوا أن يلبسوا لأمة أبي جهل رجلا منهم فألبسوها عبد الله بن

المدر ، فصمد له على فقتله وهو يراه أبا جهل ، ومضى عنه وهو

يقول :

— أنا ابن عبد المطلب .

ثم ألبسوها أبا قيس بن العاكه بن المعيرة فكر عليه حمزة وقد لبس

ريشة معلمة وهو يراه أبا جهل ، فضر به فقتله وهو يقول :

— خذها وأنا ابن عبد المطلب .

ثم ألبسوها حرملة بن عمرو فصمد له على عليه السلام فقتله ، ثم

أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعلم فأبى أن يلبسها .

وراح عبد الرحمن بن عوف يحوص في صفوف الكافرين فإذا

بغلامين ليس مهمما واحد إلا وقد ربطت حمائل سيفه في عنقه

لصغره ، فالتفت إليه أحدهما فقال :

— يا عم ، أليس هو جهل ؟

— وما تصعب به يأس حتى ؟

— بلعني أنه حسب رسول الله ﷺ .
لأقنته أو لأمرس دونه .

فأشار عبد الرحمن بن عوف إليه وقال

— من أنتم ؟

— ابنا عقرأ .

فخرج يعدو إليه كأنه سبع ولحقه نخوة ،
بالبسوف فإذا بأبي جهل يستقط وهو يحط في ربه

وتقدم عمر بن الخطاب فإذا به أمام حمة بن
المعيرة ، فرفع عمر سيفه وهوى به على حاله فإذا به

تركه وتقدم يحوص المعركة لإعلاء كلمة الله
وراح يوق من حويد الأسدي أن يصيح ،

رافعا عقيرته

— يا معشر فريش ، إن هذا يوم معلل ، وإني

وقال رسول الله ﷺ :

— اللهم اكفني نوفل بن العديوة .

ورأى نوفل قتل أصحابه ، فأقبل يصيح وهو مرعوب

— ما حاجتكم إلي دعائنا ؟ أما ترون من تقتلون ؟

من حاجة !

كان يرمرر بين العداء ، إلى النوق المحبوب .

فهو يسوقه أمامه ، فجعل يهول يقول لجبار ورأى عليا عليه السلام مقبلا نحوه :

— يا أبا الأصبار ، من هذا واللات والعزى ؟ إني لأرى رجلا ، إنه ليريدنى !

— هذا على بن أبى طالب .

— تالله ما رأيت كاليوم رجلا أسرع فى قومه !

فصمد له على عليه السلام فصره فثشب سيف على فى ترسه ساعة ، ثم بزعه فصر به ساقيه ودرعه مشتمرة فقطعهما ، ثم أجهز عليه فقتله .

وأقل العاص بن سعيد بن العاص يبحث عن القتال فالتقى هو وعلى عليه السلام ، وقتله على .

وحرح على فى أثر المشركين ، فإذا برجل منهم على كتيب رمل يقاتل سعد بن حيشمة ، فقتل المشرك سعد بن حيشمة والمشرك مقع مى الحديد وكان فارسا ، فاقحم عن مرسه فادى :

— هلم يا بن أبى طالب إلى البراز .

فعطف على عليه السلام عليه ، فانحط الرجل مقبلا وكان على رجلا قصيرا ، فانحط راجعا لكى يزل إليه ، كره أن يعنوه فقال :

— يا بن أبى طالب فررت !

— قريبا مفر ابن الشراء .

فلما استقرت قدما على وثبت ، أقبل ابن الشراء فلما دنا من على صر به ، فالتقى على الصرية بالدرة فوقع سيف ابن الشراء ، فصره على عليه السلام على عاتقه وهو دارع فارتعش ، ولقد قطع سيف على

درعه فظن على أن سيفه سيقتله ، فإذا برىق سيف من ورائه فطأطأ على رأسه ويقع السيف فيطن فحرف رأس ابن الشراء بالبيضة ، وإذا بصوت يقول :

— خذها وأنا ابن عبد المطلب .

والتفت على من ورائه فإذا هو حمزة عمه ، والمقتول طعيمة بن عدى .

فالتفت على إلى طعيمة وقال :

— والله لا تخاصمنا في الله بعد اليوم أبدا .

وكان فتية من قريش خمسة قد أسلموا فاحتبسهم أبائهم : قيس بن الوليد بن المعيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المعيرة . والحارث بن رمعة بن الأسود ، وعبي بن أمية بن حلف ، والنعاص بن ميه بن الحجاج . فلما قدموا يدرا ورأوا قلة أصحاب النبي ﷺ وآله قالوا :

— عر هؤلاء ديسهم .

وراح عمير بن أبي وقاص الفتى لدى كان أخوه سعد بن أبي وقاص يربط له حمائل سيفه من صعر سه يمشي بين صفوف المشركين وهو يلعب بسيفه . وإذا به أمام عمرو بن عبد ود فارس قريش الذي لا يشق له عيار ، فاحتلما ضربتين وإذا بعمر بن يضرب عمير ضربة يسقط بعدها شهيدا في سبيل الله

وطفق عكرمة بن أبي جهل يصول ويحول فقتل رافع بن المعلى من بني رريق وأسنة مولى النبي ﷺ ، وهجم على بن أبي طالب على عامر ابن عبد الله حليف لعبد شمس من أمار فلم يتركه إلا جثة هامدة على أرض المعركة التي انتشرت فيها حث أعداء الله ورسوله .

وراح حمزة بن عبد المطلب يارز عقيل بن الأسود بن المطلب ،
وفى مثل لمح البصر نزل على عقيل سيف على وعلى يقول :
— عذها وأنا ابن عبد المطلب .

وقصد الجراح ابنه أبا عبيدة بن الجراح ليقتله فولى عنه أبو عبيدة ،
بيد أن أباه أصر على طلبه فرجع أبو عبيدة إلى أبيه وقتله ، فأنزل الله
تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله
ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في
قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ألا
إن حزب الله هم المفلحون (١) » .

ولقى المجدد بن رباد البلوى حليف الأنصار أبا البختری فقال له :
— إن رسول الله ﷺ — وآله نهانا عن قتلك .
وكان مع أبي لبختری زميل له خرج معه من مكة يقال له جادة بن
مليحة فقال أبو البختری :

— وزميلي ؟
— والله ما نحن بباركي زميلك . وما نهانا رسول الله ﷺ —
إلا عنك وحدك .
— إذا والله لأموئن أنا وهو جميعا ، لا نتحدث عنى نساء أهل مكة
أنى تركت زميلي حرصا على الحياة .
فمازله المجدد وارتجز أبو البختری فقال :

بن مسلم ابن حسرة رميسه حتى يموت أو يرى ميله
ثم اقتلوا فقتله المعجدر .

كان أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله — ﷺ — في
جيش قريش . إنه خرج كارها القتال . فمما دفع أبو جهل بقريش دفعا
إلى خوض عمار المعركة امتشق أبو العاص سيفه وهو يرجو ألا يلقى
محمدا عليه السلام ، فإذ طالما زاره في بيت خالته خديجة قبل أن
يتروح ريب وألقى إليه سمعه وأعجب بمسطقه وحسن حلقه . وما أكثر
ما اجتمع به بعد زواج ابنته وكان له خير أسوة لولا ذلك الدين الذي
جاء به ابن عبد الله .

وراح على بن أبي طالب يفعل بقريش الأفاعيل ، فما من رهط من
بيوت شرف قريش إلا وقد قتل منه رئيسا إنه ترك حظلة بن أبي
سفيان مجذولا بسيفه فأوغر عليه صدور الأمويين ، وقتل الوليد بن عتبة
بن ربيعة فقلب عليه بنى عبد شمس ، واشترك مع عمه في القصة على
طعيمة بن عدى ، وترك الحارث بن رمة بن الأسود كأمس الدابر
فأصبح هدف أحقاد بني أسد ، وراى في حقدهم أنه شئ بفول بن
خويلد بن أسد ، وأضاف إلى الأحقاد أحقاد بني تيم لما صرع عمير بن
عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بضربة من حسامه .

وقطع عليه السلام رأس أبي قيس بن الوليد أحى خالد بن الوليد
فاكتسب عداوة بنى المعيرة وبني محزوم ، وأضاف إليه مسعود بن أبي
أمية بن المعيرة وحاجز بن السائب المخرومي ، فكانت قلوب بنى
المعيرة وبني محزوم كلها عليه .

وقتل من بنى سهم خيرة رجالهم : جدل منه بن الحجاج وبنيه بن

لحجاج والمعاص بن مبه بن الحجاج وأبا المعاص بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، فكان عليه السلام فتي بدر أصاح برعوس أبناء الشرف في قريش في سبيل الله ، فبذر العل في الصدور وراح يقاسى مرارة لأحقاد علي مر الأيام وإن جاء الإسلام ، حتى آخر الأنفاس !

وكان حمزة أسد الله ورسوله يمشی إلى الكفار وقد أطل من سيفه المنور ، فما إن يرى صناديدهم ريشة العام التي في صدره حتى تنحلع قلوبهم ، فقد قتل سيدهم عتة بن ربيعة وفارسهم عقيل بن الأسود بن المطلب وأبا قيس بن الفاكه بن المعيرة والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن محزوم . إن صوته يحلجل بعد كل صريرة . « حدها وأنا ابن عبد المطلب » ، فتحلج لها القنوب .

وارتفعت أصوات المسممين من كل جانب .

— يا منصور أمت .

فإذا من بقى على قيد الحياة من المشركين لا يدرون أين الممر . وراح حكيم بن حزام يسعى ويقول :

— قاتل الله ابن الحنظلية ! يزعم أن النهار قد ذهب ، والله إن النهار لكما هو .

كان حكيم مثلها على أن يأتي النيل فيقصر عنه طلب القوم . وفيما هو يهرول وقد ولى الأديار قد أدرك عبيد الله وعبد الرحمن ابني العوام على جمل لهما ، فقال عبد الرحمن لأخيه .

— انزل فاحمل أبا خالد .

وكان عبيد الله رجلا أعرج لا قوة له على المشي ، فقال عبيد الله .

— إبه لأرجلة (قوة) بي كما ترى .

وقال عبد الرحمن :

— والله أن لا بد منه . ألا يحمل رجلا إن متنا كهانا ما حلفنا من عيالنا وإن عشنا حملنا كتنا ؟

فتزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج فحملاه فكانوا يتعاقبون الجمل .
وابهرم قبات بن أشيم الكتاني فيمن انهزم وعدا يطر فإذا المشركون في كل وجه ، فجعل يقول في نفسه :

— ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه النساء !

وصاحبه رجل فيسا هو يسير معه إذ لحقهما من حلفهما ، فقال لصاحبه :

— أهلك يهوضي ؟

— لا والله ما بي .

ولحق بصاحبه المسلمون فقتلوه ، وراح يشتد ويجري في الدروب ولم يسلك المحاح خوفا من الطلب .

وأسر من بني هاشم العباس بن عبد لمطلب أسره أبو اليسر كعب بن عمرو ، وعقيل بن أبي طالب أسره عبيد بن أوس الظفري ، ونوفل بن الحارث ، ومن بني عبد شمس عقبة بن أبي معيط ، ومن بني أمية عمرو بن أبي سفيان أسره علي بن أبي طالب .

وأسر خراش بن الصمة أبا العاص بن الربيع . وراح المسلمون يصمون أيديهم على من عرهم أبو جهل وري لهم القتال ليظفوا نور الله .

وألقي الذين ولوا الأدبار دروعهم ليحفقوا بها فراح المسلمون يحمرونها ، فيسا عبد الرحمن بن عوف يجمع أدرعا فإذا أمية بن حلف

صديقه فى الجاهلية يساق كأنه جمل ومعه ابنه على ، فونعت عينا أمية
عنه فنادى :

— يا عبد الإله

فأجابه عبد الرحمن فقال له أمية :

— أما لكم حاجة فى اللبس ؟ نحن خير لك من أدرعك هذه ؟

— امصبا .

فجعل يسوقهما أمامه ، وقد رأى أمية أنه قد أمن بعض الأمن فعال

له .

— رأيت رجلا فيكم اليوم معلما فى صدره بريشة نعام ، من هو ؟

— حمزة بن عبد المطلب .

— داك الذى فعل بنا الأفاعيل !

ثم قال :

— فمن رحل دحداح قصير معلم بعصابة حمراء ؟

— داك رجل من الأنصار يقال له سماك بن حرشة .

فبينما هو مع عبد الرحمن يسوقه أمامه ومعه ابنه إذ بصر به بلال وهو

يضحى عجبنا له ، فترك العجيب وجعل يقتل يديه منه قتلا دريعا . قد

تذكر فى لحظة تلك الأيام التى كان أمية يعدبه فيها فى رمضان مكة

فنادى :

— يا معشر الأنصار ، أمة من حلف رأس الكفر ! لا نجوت إن

نجا .

فأقبل الأنصار حتى طرخوا أمية على ظهره واصطجع عبد الرحمن

بن عوف على صديقه يحميه منهم ، فأقبل الحباب بن المنذر فأدخل

سيمه فاقطع أرنة أنفه ، فيما فقد أمة أنه قال لعبد الرحمن :

— خل بيني وبينهم .

وأقبل حبيب بن يساف فصر به فوق العاتق فقطع عاتقه حتى بدع مؤنزره وعبيه الدرع وهو يقول :

— خذها وأنا ابن يساف !

وأخذ سلاحه ودرعه ، وتعرض الحباب بن المندر لعلى بن أمة من خرج من مكة مسلما ثم بافق فقصع رجله فصاح صيحة عظيمة ، ولقيه عمار فقتله ، فطمر عبد الرحمن إلى أمة وإلى بلال ثم قال :

— رحم الله بلالا ! أذهب أدرعى وفجعى في أسرى

وأسر المقداد النصر بن الحارث عبدو رسول الله عليه السلام اللدود ، وأسر سهيل بن عمرو ، فربط الشريهان بالحبال وساقتهما المسلمين أمامهم كما تساق الإبل ، وحيء بالأسرى فكره ذلك سعد ابن معاذ فقال له رسول الله ﷺ :

— كأنه شق عليك أن يؤسروا !

— نعم يا رسول الله ، كانت أول وقعة التقيا فيها بالمشركين فأحست أن يذلهم الله وأن يشحن فيهم القتل .

ووصعت الحرب أوزارها فإذا الناس ثلاث فرق : فرقة قامب عد
 حيمة رسول الله ﷺ ، وفرقة أغارت على السهب تنتهب ، وفرقة
 طلبت العدو فأسروا وغموا . وأقبل على رسول الله حمزة وكان معلما
 بريشة نعام ، وعلى بن أبي طالب وكان معلما بصوفة بيضاء وقد
 أشرقت الوجوه بالفرح ، فقال رسول الله ﷺ :

— من له علم بنوفل بن خويلد ؟

قال علي عليه السلام :

— أنا قتله .

فكبر رسول الله ﷺ — وقال :

— الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه .

وأمر رسول الله ﷺ — أن يلتمس أبو جهل ، فانطلق عبد الله بن
 مسعود بين القتلى يبحث عنه فوجده في آخر رمق ، فوضع رجله على
 عنقه فقال :

— الحمد لله الذي أخزأك .

فقال أبو جهل وهو يلتقط أنفاسه في جهد :

— إنما أخزى الله العبد ابن أم عبد ! لقد ارتقيت يا رومي العنم

مرتقي صعبا ! لمن الدبرة ؟

— لله ولرسوله .

فأقبح يرضته عن قتله وقال ابن مسعود :

— إني قاتلك .

— لسب بأول عبد قتل سيده ، أما إن أشد ما لقيته اليوم لقتلك إياي ، ألا يكون ولّي قتل رجل من الأحلاف أو من المطيبين !
فضربه عبد الله ضربة وقع رأسه بين يديه ، ثم قفل عائدا إلى رسول الله عليه السلام وعنده عقيل بن أبي طالب أسيرا ، فقال وهو يتهلل بالفرح :

— قتلت أبا جهل .

فقال له عقيل :

— كذبت ما قتلت .

فقال ابن مسعود :

— بل أنت الكذاب الآثم يا عدو الله ، قد والله قتلت .

وقال ابن مسعود إنه قطع رقبته ، فبعث عليه السلام رجالا يتمسونه في القتلى وقال :

— إن خفي عبيكم انظروا إلى أثر جرح في ركبته ، فإنني أردحت يوما أنا وهو عنى مائدة لعبد الله بن جدعان ونحن علامان وكنت أسن منه يسرا ، فدفعته فوق علي ركبته فحشش علي إحديهما حششا لم يزل أثره به .

فغدوا يطلبونه فوجدوا ذلك الأثر فعادوا إلى رسول الله ﷺ — وقالوا :

— أبشر يا بني الله بقتل عدو الله أبي جهل .

فقال — ﷺ — وقد تفرقت في عيبه الدموع :

— الحمد لله الذى أعز الإسلام الحمد لله الذى أعز الإسلام .
 الحمد لله الذى أعز الإسلام .
 وخر ساجدا شكرا لله .
 وراح على يقول :

— اختلفت أنا والوليد بن عتبة صربتين فأخطأتني صربته ، وأضربه
 فاتفاني بيده اليسرى فأبانهى السيف فكأننى أنظر إلى وميض حاتم فى
 شماله ، ثم صربته أخرى فصرعته وسلته فرأيت به الردع
 (الزعفران) من خلوق ، فعلمت أنه قريب عهد بعرس .
 وجاء المجذر إلى رسول الله — ﷺ — يعتذر عن قتل أبى البختري
 بعد أن نهى عليه السلام عن قتله لأنه ليس السلاح يوم أن نقض صحيفة
 قريش الجائرة وقال : « لا يعرض اليوم أحد لمحمد بأذى إلا وضعت
 فيه السلاح ، فجعل يقص على النبى عليه السلام ما كان بينه وبين أبى
 البختري ثم قال :

— والذى بعثت بالحق لقد جهدت أن يستأسر فأتيتك به فأبى إلا
 القتال ، فقاتلته فقتلته .

ويان الأسى فى وجه رسول الله — ﷺ — فقد كان من صفاته
 الوفاء لكن من قدم إليه حسنة وإن كان على غير دينه
 وعدا رسول الله — ﷺ — يتفقد القتلى فوقف على مصرع أبى
 عفرأ فقال :

— يرحم الله أبى عمراء فإنهما قد شركا فى قتل فرعون هذه الأمة .
 ورأى عليه السلام الحارث بن زمة بن الأسود بن عبد المطلب بن
 أسد ، وأبا قيس بن الفاكه بن المعيرة ، وعلى بن أمية بن خلف ، وأبا
 (عزوة بلر)

قيس بن الوليد بن المغيرة ، والمعاص بن منبه بن الحجاج وقد هبرتهم
أسياف المسلمين وتركهم كأمس الدابر . إنهم كانوا أسلموا ورسول
الله ﷺ — بمكة ، فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة حبسهم
آباؤهم وعشائره بمكة وقتلهم فافتسوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر
فلما رأوا المسلمين قلة قالوا هازئين :

— غر هؤلاء دينهم .

فأنزل الله فيهم : « إن الدين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم
قالوا . فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن
أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا .
إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا
يهدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا
غفورا » (١) .

وأمر رسول الله ﷺ — بالقتلى أن يطرخوا في القليب (البئر)
فطرخوا فيه ، إلا ما كان من أمية بن خنيس فإنه اتمح في درعه فملأها .
فدهبوا ليحرقوه ففرق لحمه فأفروه وألقوا عليه ما عيه من التراب
والحجارة .

وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، فطر — فطر — في وجه
أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كتيب قد تغير لونه ، فقال :
— يا أبا حذيفة لعنك قد دخلك من شأن أيدي شيء ؟
فقال أبو حذيفة في صوت خافت فيه رنة أسي :

— لا والله يا رسول الله ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكني كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ودكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك .

فدعا له رسول الله ﷺ — بحير وقال له خيرا .

وجاء رجل من المدينة يسعى ، إنه يحمل أنباء استدخل السرور على قلوب المسلمين ، أنباء انتصار الروم على فارس وقد كانت آيات الله البينات تدوى بين جنبيه دوى فتجعله يود لو أن راحلته تطير ليرى البشرى إلى رسول الله ﷺ — وكانت كل خوالجه ترتل : « ألم . علبت الروم . في دس الأرض وهم من بعد عليهم سيفلون . في بصع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بصر الله يصبر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) » .

وكان الرجل يحسب أن فرح المؤمنين بصر الله إنما سيكون لعبة الروم على الفرس وحسب . فما كان يدرى أن المؤمنين قد انتصروا بصرهم الكبير على الكافرين في بدر وأن الفرح قد ملأ أفئدتهم وأن نبأ انتصار الروم على فارس تحقيقا لوعده الله إنما سيزيد في استيشارهم ويثبت إيمانهم .

إن كسرى الثاني قد اضطهد أشراف قومه وسامهم سوء العذاب وساعد على تدهور الدين حتى فسدت الأخلاق والعقيدة وعبادات

المجوس والموايزة ، فكثرت ارتداد الناس عن دينهم واشتد حرصهم على الدنيا ، واشتغل رجال الدين بالتجارة وتعلقوا بحكام الدنيا تعلقاً شديداً فكانوا أسوأ مثل للشعب ، فنحر سوس الفساد في النفوس . واصطهد كسرى الصارى جميعاً نساطرة ويعاقبه ، وكثرت أوامره التي تقضى بقتل قواده ورجال دولته ، فظعن قلب فارس بحجر مسموم قبل أن يسدد إليها هرقل الصربة القاضية . كانت فارس قد انتحرت قبل أن يدهمها الغزو الروماني .

وبلغ الرجل معسكر المؤمنين في بدر هرل عن راحلته واطنق إلى رسول الله ﷺ فقال :

— انتصرت الروم على الفرس .

فاذا بأصوات المؤمنين تتردد في بدر بالتكبير .

— الله أكبر .. الله أكبر .

وامتلأت النفوس بالشوة واتجهت لأعين إلى أبي بكر الصديق ، وإذا بالذكريات تعود إلى أيام مكة أيام أن نزلت آيات الروم بعد أن انتصرت الفرس عليها ، فقد سخر الكافرون من وعد الله فتشبت مشادة بين الصديق وأمية بن خلف حول آيات الله البينات انتهت بأن تراهن الرجلان على بل يسوقها أبو بكر إلى أمية إذا ما انفصلت ست سنين دون أن يظهر الروم على الفرس ، وها هو ذا وعد الله قد تحقق ، ولكن أبي أمية بن خلف ليسوق إلى أبي بكر الرهان ؟ إنه غارق في حزيه تحت التراب والحجارة . وأين أبر جهل والمكذبون ؟ إنهم في القلب نهاية كل الطعنة المتعصرين ، وعد الله لا يحلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وبقى رسول الله ﷺ — ثلاثة أيام يدر ، وفي الليل أمر بإحلاته
شد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة القليب
وجعل يقول :

— يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل
بن هشام ، بئس عشيرة النبي كنتم . كدبتموني وصدقني الناس ،
وأخزجتموني وآوانى الناس ، وقاتلتهموني ونصرني الناس . هل وجدتم
ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً .
فقال عمر :

— يا رسول الله كيف تكلم أحسادا قد جئفوا ؟
— ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .
وسار المؤمنون يحملون الغنائم ويسوقون الأسرى ، وراح حسان
ابن ثابت شاعر الرسول يقول :

عرفت ديار زيب بالكثيب
كخط الوحي^(١) في الورق القشيب
تداولها الرياح وكل جون^(٢)
من الوسمي^(٣) منهمر مكوب
فأسمى رسمها خلقا وأمس
يبابا بعد ساكنها الحبيب

(١) الوحي - الكتابة . (٢) الجون . الأبيض والأسود .

(٣) الوسمي : مطر الحريف .

فدع عنك التذكر كل يوم
ورد حمرارة الصدر الكسيب
ونخير بالذى لا عيب فيه
بصدق غير أبحار الكسود
بما صنع المليك غداة بدر
لنا فى المشرकिन من النصيب
غداة كأن جمعهم حراء^(١)
بدت أركانسه جنح العروب
بلاقياهم ما بجمع
كأسد الغاب مژدان وشيب
أمسام محمد قد وارروه
على الأعداء فى لفح الحروب
بأيديهم صوارم مرهفات
وكل محرب غاظى^(٢) الكعوب^(٣)
بنو الأوس العطارف وازرتهما
بنو النجار فى الدين الصليب^(٤)

(١) حراء : جبل بمكة

(٢) الحاظى : المكتنر .

(٣) الكعوب : عقد القناة .

(٤) الصليب : الشديد .

فعاذرننا أبا جهل صريحا
وعتبه قد تركنا بالحبوب
وشية قد تركنا في رجال
دوى حسب إذا سبوا حسب
يناديهم رسول الله لمسا
قلناهم كباكب^(١) في القلب
ألم تجدوا كلامي كان حقا
وأمر الله يأخذ بالقلوب ؟
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا :
صلقت وكنت ذا رأى مصيب

(١) كباكب : جماعات .

نزل رسول الله ﷺ - الأثيل فعرض عليه الأسرى ، فالتق بصره
 ببصر عمه العباس فإذا بمشاعر رقيقة تكتفه وقد التمعت عيناه سرورا
 أن أصاعه المسلمون في العباس فلم يقتلوه . وقد اكتفى بأسره أبو اليسر
 كعب بن عمرو وكان موقفه عليه السلام من العباس يثير كثيرا من
 التساؤل ، فلماذا أعلن على الملأ الأمان لعمه ؟ ألوشائج القرى التي
 بينهما ؟ إذا كان ذلك هو السبب فلماذا لم يعلن الأمان لعقيل بن أبي
 طالب وسادات بني هاشم وبني المطلب ؟ أولو كان أبو لهب في
 صفوف قريش أكان محمد عليه السلام يؤمن حيانه ؟ إن أبا لهب قد
 بعث عوضا عنه العاص بن هشام بن المعيرة وكان قد قامره في عشر من
 الإبل فغلبه ثم في عشر فقمرة ثم في عشر فقمرة إلى أن حلعه من ماله
 فلم يبق له شيء ، ثم قامره على أن من غلب يصح عبدا لصاحبه ، وقد
 غلب العاص وصار لأبي لهب عبدا . فلما خرج المشركون إلى بدر
 كان من لم يخرج أخرج بدिला . وكان أبو لهب عليلا فأخرجه وقعد
 على أنه إن عاد إليه أعتقه ، فقتله على بن أبي طالب . لو كان أبو لهب
 أسيرا لأمر عليه السلام بضرب عنقه ، فلماذا أحيى العباس ؟ أكان
 العباس مسلما وقد كنتم إسلامه ليكون عيا لرسول الله عليه السلام في
 مكة ؟ ليكون قلم مخاراته ؟! أكنتم عليه السلام سر عمه وتحمل في
 صبر ما رفرق على بعض الشفاء من إنكار لذلك التحيز الطاهر في سبيل

نصرة قضية الإسلام ؟ إن سر العباس بن عبد المطلب كان في صدرين لا ثالث لهما : صدر رسول الله عليه السلام ، وصدر عمه الذي حرح معه ليقف إلى حواره في بيعة العقبة وليأخذ على الأنصار الموائيق لحماية رسول الله ﷺ .

ورأى عقيل بن أبي طالب أحب أبناء عمه إلى قلب الشيخ في الأسر ، وبوهد بن الحارث بن عبد المطلب وقد أسره جبار بن صخر ، فتجاوزهما ثم نظر إلى النصر بن الحارث وقد أسره المقداد فأدا في مثل لمح البصر يتذكر رسول الله عليه السلام كل ما كان يفعل النصر من هزء به وبآيات الله . فيا طالما قال : ﴿ قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (١) . ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ (٢) ، وارتجف النصر واقشعر جلده من نظراته عليه السلام فقال لرجل إلى جبهه :

— محمد والله قاتلي ! لقد نظر إلى بعينيه فيهما الموت !

فقال الذي إلى جانيه :

— والله ما هذا منك إلا رعب .

فقال المضرم لمصعب بن عمير :

— يا مصعب أنت أقرب من ها هنا بي رحما ، كلم صاحبك أن

يجعلني كرجل من أصحابي ، هو والله قاتلي إن لم تفعل .

قال مصعب :

— إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا وتقول في بيته

كذا وكذا .

— يا مصعب فليجعلني كأحد أصحابي ، إن قتلوا قتلتي وإن منّ عليهم منّ علي .

— إنك كنت تعذب أصحابه .

— أما والله لو أسرتك قریش ما قتلتي أبدا وأنا حي .

قال مصعب :

— والله إني لأراك صادقا ولكن لست مثلك ، قطع الإسلام المهرد .

وقال عليه السلام :

— اضربوا عنقه .

فقال المقداد :

— أسيري يا رسول الله !

— ألهم أعز المقداد من فصلك ، ثم يا علي فاصرب عنقه .

فقام علي فصرّب عنقه ، وإذا بحوف قاتل يدثر الأسرى جميعا ،

وكأن سهيل بن عمرو يرتجف من الرأس إلى المقدم فقد رماه سعد بن

أبي وقاص بسهم فقطع ساعده ، فاتباع أثر الدم حتى وجده قد أخذه مالك

ابن الدحشم وهو ممسك بإصبعه فقال سعد :

— أسيري رميته .

فقال مالك :

— أسيري أحدثه .

فأتيا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فأخذه منهما

جميعا ، وراه عمر فقال لرسول الله ﷺ .

— انزع ثيبيه يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا .

فقال رسول الله ﷺ :

— لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت بيبا ، ولعله يقوم مقاماً لا

نكرمه .

كان ذلك قبل أن يسوق المسلمون الأسرى أما وقد أمر رسول الله عليه السلام بقتل النصر بن الحارث صبرا ، فلم يعد سهيل بن عمرو يأمن على حياته فراح يتحين الفرص للهرب .

ونظر عليه السلام إلى عقبة بن أبي معيط نظرة ارتجفت لها فرائضه . إن عقبة قد داس على رقة رسول الله وهو ساجد في الحرم حتى كادت عياه الشريفتان أن تخرجا من محاجرهما ، وقد قال له عليه السلام وقتئذ لأقتلنك إن التقيت بك خارج مكة . وما هو ذا عليه السلام ينظر إليه وهما في الأئبل نظرة كاد من هولها أن يسهار ، ولكن رسول الله ﷺ — قد شعل عه بالطر إلى أبي العاص بن الربيع زوج ابنته الحبيبة زيب .

مر رسول الله ﷺ — بالأئبل قبل الغروب فمرل به ، وبات به وبأصحابه حراح ليست بالكثيرة ، فلما انتهى من إلقاء نظرة على الأسرى قال :

— من رجل يحفظنا الليلة ؟

فسكت القوم ، فقام رجل فقال :

— من أنت ؟

— ذكوان بن عبد قيس .

— اجلس .

ثم سكت ساعة وأعاد القول ، فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— ابن عبد قيس .

— اجلس .

ثم مكث ساعة وأعاد القول فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— أبو سيع .

فسكت ثم مكث ساعة وقال :

— قوموا ثلاثتكم .

فقام ذكون بن عبد قيس وحده ، فقل له عليه السلام

— وأين صاحبك ؟

— يا رسول الله أنا الذى كنت أجيئك الليلة .

— فحفظك الله !

فبات ذكوان يحرس المسلمين تلك الليلة وأمسى القوم والأسارى

محبوسون فى انوثاق ، وبات رسول الله تلك الليلة ساهرا فقال له أصحابه :

— مالك لا تنام يا رسول الله ؟

— سمعت أنبيى العباس^(١) من وثاقه .

(١) روى عكرمة مولى ابن عباس عن أبى رافع قال كتب علاما للعباس بن عبد المطلب ، وكان لإسلام مد عشا فيها أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل روجه . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلاصهم فكان يكتم إسلامه .

فقاموا إليه فأطلقوه ، فام رسول الله ﷺ — حتى كان آخر الليل فارتحل ذكوان . وأقبل رسول الله ﷺ — بالأمسى حتى إذا كان بعرق الظبية أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأهلح أن يضرب عنق عقبة اس أبي معيط بن أبي عمرو بن أمة بن عبد شمس . فجعل عقبة يقول : — يا ويلي علام أقتل يا معشر قريش من بين من ها هنا ؟

فقال رسول الله ﷺ :

— لعداوتك لله ولرسوله .

— يا محمد منك أفصل ، فاجعلني كرجل من فومي إن قتلتهم قتلتي وإن مست عليهم مست علي . وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم ، يا محمد من للصيبة ؟

— النار ، قدمه يا عاصم فاصرب عنقه .

فقدمه عاصم نصرّب عنقه ، فقال النبي ﷺ :

— بش الرجل كنت ، والله ما علمت كافرا بالله وبرسوله وبكتابه مؤديا لنبيه ، فأحمد الله الذي قتلك وأقر عيني منك .

وكان مبادى رسول الله ﷺ — قد بادى :

— من قتل قتيلًا فله سلبه ، ومن أسر أسيرا فهو له .

وكانت الإبل التي أصابوها يوم بدر مائة وخمسين بعيرا ، وكان مع قريش آدم كثير حملوه للتجارة وأصاب المسمومون من حيولهم عشرة أفراس ، وكان جمل أبي جهل فيما غمّوه فأحذه النبي ﷺ .

ولم يرص بعض الناس عن ذلك القرار ، فتكلم سعد بن معاذ وكان ممن أقام على حيمة رسول الله ﷺ — فقال :

— يا رسول الله ما معنا أن نطلب العدو زهادة في الآخر ولا حين

عن العدو ، ولكننا حفنا أن نمرى موضعك فيميل عليك خيل من خيل
المشركين ورجال من رجالهم وقد أقام عند خيمتك وجوه الناس من
المهاجرين والأنصار ، والناس كثير ومتى تعط هؤلاء لا يبقى
لأصحابك شيء ، والقتلى والأسرى كثير والعبيدة قليلة .

واختلف الناس في العائث فأمرو رسول الله ﷺ — أن ترد في
المقسم فلم يبق منها شيء إلا رد ، وكان فيما أصابوا قطيفة حمراء فقال
بعضهم :

— ما لنا لا نرى القطيفة ! ما نرى رسول الله ﷺ — إلا
أخذها .

فأنزل الله تعالى : « وما كان لى أن يعمل ومن يعمل يأت بما عل يوم
القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

وحاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال :

— يا رسول الله إن فلانا عل قطيفة .

فسأله رسول الله ﷺ فقال :

— لم أفعل .

— يا رسول الله احفروا ها هنا .

فحفروا فاستخرجت القطيفة فقال قائل :

— يا رسول الله استعمر لفلان مرتين أو مرارا .

فقال عليه السلام :

— دعونا من أبي حرق .

وكان أبو أسيد الساعدي قد غم سيف أبي عائد المحرومي لما أمر
رسول الله ﷺ عليه السلام المسلمين أن يردوا ما في أيديهم من المعنم ،

وكان اسم السيف المرزبان وكان له قيمة وقدر ، وأبو أسيد الساعدي
يطمع أن يرد إليه ، ولكن الأرقم بن أبي الأرقم كلم رسول الله ﷺ —
فيه ، وكان رسول الله ﷺ — لا يجمع شيئا يسأله فأعطاه
السيف ، فأحس أبو أسيد ضيقا لصياح السيف منه .

واستعمل علي بن أبي طالب شقرا علامه على الأسرى ، فأخذوا من كل أسير
ما لو كان حرا ما أصابه في المقسم .

واختلف المسلمون في الثل وساءت فيه أخلاقهم ، فأنزل الله
تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله
وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ^(١) » .
« واعلموا أنما عمتكم من شيء فإن لله حمسة وللرسول ولدى لقربي
واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا
يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ^(٢) »

فكانت القسمة على ثلاثمائة وسبعة عشر سهما ، لأن الرجال
كانت ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا وكان معهم فرسان لهما أربعة
أسهم ، وقسم أيضا فوق ذلك لثمانية أسهم لم يحضروا صرب لهم
بسهامهم وأجورهم ، ثلاثة من المهاجرين وهم : عثمان بن عفان حلفه
عليه السلام على ابنته رقية ، وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عيل
يعتصمهم رسول الله ﷺ — يتحسان خير العدو ، وخمسة من
الأنصار هم . أبو لبابة بن عبد المنذر حلفه على المدينة ، وعاصم بن
عدي حلفه على قباء وأهل العالية ، والحارث بن حاطب أمره بأمر في

بنى عمرو بن عوف ، وحوات بن جبير كسر بالروحاء ، والمحارث بن الصمة مثله ، وضرب عليه السلام بسهم في الغيمة لشهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلا .

وطن أهل اشجاعة أنه — ﷺ — يحصهم بالعيمة دون غيرهم من أهل الصعف ، فلما أمر عليه السلام أن تقسم بينهم على سواء قال سعد ابن أبي وقاص :

— يا رسول الله تعطي فارس القوم الذي يحميهم مثل ما تعطي الضعيف ؟

فقال — صلى الله عليه وآله وسلم : —

— شكلك أمك ! وهل تنصرون إلا بصعماكم .

كانت رقية تحود بأنفاسها وروجها عثمان يرنو إليها من خلال
دموعه والحزن يعتصر قلبه ، وكانت الشمس تملأ أرجاء الغرفة إلا أن
عثمان كان يحس كأن نورا ينطفئ في حياته ، فما أوجع لمؤاده أن
يخطر على ذهنه أن صلته الوثيقة برسول الله ﷺ — توشك أن
تقطع .

إنه الآن حتى محمد عليه السلام وسيظل روج ابنته ما دامت رقية
على قيد الحياة ، ولكن الموت يكاد يحتطف الروح الطاهرة ويدع
عثمان وحده حليف الأحزان ، فجميعته في ربه فجيعتان بعد الزوجة
الوفية الحية وانقطاع نسبه برسول الله عليه السلام .

أتموت رقية قبل أن يعود أبوها من عزوته ودون أن يلقي عليها نظرة
وداع ؟ أتموت دون أن يكون آخر من تراه وجه رسول الله عليه
السلام ؟ إنها تحبه بكل وجدانها وهو عليه السلام يحبها بكل خلجة
من خلجات نفسه ، أتمضي أجمل بانه دون أن يلتقيا ودون أن يمت
عليه السلام في صدر ابنته التي تودع الدنيا الاطمئنان !

إن عثمان يلوى من الألم ويكاد أن يسهار لولا أنه يتجلد لكيلا يزيد
عذاب رقية الحبيبة التي تعاني سكرات الموت ، ولو طواع مشاعره
لندت منه صرخات ممروجه يدوب المؤاد ، فيس الصلوع نار تلتظى
وفي الحلق جفاف وفي القسب سهام .

(غزوة بدر)

ورفرت على شفاهها الذابلة آخر ما يرفرف على شفاه المؤمنين ، راحت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأحست أم كلثوم أن قلبها قد بلع حسرتها وأن دموعها التي حرت على خديها إنما هي تريف كبدها ، وإن روحها ستمر معها قل أن تشهد نهاية رقية . واصطربت فاطمة الزهراء من الرأس إلى المقدم وزاغت بطراتها وقد اعتصر الحزن قلبها ، وإذا بفاجعتها في أمها الطاهرة وسيدة نساء قريش تتحدد ، فهي تحس أن خديجة قد عادت تنمو مرة أخرى مع رقية الحبيبة ، فاحتلت صفحة رأسها صورة خديجة وهي مسحاة في فراشها جثة هامدة ، وملأت عيبيها من أختها الممدودة في فراشها وقد علتها صعرة الموت وحشرجت روحها في صدرها . وجعلت فاطمة تلتفت دون أن تدري إلى من تفرع من تلك الآلام الهائلة التي تهب وحبسها بسيطاتها ، إنها فوق طاقتها وتعجز عن احتمالها ، فعذب بادي في همس :

— أبناه ! أبناه !

ومر غير رسول الله عليه السلام بمسح آلام بياته ؟ ولكن رسول الله ﷺ — قد خرج في سبيل الله ليعلى كلمة الله ، وقد ترك ابنته مريضة فما أقعده مرضها عن الحروح ، فما بعث إلا ليعلم الناس أن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولعم دار المتقين .

ولم يرقأ لأم أبيمن دمع وراحت ذكريات أيام مكة تتشان على رأسها ، فرأت يوم ولدت رقية كأنما كان ذلك بالأمس القريب . أحقا قد مرت الأيام سريعا وحان وقت الفراق ؟ إنها لا تريد أن تصدق أنه

اموت وإن كانت الأنفاس قد اضطربت وشحص البصر والتفت اساق بالساق .

أتكون رقية أول من تلحق بأُم المؤمنين من باتها ؟ واستشعرت أُم أيمن كأن روح خديجة ترفرف في المكان فسرت في جسمها قشعريرة ولفها خوف وشرقت بدموعها ثم أجهشت بالبكاء . فإذا بالعيون التي فاضت بالعبرات تنفت إليها كأنما تسألها أن تكف عن العويل حتى لا تؤذي الحبيبة التي كانت تنفط آخر الأنفاس .

وجاء أسامة بن زيد إلى أُمه عابس الوجه فقد فطن إلى ما يقاسيه الذين التفوا حول فراش رقية من أحزان ، وإذا بدموعه تهمر فيخفي وجهه في صدر أُمه ليكنم في جوفه ما يتردد فيه من عويل وصراخ . وداقت رقية الموت فارتمى عثمان عليها يبكي ويتشب ، وصرحت أُم كلثوم صرخة مفروعة مزقت السكون الذي راد طويلا على المكان ، وأطلقت فاطمة صيحات الحلع لها قلوب الحيران فهرعوا يسألون فقيل لهم :

— ماتت رقية بنت رسول الله .

وجاء رجال الأنصار وقد لاح في وجوههم الأسى ، وزاد في حزنهم أن رقية لموت دون أن يراها رسول الله عليه السلام . وحفت النسوة إلى حيث كانت الجثة الطاهرة ليشاركن أُم كلثوم وفاطمة الزهراء في المصاب .

وجهزت جثة رقية ثم حملت على الأعناق ، وقد سار خلف النعش عثمان بن عفان وهو واله حزين ومن حوله الرجال محزونين وأسامة بن زيد يجهد بالبكاء . حتى إذا بلغت الجنازة البقيع ، قبرت رقية بنت

رسول الله عليه السلام وقد انهمرت الدموع من عيون الرجال .
وسووا على رقية بنت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —
التراب ، وفيما هم عائدون إذا يزيد بن حارثة قد أقبل على ناقه رسول
الله — ﷺ — وانطلق إلى المسجد ، فهرعوا إليه يقفون إليه
أسماعهم .

كان رسول الله — ﷺ — قدّم من الأنثيل ريد بن حارثة وعبد الله
ابن رواحة يشران الناس بالمدينة فجاء يوم الأحد في الضحى ، وفارق
عبد الله ريدا بالعقيق فجعل عبد الله ينادى عوالى المدينة .

— يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين
وأسرهم ، قتل ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وزمعة بن الأسود
وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير .
فقام إليه عاصم بن عدى فقال له :

— أحقا ما تقول يا بن رواحة ؟

— إى والله وغدا يقدم رسول الله ﷺ شاء الله ومعه الأسرى

مقرين .

ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم دارا دارا والصبيان يشتنون معه
ويقولون :

— قتل أبو جهل الفاسق .

حتى انتهوا إلى دور بنى أمية بن ريد .

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبی — صلى الله عليه وآله وسلم —
القصواء يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المصطفى صاح على راحته : قتل
عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وأبو البختري وزمعة بن

الأسود وأمّية بن حلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير .

فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة ويقولون :
— ما جاء زيد إلا فلا .

حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا ، فقال رجل من المنافقين لأسماء
ابن زيد :

— قتل صاحبكم ومن معه .

وقال رجل من السافقين لأبي لبانة بن عبد المنذر :

— قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون معه أبدا ، وقد قتل عليّة
أصحابكم وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد بن حارثة لا
يدري ما يقول من الرعب وقد جاء فلا .

فقال أبو لبانة :

— كذب الله قولك .

وقالت يهود :

— ما جاء زيد إلا فلا .

فجاء أسماء بن زيد حتى خلا بأبيه فقال :

— يا أبت ! أحق ما تقول ؟

— إى والله حقا يا بني .

فقويت نفس أسماء فرجع إلى ذلك المنافق فقال :

— أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ؟ لتقدمك إلى رسول

الله — ﷺ — إذا قدم فليضربن عنقك .

— إنما هو شيء سمعت الناس يقولونه

وسر رسول الله ﷺ — والذين معه ليدخلوا المدينة ومعهم
الأسرى ، حتى إذا ما بلغوا تنوكة بين السقيا وملل وسهيل بن عمرو مع
مالك بن الدخشم الذي أسره ، قال سهيل لمالك :
— خلّ سبيلي للغائط .

فقام معه ، فقال سهيل :

— إني أحتشم فاستأخر عني .

فاستأخر عنه فمضى سهيل عني وجهه ، انتزع يده من القران
ومضى ، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدخشم أقبل فصاح في الناس
فخرجوا في طلبه ، وخرج النبي ﷺ — في طلبه بنفسه وقال :
— من وجده فليقتله .

وراحوا يقبضون عه على ظهور الحياض والإبل ، واطلقت عليه في أثره
فوجده أخفى نفسه بين شجرات فتقدم إليه ، فإذا به سهيل لا يتحرك من
مكانه بل ظل ثابتا وهو مأخوذ ، فقبض عليه ﷺ ثم عاد به فأمر به
فربطت يده إلى عنقه ثم قرنه إلى راحلته .

وكان أبو العاص بن الربيع مستأسرا مع رهط من الأنصار فكانوا إذا
تعشوا أو تغدوا آثروه بالحبز وأكلوا التمر ، حتى إن الرجل لتقع في يده
الكسرة فيدفعها إليه . وإذا ما ساروا كانوا يحملونه ويمشون ، فجعل
أبو العاص يفكر في ذلك الدين الذي جاء به حننه رسول الله ﷺ ، فهو

يعرف الأوس والخزرج قبل الإسلام فما كانوا على مثل ذلك الخلق
المتين ، مما لقنهم محمد عليه السلام كان معيزة أنت ثمارها في
بضعة شهور ، واستمر أبو العاص يقاد إلى عقله السليم المبرأ عن
الأهواء فإذا بعواده يهوى إلى الدين القيم الذي يدعو إلى مكارم
الأخلاق .

وشرد به الخيال إلى أيام أن كان رسول الله ﷺ — بمكة يزعم
أنه رسول الله ، فرأى سادات قريش يمشون إليه ويقولون :
— هرق صاحبتك بنت محمد ونحن نروحك أى امرأة شئت من
قريش .

— لاهأ الله ! إذن لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى امرأة من
قريش .

إبه أبى أن يطلق ابنه محمد وإن كان على غير دينه ، وهو سعيد حتى
وهو أسير بن يدى ختبه أنه لم يطلقها . فهو يحب زيب ويحل أباهها ،
وإن رسول الله ﷺ — إذا ذكره يشى عليه حيرا ، وإن حقيقة ما
يدعو إليه محمد رسول الله بدأت تتجلى لبصيرته . ولولا خشيته من أن
يقال إنه ما أسلم إلا خوفا من الأسر أو القتل لأعلن على الملأ شهادة أن
لا إله إلا الله .

وتذكر ما كان من أمر عتبة بن أبى لهب فى ذلك الوقت ، فقد مشوا
إليه فقالوا :

— طلق بنت محمد ونحى منكحك أى امرأة شئت من قريش .
— إن أنتم روجتمونى ابنة أبان بن سعيد بن العاص أو ابنه سعيد بن
العاص فارقتها ، فزوجوه ابنة سعيد بن العاص ففارق رقية أحمل النساء

حَقًّا وَخُلُقًا ، وَلَمْ يَقِفْ فِي عِدَاوَتِهِ عِنْدَ هَذَا بَلْ تَطَوَّعَ لِيَصْقَ فِي وَجْهِهِ
وَكَانَتْ ثَمَرَةُ ذَلِكَ الْبَغْيِ أَنْ أَكَلَ السَّبْعَ ذَلِكَ السَّفِيهِ ابْنَ حِمَالَةَ
الْحَطْبِ .

وَقَفَّرَ بِهِ خَيْلَهُ إِلَى مَكَّةَ إِلَى حَيْثُ غَادَرَ رَيْنَبَ لِيُحَارِبَ أَبَاهَا مَعَ
سَهْمَاءَ قَوْمِهِ ، إِنَّهُ وَهُوَ فِي عَمْرَةٍ حِمَاسَةٍ لَمْ يَمُكَّرْ فِي مُشَاعَرِ رُوحِهِ ، أَمَّا
الْآنَ وَهُوَ أَسِيرٌ مُنْطَبِقٌ مَعَ الْأَسْرَى إِلَى مَدِينَةِ الرَّسُولِ فَهُوَ يَحْسُ حَقِيقَةَ
عَوَاطِفِهَا ، إِنَّهَا مَمْزُوقَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهَا قَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا خَوْفُ قَاتِلِ أَنْ
تَمْجَعُ فِي أَحَدِهِمَا ، فَهُوَ عَنِ ثِقَةِ مَنْ أَبَاهَا تَحَبُّهُ ، وَلَا شَكَّ فِي عَظَمِ
حُبِّهَا لِأَبِيهَا ، وَعَمَّا قَلِيلٍ سَيَفِدُ النَّاعِي إِلَى مَكَّةَ لِيُعْجِيَ سَادَاتُهَا وَسَتَلْقَفُ
رُوحَهُ الْأَسَاءُ مِمَّا فَتَقَ وَلَهْمَةً ، لَا تَدْرِي أَنْفَرِحَ أَمْ تَحْرَبُ !

لَكَ اللَّهُ يَا رَيْنَبَ ، لَيْتَ أَحَدًا يَحْمِلُ إِلَيْكَ أَنْ أَبَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ
رُوحَكَ الْحَبِيبَ بَيْنَ يَدَيِ أَبِي رَفِيقٍ وَرَسُولِ كَرِيمٍ لِيَسْكُنَ قَلْبِي بِمَسْكِ
وَيَقْشَعُ حَوْفَ قَلْبِكَ وَيَرْلُوكَ بِكَ أَمْنٌ وَسَكِينَةٌ إِلَى حَيِّينَ .

وَلَقِيَ النَّاسَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ — بِالرُّوحَاءِ يَهْتَوِيهِ بَفَتْحِ اللَّهِ عَلَيْهِ ،
فَلَقِيَهُ وَجْهُهُ الْحَرَّاحُ ، فَقَالَ سَلَمَةُ بْنُ سَلَامَةَ بْنِ وَفَشٍ :

— مَا أَدَى تَهْتَوِيهِ ؟ فَوَاللَّهِ مَا قَتَسْنَا إِلَّا عَجَائِزَ صَلَاحًا !

فَتَيْسَمُ النَّبِيَّ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ — فَقَالَ :

— يَا بَنَ أَخِي أَوْلَيْكَ الْمَلَأُ ، لَوْ رَأَيْتَهُمْ لَهْتَهُمْ وَلَوْ أَمْرُوكَ لَأَطَعْتَهُمْ ،
وَلَوْ رَأَيْتَ فَعَالِكَ مَعَ فَعَالِهِمْ لَأَحْتَقَرْتَهَا ! وَبَشَّ الْقَوْمَ كَانُوا عَلَى ذَلِكَ
نَسِيهِمْ !

فَقَالَ سَلَمَةُ :

— أَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ ، إِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ تَزَلْ

عبي معرضاً فقد كنا بالروحاء في بدأتنا .

فقال — ﷺ :

— أما ما قلت للأعرابي : وقعت عبي ناقتك فهي حيلي منك
ففحشت وقلت ما لا أعلم لك به . وأما ما قلت في القوم فإنك عمدت
إلى نعمة من نعم الله تزهد بها .

فاعتذر سلمة فقبل رسول الله — ﷺ — معذرتة ، ليصيح سلمة من
علية أصحابه .

ولقي رسول الله عليه السلام أسيد بن حُصير فقال .

— يا رسول الله الحمد لله الذي ظفرك وأفر عينك . والله يا رسول
الله ما كان تحفي عن بدر وأنا أظن بك أنك تلقى عدوا ولكي ظس
أنها العير ، ولو ظست أنه عدو لما تحلفت .
— صدقت .

وراح رسول الله — ﷺ — يتقدم على ناقتة القصواء وقد ربطت
يدا سهيل بن عمرو إلى عنقه وقرن إلى الناقة ، وكان سهيل أعلم
مشقوق الشفة العليا فكانت أيباه بادية فلذلك قالوا . ذو الأياب .
ورأى أسامة بن زيد رسول الله عليه السلام فهرع إليه وهو فرحان قد
سسى ما أحسن من ألم لموت رقية ، ولقيه رسول الله وهو منهبل
الأسارير فأجلسه بين يديه .

ونظر الناس إلى سهيل بن عمرو وقالوا :

— يا رسول الله أبو يزيد !

— نعم ، هذا الذي كان يطعم الحمر بمكة .

وحسن أسامة ينظر إلى سهيل ثم قال .

— يا رسول الله هذا الذى كان يطعمك الثريد سكرة .
— هذا أبو يريد الذى يطعمك الطعام ، ولكنه سعى فى إطفاء نور الله
فأمكن الله منه .

وراح مالك بن الدحشم الذى أسره يقول :
أسرت سهيلاً فلا أهتفى

به غيره من جميع الأمم
ونحسب أن الفنى
سهيلاً فتاهاً إذا تظلم
ضربت بذى الشفر (١) حتى انثنى
وأكرهت نفسى على ذى العلم

وبين الوجوه المستشرة بنصر الله تقدم وجه باسر لا يستطيع أن
يحفى آلام نفسه وإن جاهد ليطوى أحراجه بين صلوعه حتى يهوى
رسول الله ﷺ بنصر الله . إنه عثمان بن عفان صاحب المجيعتين :
فجيعته فى رقية الروحة الوفية وفجيعته فى نسيه من رسول الله عليه
لسلام ، إنه يحاول أن يعد عييه المحمرتين من أثر البكاء عن عيني
رسول الله عليه السلام ، ولكن محمداً عيه السلام قرأ فى وجهه
الجميل قصة المأساة . فطر فى لمحة أن رقية الحية قد مصب ولى
تدوق الموت بعدها أبداً ، فحقق قلبه حرنا وفاضت رفته بالدموع تطفر
من عييه ، وإذا به يفتح ذراعيه ليصم عثمان إلى صدره ، وإذا بقلبي
الرجلين يزان حرنا وأسى على الغالية .

(١) ذو الشفر : كناية عن السيف

ونظر أبو بكر وعمر وعنى والرجال العائلون من المعركة مرهوين
بالنصر إلى بيهم الكريم وقد تحركت إسانيته لوفاة ابنته قبلت العبرات
أرواحهم قبل أن تترقق فى مآقيهم ، وزاد فى أساهم إشتاقهم على
رسول الله عليه السلام فقد كانوا يعلمون مقدار إرهاب حسه ورقة
مشاعره .

وسار عليه السلام مطأطئ الرأس إلى الدار يحس ألم الشكل ، فلما
دخل على أم كلثوم وفاطمة الرهراء ألقى نسوة من الأنصار عندهما ،
فما إن وقعت عينا فاطمة على أبيها حتى انحرطت فى البكاء فمشى إليها
والحزن يعتصره وغدا يمسح دموعها بطرف ثوبه ، وأجهشت أم كلثوم
بالعويل ، ولم يستطع عثمان أن يكبح حماح عواطفه فراح يسح
لدموع فى صمت ويحاول أن يأتى بوجهه عن رسول الله عليه
السلام .

وأحس النسوة بالدموع تحرى إلى العيون فانسحن من العرفة
وأجهشن بالبكاء ، فلما صت العويل أذنى عمر بن الخطاب أشفق على
حببيه رسول الله عليه السلام فراح يزجرهن فى عنف ، فخرج الأب
الشاكل إليه وقال :

— مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن
من اليد واللسان فمن الشيطان .

وخرج رسول الله عليه السلام إلى البقيع ومن حوله أصحابه الدين
شاركوه مرحة البصر ليشاركوه أحزان الفراق ، ووقف حليف الأحران
على قبر ابنته مطرق الرأس يدعو لها بالعفوان .

إنه يحس بالألم من أعماق وجوده وهو يستشعر فى نفس الوقت

بقدره الله . إنه مهما انتصر مهدد هي نهاية الحياة الدنيى فلا ينبغي أن يدير
أى نصر دنيوى رأس رسول الله عليه السلام . إنه بعث رحمة للعالمين
فكتب عليه أن يدوق ألم الأحزان يتدفق قلبه بالحنان على البشر ، فما
من نصر أحرره إلا قد قرن بالألم ، فطريق الرسالة ليس بالطريق الذى
تحفه الورود والرياحين ، وإنما هو طريق شائك وعمر تكتفه المشاق
والآلام والأحزان . وما أكثر الآلام والأحزان فى حياة رسول الله —
ﷺ

كانت سودة بنت رمعة زوج النبي — ﷺ — عند آل عفراء في
مناحتهم على عوف ومعوذ المدين كانا أول من أصابا أبا جهل ، وكانت
أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة راد الركب هناك ، وكانت زوجة
عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمه الرسول عليه السلام : برة
بنت عبد المطلب . وبينما النساء في المصاحاة جاء من قال :
— هؤلاء الأسرى قد أتى بهم .

فخرجت سودة بنت رمعة إلى بينها ورسول الله عليه السلام فيه ،
وإذا سهيل بن عمرو مجموعة يده إلى عنقه في ناحية البيت ، فما
ملكته نفسها حين رآته مجموعة يده إلى عنقه أن قالت :
— أبا يزيد ، أعطيتكم بأيديكم ! ألا سمع كراما ؟

فما راعها إلا قول رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — من
البيت :

— يا سودة ، أعلی الله وعلى رسوله ؟
— يا نبي الله والدي بعثك بالحق إني ما ملكت نفسي حين رأيت
أبا يزيد مجموعة يده إلى عنقه أن قلت ما قلت .

ودخل خالد بن هشام بن المغيرة وأميه بن أبي حذيفة منزل أم سلمة
وأم سلمة في المناحة ، فلما قيل : « أتى بالأسرى » خرجت فدخلت
عليهم فلم تكلمهم فهم أسرى رسول الله عليه السلام ، وجعلوا

يتحدثون إليها وهي صامنة ، ثم رأَتْ أن تخرج تستشير رسول الله ﷺ — فيهم ، فاطلقت حتى وجدته في بيت عائشة فقالت :

— يا رسول الله إن بي عَمَى طَلَبُوا أَنْ يَدْخُلَ بِهِمْ عَلَى فَأَصِيفُهُمْ وَأَدْهَرُ رَعُوسَهُمْ وَأَلَمَ مِنْ شَعَثِهِمْ ، وَلَمْ أَحِبْ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَكَ .

— لست أكره شيئا من ذلك ، فافعلي من هذا ما يدا لك .

وحاء زوجها أبو سلمة المحرومى إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام يستغفر الله من كلامه في أبي جهل ، فإنه كان عند النبي — ساعة أن جاءه عبد الله بن مسعود يقول إنه قتل أبا جهل ، فقد وحده أبو سلمة في نفسه فهو محزوم وأبو جهل سيد بني محزوم وأقبل على ابن مسعود يقول :

— أنت قتلتني ؟

— نعم ، الله قتله !

— أنت وُلِّيت قتله ؟

— نعم .

— لو شاء لجعلتك في كمي !

— فقد والله قتلتني وجردته .

— فما علامته ؟

— شامة سوداء يبطل فحذه اليمنى .

فعرف أبو سلمة النعت فقال :

— أجردته ولم يجرد قرشي غيره !

— إنه والله لم يكن في قریش ولا في حلفائها أحد أعدى لله ولا

لرسوله منه ، وما أعتذر من شيء صمته به .
 إن أبا سلمة يحس وهو بين يدي رسول الله أنه وجد في نفسه لكافر
 نصب رسول الله عليه السلام العدا ، فندم على ما كان منه فقال :
 — اللهم إني قد أنجزت ما وعدتني فتمم علي نعمتك .

وشرد رسول الله — ﷺ — يفكر في المعركة فإذا به يرى عمه
 حمزة وهو معلم بريشة نعام في صدره يصول ويجول في صفوف
 قريش ويفعل بهم الأفاعيل ، وابن عمه وربيته وحبيبه علي بن أبي طالب
 ينقض على أعداء الله انقضاض اللبث . لقد كان حمزة قبل بدر أسد
 الله وأسد رسوله وكانت قريش ترتحف منه فرقا ، أما بعد بدر فقد اشتهر
 أمر علي بعد أن أطاح برعوس سادات بيوت الشرف في قريش لقد
 سر على بشجاعته بدور الحقد في نفوس القرشيين وباتت يسه ويس
 أشراف مكة ثارات لى يقوى الدين على إحماد بارها أو نزاع أباها .
 ورأى حارثة بن سراقة عند الحوض وقد أصابه سهم غرب (لا
 يدري رامي) ، ورأى نفسه عليه السلام وهو قادم إلى المدينة بعد أن
 أيده الله بصره ، فحاجت أم حارثة إليه فقالت :

— يا رسول الله قد عرفت موضع حارثة في قلبي فأردت أن أبكي
 عليه ، ثم قالت : لا أفعل حتى أسأل رسول الله — ﷺ — عنه ، فإن
 كان في الحجة لم أبكه ، وإن كان في النار بكته فأعولته !

— هبلى : أحة واحدة ! إنها حمان كثيرة . والذي نصى بيده إنه
 لفي الفردوس الأعلى :
 — فلا أبكي عليه أبدا .

وحبس الأسرى وجعل عليهم شقران مولى رسول الله — ﷺ — ،

فقطعوا في الحياة فقالوا :

— لو بعثنا إلى أبي بكر فإنه أوصل قريش لأرحمنا .

فبعثوا إلى أبي بكر فأتاهم فقالوا :

— يا أبا بكر إن فيها الآباء والأبناء والإخوان والعمومة وبني العم وأبعدنا قريب ، كلم صاحبك فبمن علينا ويمادنا .

— نعم إن شاء الله ، لا آلوكم خيرا .

ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ

قالوا :

— وابعثوا إلى عمر بن الخطاب فإنه من قد عمنتم ولا يؤمن أن يفسد عليكم لعله يكف عكم !

فأرسلوا إليه فجاءهم ، فقالوا له مثل ما قالوا لأبي بكر فقال

— لا آلوكم شرا .

ثم انصرف إلى النبي ﷺ — فوجد أبا بكر عنده والناس حوله وأبو بكر يلينه ويغشاه ويقول :

— يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، وقومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبني العم وأبعدهم منك قريب ، فامس عليهم من الله عليك أو فادهم قوة للمسممين فنعن الله يقبل بقلوبهم إليك .

ثم قام فتسحى ناحية ، وسكت رسول الله ﷺ — فلم يجبه ، فجاء عمر فجلس مجلس أبي بكر فقال .

— يا رسول الله هم أعداء الله كدبوك وفاتلوك وأحرجوك . اضرب رقابهم فمهم رعوس الكفر وأئمة الصلابة يوطيء الله بهم الإسلام ويدل بهم الشرك .

يا رسول الله أطفئ فيما أشير به عندك فإني لا آلوك نصحا ، قدم
عندك العباس فاصرب عنقه بيدك ، وقدم عقيلا إلى أخيه بصرب عنقه ،
وقدم كل أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله .
فكسرت رسول الله ﷺ — ولم يحبه — عاد أبو بكر إلى مقعده
الأول فقال :

— بأبي أنت وأمي ! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان
وسواهم وأنعمهم منك قريب ! فامس عليهم أو فادهم ، هم عشيرتك
وقومك لا تكن أول من يستأصلهم وأن يهديهم الله حير من أن
يهلكهم .

فكسرت رسول الله عنه فلم يرد عليه شيئا وقام ناحية ، فقام عمر
فجلس مجلسه فقال :

— يا رسول الله ما تتطرب بهم ! اصرب أعناقهم يوطئ الله بهم
الإسلام ويدل أهل الشرث هم أعداء الله كذبوك وأخرجوك ، يا
رسول الله شف صدور المؤمنين ، لو قدروا ما على مثل هذا ما أقالوا
أبدا .

وقام سعد بن معاذ يقول :

— اقتل ولا تأخذ العدا .

ثم قام رسول الله ﷺ — فدخل داره فمكث فيها ساعة ، ثم
خرج والناس يحوصون في شأنهم يقول بعضهم
— القول ما قال أبو بكر .

وآخرون يقولون :

— القول ما قال عمر .

(عروة بدر)

فلما خرج عليه السلام قال للناس :

— ما تقولون في صاحبكم هديس ؟^(١) دعوهما فرب لهما مثلاً ، مثل
أبي بكر في الملائكة كمثل ميكائيل يرل برضا الله وعموه على عباده ،
ومثله في الأنبياء كمثل إبراهيم كان أئيب عسى قومه من العسل ، أو قد
به قومه الدار فطرحوه فيها فما راد عسى أن قال . ﴿ أف لكم ولما
تعبدون من دون الله أفلا تعقبن ﴾^(٢) وقال . ﴿ فمن تعصى فإني مسي
ومن عصاني فأشدّ عقور رحيم ﴾^(٣) ، وكعيسى إذ يقول : ﴿ إن
تعدّهم فإنيهم عبادك وإن تعص لهم فأبئك أنت العزيز الحكيم ﴾^(٤) .
ومثل عمر في الملائكة كمثل حمز بن عبد المطلب من الله والقمة
على أعداء الله ، ومثله في الأنبياء كمثل نوح كان أشدّ عسى قومه من
الحجارة ، إذ يقول . ﴿ رب لا تدرك علي الأرض من الكافرين
ديار ﴾^(٥) . مدعا عليهم دعوة أعرق الله بها الأرض جميعاً ، ومثل
موسى إذ يقول . ﴿ ربنا اطمس على أمّواتهم واشدد على قلوبهم فلا
يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾^(٦) وإن بكم عيلة ، فلا يهونكم
رحل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق .
وانصق رسول الله ﷺ إلى حيث حس الأسرى فألقى نظرة عليهم
ثم قال :

— لو كان مصعهم من عدى حيا لو هبت له هؤلاء الثني (١)

(١) الأنبياء ٦٧ (٢) إبراهيم ٣٦ (٣) المائدة ١١٨

(٤) نوح ٢٦ (٥) يوسف ٨٨

(٦) يعني أسرى بدر وواحد منهم ش ، وسماههم شي لكفرهم .

إنه عليه السلام لا ينسى أن قومه أخرجوه وقد حيروه بين القتل والحروح ، فحرح إلى الطائف ولفى من ثقيف أدى كبيرا فعاد هو ورید بن حارثة إلى غار حراء ، وبعث إلى أشراف مكة ليدخلوه في جوارهم فأبوا جميعا إلا مصعم بن عدى فقد أجاره وبسط حمايته عليه ومنع عنه أذى قريش وإن لم يدخل في دية . إنه عليه السلام لا يسي هذه اليد وإنه في هذه اللحظة التي يملك فيها رقاب من أبوا أن يجيروه يتذكر فضل المطعم ويقول لو كان حيا لجاراه بأن يهب له ساري بدر . خلق عظيم لا يسي في لحظات النصر أصحاب الفضل .

وسار رسول الله عليه السلام إلى عمه العباس وقال له :

— اهد نفسك يا عباس وابني أخويك عقيل بن أبي طالب وبوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عقة بن عمرو فإنه ذو مال .
فقال العباس :

— يا رسول الله إني كنت مسلما ولكن القوم استكروهني

إن العباس ليقر بإسلامه ولكن ذلك سيصعد أهمية دوره في بقائه بمكة — أن يظل رئيس قلم محادثات المسلمين ، فقال له رسول الله ﷺ :

— الله أعلم بإسلامك إن يكن ما قلت حقا فإن الله يحريك به ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافتد نفسك
وقد كان رسول الله ﷺ — أخذ منه عشرين أوقية من ذهب أصابها معه حين أسر ، فقال العباس :

— يا رسول الله احبسها لي في فدائي .

— ذلك شيء أعطانا الله منك .

ووقف رسول الله — ﷺ — على أبي عزة عمرو بن عبد الله بن
 عمير الجمحي وكان شاعرا ، فقال له أبو عزة :
 — إن لي خمس بات ليس لهن شيء ، فتصدق بي عليهن يا محمد
 أعطيتك موثقا ألا أقاتلك ولا أكثر عليك أبدا .
 فأرسله رسول الله — ﷺ — ، فنطلق أبو عزة إلى مكة مسرورا وهو
 لا يصدق أنه قد نجا من الأسر دون فداء !
 ورأى رسول الله — ﷺ — أبا وداعة السهمي أسيرا فقال
 لأصحابه :

— إن له بمكة ابنا كيما تاجرا ذا مال ، وكأنكم به قد جاء في
 طلب فداء أبيه .

وأمر الله عبي رسوله : ﴿ ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى
 يشحن في الأرض يريدون عرص الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز
 حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب
 عظيم ﴾ (١) .

كانت فريش قد أرسلت امرأت بن حيان العجلى حين فصلت من مكة إلى أبي سفيان بن حرب يحبره بمسيرها وفصولها وما قد حشدت ، فخالف أبا سفيان في الطريق ، وذلك أن أبا سفيان لصق بالبحر ولزم الفرات بن حيان المحجة فوافى المشركين بالجحفة ، فسمع كلام أبي جهل وهو يقول :

— لا نرجع .

فقال :

— ما بأنفسهم عن نفسه رعبة ! وإن الذى يرجع بعد أن رأى ثأره من كتب لضعيف .

فمضى مع فريش فترك أبا سفيان ، وجرح يوم بدر جراحات كثيرة وهرب على قدميه وهو يقول :

— ما رأيت كاللوم أمرا أكيد ! إن من الحنطلية لغير مبارك الأمر .

وخرج بنو عدى من النقيز حتى كانوا بثنية لفت ، فلما كان فى السحر عدلوا فى الساحل مصرفين إلى قلة ، فصادفهم أبو سفيان فقال :

— كيف رجعتم يا بنى عدى ! ولا فى العير ولا النقيز !

— أنت أرسلت إلى فريش أن ترجع فرجع من رجع ومضى من

مضى .

وقال الأحس بن شريق وكان حيفا لني زهرة لما أرسل أبو سفیان أن ترجع :

— يا بى زهرة قد نحى الله غيركم وحلص أموالكم ونحى
صاحبكم مخزومة بن نوفل ، وإنما حرحتم لتسمعوه ماله ، وإنما محمد
رجل منكم ابن أختكم ، فإن يك بيا فأنتم أسعد به ، وإن يك كادبا يلي
قتله غيركم حير من أن تلوا قتل ابن أختكم ، فارجعوا واجعلوا خبيثها
لى ، فلا حاجة لكم أن تخرجوا فى غير ما يهمكم ودعوا ما يقوله هذا
الرجل — يعنى أبا جهل — فإنه مهلك قومه ، سريع فى فسادهم .
فأطاعته بنو زهرة وكان فيهم مطاعا ، وكانوا يقيمون به فقالوا .
— فكيف يصنع بالرجوع حتى نرجع ؟

— نسير مع القوم فإذا أمست سقطت عن بعيرى فيقولون نحل
الأحس . فإذا أصبحوا فقالوا سيروا فقولوا لا نفارق صاحبنا حتى نعلم
أحى هو أم ميت فنذهب ، فإذا مضوا رجعنا إلى مكة .
ورجع بنو زهرة وسار الآخرون إلى مصارعهم أو ليقعوا أسرى فى
أيدى المسلمين أو ليولوا الأدبر فرعين ، وقد هام قبائح بن أشيم
الكنانى على وجهه فلم يسلك المحاج خوفا من الطلب حتى لقيه رجل
من قومه فقال :

— ما وراءك ؟

فقال قبائح :

— لا شيء ، قتلنا وأسرنا وانهرمنا ، فهل عندك من حملان ؟
فحملة على بعير وروده رادا حتى لقي الطريق بالجحففة ، ثم مضى وهو
ينظر إلى الجيسمان بن حابس الحزاعى فعرف أنه تقدم يعنى قريشا

بمكة ، فلو أراد أن يسبقه لسبقه ، فتنبك عنه حتى يسبقه ببعض النهار
فقد كان يكره أن يحمل إلى قريش أبناء قتلاها

وراح حكيم بن حرام يعدو على ظهر الحمل وعبيد الله وعبد
الرحمن ابنا العوام يعدوان حنفة وهو يحشى طلب القوم ، حتى إذا كان
بحر الظهران تذكر ما كان من قريش في حروجهما وما قال أبو جهل من
افتراء فقال :

— والله لقد رأيت هاها أمرا ما كان يخرج على مثله أحد له رأى ،
ولكنه شؤم ابن الحنظلية .

ما كانت قريش لتستصر يوم بدر فقد دب فيها التخاذل وكراهية
الحرب وحب الرجوع وحواف اللقاء وخموق الهمم وفور العزائم
ورجوع بني زهرة وبني عدي من الطريق واختلاف آرائهم في القتال ،
فقد مشى إليهم الهزيمة قبل أن يلقوا رسول الله — ﷺ — وصحبه
الأبرار ، وحق عليهم الانكسار لو كانوا قد لقوا قوما جبناء ، فكيف
وإسما لقوا رسول الله عليه السلام المؤيد من السماء والأوس والحررح
وهم أشجع العرب ، وحمزة أسد الله وعلي بن أبي طالب ريب رسول
الله ، وجماعة من المهاجرين أمجاد ، صعوة قال الله فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا
الْمَسِيحُ حَرِّصِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا
مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الدِّينِ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَعْقِلُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ
مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

وقدم الحسيمان الحراعى فانطلق كالعاصفة إلى الحرم فإذا بصموان
ابن أمية وسادات قريش فى الحجر ، فقام الحسيمان فقال :
— قبل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وقتل ابنا الحجاج وأبو البحتري
وزمعة بن الأسود .

فقال صفوان بن أمية بن خلف :
— لا يعقل هذا شيئا مما يتكلم به أسوء عنى .
فقالوا له :

— صفوان بن أمية لك به علم ؟
— نعم هو ذاك فى الحجر ، ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولين .
ورأيت سهيل بن عمرو والضر بن الحارث أسيرين ، رأيتهما مقرويين
فى الحبال .
وقدم قباث بن أشيم وقد انتهى إلى مكة حرا قتلاهم وهم يلعبون
الخزاعى ويقولون :
— ما جاعنا بخير .

ونزلت أنباء بدر على الكافرين نزول الصاعقة ، وتهللت بالفرح
وجوه المسلمين . وكان ممن سرهم ما جاءهم من الخبر أم الفضل وأبا
رافع غلام العباس وكان رجلا ضعيفا وكان يعمل القداح بمحتها فى
حجرة زمزم وعنده أم الفضل جاسنة ، فأقبل أبو لهب يجر رجليه بشر
حتى جلس إلى طرف الحجر ، فكان ظهره إلى ظهر أبى رافع ، فبدا
هو جالس إذ قال للناس :

— هذا أبو سميان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم .
كان أبو سميان بن الحارث أكثر بى هاشم شبها بابن عمه رسول

الله عليه السلام ، وكان لا يفترقان قبل أن يفرق بينهما الإسلام ، وكان أبو سفيان شاعر بني هاشم وقد هجا ابن عمه ولم يكتف بذلك بل خرج مع قريش إلى بدر ليقاتل رفيق الصبا والشباب وقريس الروح وشرف عديان ، فلما انهزمت قريش ولي الأديار وانقلب إلى أهله بحمل العر .

وقال أبو لهب لأبي سفيان بن الحارث :

— هلم يا بن أخي فعندك والله الحبر .

فجلس إليه والناس قيام حوله فقال :

— يا بن أخي أحبرني كيف كان أمر الناس ؟

— لا شيء ، والله إن هو إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا فقتلونا

كيف شاعوا وأسرونا كيف شاعوا . وإيم الله مع ذلك ما لمت الناس .

لقبنا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض لا والله ما تبقى شيا ولا يقوم لها شيء .

فقال أبو رافع في فرح :

— تلك والله الملائكة .

فرفع أبو لهب يده فضرب به الأرض ثم برك عليه يضربه ، هامت

أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأحدثه قصرته على رأسه فشجته

شجرة منكرة وقالت :

— استضعفته إذ غاب سيده .

فقام موليا ذليلا .

ورجعت قريش إلى مكة فهم الرجال والنساء بيكاء قتلاهم فقام فيهم

أبو سفيان بن حرب فقال :

— يا معشر قريش لا تبكوا على قتلاكم ولا تنح عليهم نائحة ولا

يذهبهم شاعر وأطهروا الجلد والعزاء ، فإنكم إذا نحتم عليهم
وبكىتموهم بالشعر أذهب ذلك عيظكم فأكلكم ذلك من عداوة محمد
وأصحابه ، مع أن محمداً إن بلغه وأصحابه ذلك شمتوا بكم فتكون
أعظم المصيبتين ، ولعلكم تدركون ثأركم فالدهن والساء على حرام
حتى أغزو محمداً .

ومشت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة فقلن :
— ألا تبكين على أهلك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟
فقال والنار تشوى كبدها :

— حلاني (منعى) أن أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا
وبساء بنى الحخرج ، لا والله حتى أثار محمداً وأصحابه ، والدهن
على حرام إن دخل رأسي حتى نفرو محمداً ! والله لو أعسم أن الحرج
يذهب على قلبي لبكيت ، ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأري بعيسى من
قتله الأوبة .

وانقضت سبع ليال على ضرب أم المصل أبا لهب بعمود على رأسه
فرماه الله بالعدسة وهي قرحة قاتلة كالطاعون فقتلته . ولقد بركه ابناه
ليلين أو ثلاثاً وما يدفانه حتى أنش في بيته ، فقد كانت قريش تنقى
العدسة وعدواها كما يتقى الناس الطاعون حتى قال لهما رجل من
قريش :

— ويحكما ! ألا تستحيان أن أبأكما قد أنش في بيته لا تعيابه !
— إننا نخشى هذه القرحة .
— فانطلقا وأنا معكما .

فما غسلوه بل قدفوا عليه الماء من بعيد خشية أن يمسوه ،

وأخرجوه فألقوه بأعلى مكة إلى كنان هالك وقد هوا عليه بالحجارة حتى
واروه .

وأنهت أم الفضل حيدة طاعية يصبي نارا ذات لهب ، ولكنها ما كان
قتل أبي لهب بهاية مضرة لغروة بدر في قلب الحرم .

راح المصطب بن أبي وداعة السهمي يتجهز للخروج إلى المدينة
لبفدى أباه ، فجاءته قريش فقالت :

— لا تعجل فإننا نخاف أن تفسد علينا في أسارانا ويرى محمد
تهالكنا فيغلي علينا القدية ، فإن كنت تجد فإن كل قومك لا يجدون
من السعة ما تجد .

— لا أخرج حتى تخرجوا .

وكان أناس غيره يرون الخروج لعداء الأعزة لولا الحياء ، فزينب
بنت محمد عليه السلام تحب أن تبعث إلى أبيها من يفتدى منه الزوج
العزیز أبا العاص بن الربيع ، فهي وإن كانت قد تهلت بالفرح لما
جاءت الأخبار ببصر الله لرسوله والمسلمين فقد كدر سرورها وقوع
أبي العاص أسيرا دليلا في أيدي الأنصار ، وما كان يخفف من لوعتها
إلا معرفتها بتقدير أبيها لروح ابنه الأميس .

لقد انحدرت الدموع من مآقيها مريين ، مره لما جاءها الخبر
بوقوع زوجها أسيرا ومرة أخرى لما جاءها الناعي يعي إليها موت
أختها رقية . كانت عبراتها الأولى مشوبة بأمل اللقاء ، أما عبراتها
الثانية فقد امتزجت بحرقة الفراق ونكأت جروح أحزانها وذكرتها بأيام
الاضطهاد وفرار أختها بديها إلى الحبشة ثم هجرتها مع زوجها عثمان
إلى المدينة ، وأعادت إلى سطح دهنها أيام أن مانت أمها خديجة أم

المؤمنين وهي تشتهي أن ترى رقية قبل أن تموت ، ولكن روحها الطاهرة قد لحقت بربها دون أن ترى رقية الحبيبة ، فعمر رسول الله ﷺ الأسى وبرل بقلبه أفدح ما يتحمله بشر من الأحرار .

وودت ريب لو تستطيع أن تخرج لتمدى روحها وتعزى أباها لثاكل الذى فجع فى ابته وهو فى قمة انتصاره ، ولكنها كانت عاجزة عن الخروج وحدها هى بين كمار قد ملكت قلوبهم حقدا على أبيها ، فلو همت بالحروج لكات هدفا لسهام منعطشة إلى دماء محمد عليه السلام وإلى أهل بيته وكل من معه من المهاجرين والأنصار .

ولم يستطع المطلب بن أبى وداعة أن يصبر على فداء أبيه فخادع قريش حتى إذا عملوا خرح من الليل على راحلته ، فسار أربعة ليال إلى المدينة ليفتدى أباه . وصدق رسول الله ﷺ — حينما قال لأصحابه : « إن له بمكة ابنا كيسا تاجرا ذا مال ، و كأنكم به قد جاء فى طلب فداء أبيه » .

وافتدى المطلب أباه بأربعة آلاف درهم وكان أول أسير افتدى ، ثم عاد به إلى مكة وهو يكاد يصير من الفرح فلامه قريش فى ذلك فقال . — ما كنت لأترك أبى أسيرا فى أيدي القوم وأنتم مصجعون .

فقال أبو سفيان بن حرب :

— إن هذا غلام حدث يعجب بنفسه وبرأيه وهو مفسد عليكم ، إني والله غير مفتد عمرو بن أبى سفيان ولو مكث سة أو يرسه محمد ، والله ما أنا بأعوركم ولكى أكره أن أدخل عليكم ما يشق عليكم ولكن يكون عمرو كأسوتكم

وسكت الناس وإن كانت قلوبهم تهفو إلى الأسرى ، ثم انشر فى

مكة همس يقول ما يجمع أبا سفيان من فداء ابنه غير بحله فقد اشتهر عنه ذلك البخل بين قومه . وعجز الناس عن احتمال بقاء الآباء والأبناء والأعمام والأخوال والأخوة أدلاء في الأسر ، فشد ارحال إلى المدينة في فداء الأسرى أربعة عشر رجلا : من بني عبد شمس الوليد بن عتبة ابن أبي معيط ، وعمر بن الربيع أخو أبي العاص بن الربيع ، ومن بني نوفل بن عبد مناف حُبير بن مطعم ، ومن بني عبد الدار ابن قصي بن أبي طلحة ، ومن بني أسد ابن عبد العزى بن قصي عثمان بن أبي حُشير ، ومن بني محروم عبد الله بن أبي ربيعة وخالد بن الوليد وهشام ابن الوليد بن النعميرة وفروة بن السائب وعكرمة بن أبي جهل ، ومن بني حمح أبي بن حلف وعمير بن وهب ، ومن بني سهم عمرو بن قيس ، ومن بني مالك ابن حنسل مكرز بن حفص بن الأخنف .

وقدم الرجال إلى المدينة في فداء أهلهم وعشائهم ، فاطلقوا إلى مسجد رسول الله عليه السلام فإذا يرسم الله قائم يصلي يرتل .
﴿ والطور ﴾ وكتاب مسطور * في رق منشور * والبيت المعمور *
والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إن عذاب ربك لواقع * ماله
من دفع * يوم تمور السماء مورا * وتسير الجبال سيرا * فويل يومئذ
للمكدين * الذين هم في حوص يلعون * يوم يدعون إلى نار جهنم
دعا * هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسح هذا أم أنتم لا
تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما
كنتم تعملون ﴿ (١) .

وجعل حبيب بن مطعم يصحى إلى رسول الله ﷺ — فإذا بالآيات تنزل إلى قلبه لكأنها نور أضاء بصيرته ، إنه ليرتجف من آيات الوعيد ويشرق بالأمل لما تمس فؤاده آيات التشير ويهيم في عالم الملكوت وقد ألقى سمعه وهو شهيد . إن قوة طاعية في أعور نفسه تهيب به أن يهص ليشهد عني الملائكة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ولكنه يقاوم هذه الرغبة وإن دخل الإسلام في قلبه .

وعدا الوليد بن عقبة يساوم سعد بن أبي وقاص في أسيره الحارث بن أبي وحره بن أبي عمرو بن أمية حتى اقتداه بأربعة آلاف . وراح حبيب ابن مطعم يقتدى عدى بن الحيار وعثمان بن عبد شمس وأبا ثور ، ويحلس إلى حوار رسول الله ﷺ كلما قام للصلاة أو جلس لتلاوة القرآن . فقد أصبح حبيب بن مطعم أسير سحر ما يرسل محمد عليه السلام .

وصار أبو عمرو بن عمير بالقرعة لمحزر بن صلبة ، فحاء أخوه مصعب بن عمير وقال لمحزر :

— اشد يدك به ، فإن له أما بمكة كثيرة المال .

فقال له أبو عزيز :

— هذه وصاتك بي يا أخي ؟

فقال مصعب :

— إنه أحى دونك .

وكانت أمه قد سألت . ما أعنى ما تمادى به قريش ؟ فقيل لها : أربعة آلاف . فعثت فيه أمه أربعة آلاف .

وقدم طححة بن أبي طححة في فداء الأسود بن عامر بن الحارث

ابن السباق ، أسره حمرة بن عبد المطلب ، وقدم عثمان بن أبي حيس
في فداء السائب بن أبي حيس وسالم بن شراح وعثمان بن الحويرث
وقد فدى كل رجل منهم بأربعة آلاف .

وقدم خالد بن الوليد وهشام بن الوليد في فداء أخيهما الوليد بن
الوليد بن المعيرة . فتمنع عبد الله بن جحش حتى يدفعه فيه أربعة
آلاف ، فجعل هشام بن الوليد يقول :
— ثلاثة آلاف .

فقال خالد لهشام :

— إنه ليس بابن أمث ، والله لو أبي فيه إلا كذا وكذا لفعلت .
واهدياه بأربعة آلاف . ثم حرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة فأفنت
فأتى النبي ﷺ — فقيل :
— ألا أسلمت قبل أن تفدى ؟!

— كرهت أن أسلم حتى أكون أسوة بقومي .
وقدم عكرمة بن أبي جهل في فداء خالد بن الأعمى العقيلي حليف
بني مخزوم ، وهو الذي يقول :
ولسنا على الأعقاب تدمي كلومنا

ولكس على أقداننا تقطر الدما

— وكان أول المهزمين ، أسره الحباب بن المنذر بن الجموح .
وقدم عمير بن وهب في فداء ابنه وهب ، وكان عمير هو القائل يوم
بدر لما قالت له قريش « احرر لنا أصحاب محمد » . ما وجدت شيئا
ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المايا ، نواضح يثرب
تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم معة ولا ملجأ إلا سيوفهم والله

ما أرى أن يقتل رجل حتى يقتل رجلا منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم
فما حير العيش بعد ذلك ؟

إنه كان جالسا في مكة مع صفوان بن أمية ، فذكر أصحابه القريب
ومصائبهم فقال صفوان :

— والله إن في العيش بعدهم حير .

قال له عمير :

— صدقت والله ، أما والله لولا دين علي ليس له عدى قضاء ،
وعيال أحشي عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن
لى قبلهم علة : ابني أسير فى أيديهم .

فاعتتمها صفوان وقال :

— على دينك وأنا أقصبه عليك وعيالك مع عيالى أو أسيرهم ما بقوا
لا يسعى شيء ويعجز عنهم
— فاكتم شأنى وشأنك .
— أفعل .

ثم أمر عمير بسيمه فمسحده له وسم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة ،
فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر
ويدكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى
عمير بن وهب حين أباخ على باب المسجد متوشحا السيف فقال :

— هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر . وهو
الذى حرش بيننا وحزرننا لنقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ — فقال :

— يا بى الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه .
— فأدخه على .

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فثبته بها ، وقال لرجل
ممن كانوا معه من الأنصار :

— ادخلوا على رسول الله ﷺ — فاحسبوا عهده واحذروا عهده
من هذا الخبيث فإنه غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله ﷺ — وعمر أخذ بحمالة سيفه فى
عنقه قل :

— أرسله يا عمر ، ادن يا عمير .

فدنا ثم قال :

— أنعموا صباحا .

فقال ﷺ :

— أكرمنا الله بتحية حير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل
الجنة .

— أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد .

— فما جاء بك يا عمير ؟

— جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا إليه .

— فما بال السيف فى عنقك ؟

— فبجها الله من سيوف ! وهل أعنت عنا شيئا ؟!

— اصدقنى ما الذى جئت له ؟

— ما جئت إلا لذلك .

— بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب

القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لحررت حتى

أقتل محمدا . فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلى له ،

والله حائل بينك وبين ذلك .

— أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذلك بما كنت تأتينا به من حبر السماء وما يزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحصره إلا أنا وصعوان . فوالله إني لا أعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقى هذا المساق .

ثم شهد على الملائكة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

وقال عمر بن الخطاب :

— لخيرير كان أحب إلى من حين طبع ، وهو الساعة أحب إلتي من

بعض ولدي .

فقال رسول الله ﷺ :

— ففهموا أحاكم في دينه وأقرنوه القرآن وأطلقوا له أسيره .

ثم قال عمير :

— يا رسول الله إني كنت حاهدا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى

لمن كان عني دين الله عرو وحل . وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة

فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ — وإلى الإسلام لعل الله

يهديهم ، وإلا آديتهم كما كنت أودي أصحابك في دينهم .

فأذن له رسول الله ﷺ — فلتحق بمكة .

وقدم عمرو بن الربيع في فداء أخيه العاص بن الربيع ، فقدم إلى

رسول الله ﷺ — ما بعث به ابنته ريب في فداء زوجها فإذا به مال

وقلادة لها كانت خديجة أدحت بها علي بن العاص حين بسى بها ،

فترقق الدمع في عيني رسول الله ﷺ — ورق بها رقة شديدة .

إنها ذكرته بالطاهرة سيدة ساء قريش أم المؤمنين التي صدقته لما كذبه

الناس ، وواسته لما عزت المواساة ، وكانت له ورير صدق على
الدوام ، إنه ليذكرها أبداً في أفراحه وأتراحه ، في انتصاراته وأحزانه ،
كلما فكر في رقبة التي ذهبت أو زيبب التي فرق بينه وبينها بقاؤها في
كتف روج مشرك ما كان بقادر على أن يعرق بينهما أو في أم كلثوم
وفاطمة الزهراء التين ذاقتا مرارة اليتيم وهما في عمر الزهور .

وقال عليه السلام لمن عنده في صوت متهدح

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا .

— نعم يا رسول الله .

كان صفوان بن أمية يجلس في الحرم ويقول :
 — أبشروا برفعة تأتيكم الآن في أيام نسيكم وقعة بدر .
 وراح صفوان يسأل عن عمير بن وهب كل راكب يقدم من المدينة
 ويقول :

— هل حدث بالمدينة من حدث ؟
 — كان على ثقة من أن عمير بن وهب سيقتل رسول الله عليه
 السلام ، بل إن حقه كان يؤكد له أن الاعتيال قد وقع وأن كل قادم إلى
 مكة إما ما جاء إلا ليحمل إليه الشرى التي ستشمى غيله ، فقدم رجل
 من المدينة فسأله صفوان عن عمير فقال :
 — أسلم .

فأحس صفوان كأن سهام الأرض قد صوبت إلى فؤاده فمرقته ،
 كان البيا أقسى على قلبه من نذير الشؤم الذي جاء بخبر قتلى بدر . إن
 ذلك الرجل أحس من الحيسمان^(١) ، وغدا صفوان يلص عمير بن
 وهب ولعنه الناس وقالوا :
 — صبا عمير .

وحلف صفوان ألا يكلمه أبدا ولا ينفعه وطرح عياله . وقدم عمير

(١) رجل كانوا يتشاعون منه . والحسوم : الشؤم

مرل في أهله ولم يأت صفوان وأظهر الإسلام ، فبلغ صفوان فقال :
 — قد عرفت حين لم يبدأ بي قبل منزله ، وقد كان رجل أحمرى
 أنه ارتكس ، لا أكلمه من رأسى أبدا ولا أنفعه ولا عياله بافاعة أبدا .
 فوقع عليه عمير وهو في الحجر فقال :
 — يا أبا وهب .

فأعرض صفوان عنه فقال عمير :

— أنت سيد من ساداتنا ، أرايت الذى كنا عليه من عادة حجر
 والذبح له ! أهذا دين ؟! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله .
 فلم يحبه صفوان بكلمة ، وعدا عمير يدعو الناس إلى الإسلام .
 وعاد أبو العاص بن الربيع إلى مكة ففرح الناس بعوده من كان من
 الرجال المعدو دين مالا وأمانة وتجارة ، وطاف بالبيت سبعا . واستطر
 سادات قريش الذين كانوا فى نواذبهم أن يأتى إليهم ليقص عليهم كيف
 أطلقه محمد بعير فداء ، ولكن أبا العاص كان فى شوق إلى ريب بنت
 محمد ، إلى الروجة التى بعثت فى فدائه بأعز ما نملك قلادة عالية
 كانت حديجة أدخلتها بها عليه ليلة زفافها عميه . إنه طوال الرحلة قد
 شغل بوجه محمد وقد رق لها رقة شديدة . إنه كان يعرف أن ختنه
 كان يحب خالته خديجة بكل عواطفه ، ولكنه ما كان يتصور أن يطلع
 حبه إياها حد أن يدوب رقة لمجرد رؤية قلادتها وأن تغيم عيابه بالدموع
 للذكرى !

وراح أبو العاص بن الربيع يغد السير ليلحق بزوجه وهو ملهوف فى
 صدره شوق وفى فؤاده هوى وعنى لسانه كلمات ، وهم بأن يترتم
 بشعر جزل يعبر عن جيشان العواطف فى وجدانه إلا أنه أفاق إلى نفسه

وتذكر ما وعد به رسول الله ﷺ — فقص حبيبه وقد هاجت في
عبر داته الأحزان ، فهو لا يستطيع أن يكث وعده وإلا لطنخ أماته التي
اشتهر بها بين قومه بالأووال .

به وعد أليم موجه لقله سيقوص البيت الهائى الذى عحرت
عواصف الأحداث من قبل عى أن تزعزع أركانه ، وكان قد بلغ الدار
فما إن وقعت عينا رينب عليه حتى جرت إليه ودموع العرح تقسل
الوجه الذى اسسطلت أساريه ، وصار فى لحظة مرآة الفؤاد الذى فاض
فى لحظة بشتى المشاعر والانعالات .

وغاب الروحان عن الوجود ولم يحسا إلا بنفسيهما وبعواطفهما
الثائرة المشبوبة . ويبا هما فى غمرة السعادة إذا ترجيع صوت رسول
الله عليه السلام يرن فى أعماق أبى العاص بن الربيع ، فيبعد أبو العاص
روجه عن صدره ويقول لها .
— تأهبي يا رينب لتلحقى بأبيك .

وبطرت إليه زيب فى دهش وهى لا تكاد تفقه شيئا ، فقال لها وقد
أطرق بنظره إلى الأرض :
— فرق بينى وبينك الإسلام .

إن أبا العاص وعد رسول الله — صلى الله عليه وآله — ابتداء بأن
يحمل زينب إليه إلى المدينة ، وكان يعلم قسوة ذلك الوعد على قلبه ،
ولكنه وهو يفصى إلى رينب الحبيبة بما شرط عليه أبوها يحس أن قلبه
يتمزق وأنه يتأثر أشلاء ، ويا طالما ترنم الركبان بشعره الذى يتشب
فيه بريس بنت محمد

وعدت زيب تحاهد عواطفها وهى تتجهز للخروج ، إنها قالت

صادقة بلسانها ووجدانها : سمعا وطاعة لله ولرسول الله ، ولكن عواطفها خذلناها ولم تكرر لها عيها سلطان ، فدمعها لا يرقأ وقلبيها دائم الحفقان للحبيب الذي كان نعم ازوج على الدوام .

وبيا هي تتجهز للحرق بأبيها لقيتها هذبت عتية من قتل أبوها وعمها وأخوها يوم بدر ، فقالت :

— ألم يلغنى يا بنت محمد أنك تريدن اللحق بأبيك ؟

فقالت زينب في حذر :

— ما أردت ذلك .

— أى بنت عم لا تعلمي . إن كانت لك حاجة في متاع أو فيما يرفع بك في سمرك أو مال تبغين به إلى أبيك فإن عدى حاجت . فلا تُضطبي (تستحي) مني فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال .

وأحست زينب أنها صادقة وما قالت حيث شد إلا لتفعل ، ولكن حافتها فأكرت أن تكون تريد ذلك . وتجهزت حتى فرغت من جهارها فحملها أخو بعلا وهو كنانة بن الربيع .

قدم لها كنانة بن الربيع بعيرا فركبته وأخذ قوسه وكنانته وحرص بها بهارا يقود بعيرها وهي في هودج لها ، وحدث بذلك الرجال من قریش والنساء وتلاومت في ذلك وأشفقت أن تخرج ابنة محمد من بينهم على تلك الحال ، فحرحوا في طلبها سراعا حتى أدركوها بذى طوى ، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي ونافع بن عبد القيس الفهري ، فروعها هبار بالرمح وهي في الهودج وكانت حاملا ، فغدت تنزف دما .

وبرك حَمَومها كنانة بن الربيع ونثل كنانته بين يديه ، ثم أخذ منها
سهما فوضعه في كبِد قومه وقال :

— أحلف بالله لا يدنو اليوم منها رجل إلا وضعت فيه سهما .
مرجع الناس عنه . وجاء أبو سفيان بن حرب في جلة من قريش
فقال :

— أيها الرجل اكفف عنا نُبُلك حتى نكلمك .
فكف . فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال :

— إنك لم تحسن ولم نصب ، خرجت بالمرأة على رءوس الناس
علاية جهارا وقد عرفت مصيبتنا وبكتيتنا وما دحل علينا من محمد أيها
فيظن الناس إذا أنت خرجت بابتته إليه جهارا أن ذلك عن ذل أصابها وأن
ذلك ما وهن . ولعمري ما لنا في حبسها من أيها من حاجة وما فيها
من ثأر ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس
بردها منها سلا خفيا فألحقها بأبيها .

وراحت ربيب تنظر إلى الدم الذي يرف منها في خوف ، فرأى
كنانة بن الربيع أن يعود بها استحابة لتوسل أبي سفيان وحفظا لحياة
زوجة أخيه :

— ولقيت هذ بنت عتبة الذين خرجوا إلى زيب حين انصرفهم
فقال لهم :

أفئ السلم أعيار^(١) جفاءً وغلطة

ومى الحرب أشباه النساء العوارك^(٢)

(١) أعيار : حمر الوحش والعيار من الرجال . الذي يخلي نفسه وهواها .

(٢) النساء العوارك : الحوائض .

وفينا كانت ريب في طريق عودتها طرحت ما في بطنها وأصابها
ضعف ، فلما بلغت دار أبي العاص هرع من فيه إليها يحملونها وهي
غارقة في دمايتها .

وصبت الدمعات على رأس هار بن الأسود ، وراح أبو العاص بن
الربيع يمسح بحماه آلام روجه التي فرق الإسلام بينه وبينها . ومرت
ليالي وأيام ولا حديث لمكة إلا حديث بدر والأسرى الذين عادوا بعداء
أو بلا فداء . وغدا العاص يجلس في وادي قومه يحدث عما لقوا من
الأنصار في المدينة ، ولم يسأله أحد : لم فرق رسول الله ﷺ —
بين ابنته ريب وبين زوجها الحبيب أبي العاص ولم يفرق بينه وبين أم
الفصل مع أن احالة واحدة ؟ فأبو العاص مشرك وريب مؤمنة
وكذلك الحال مع العباس وأم الفصل . ولو دار ذلك السؤال في
حلبهم لكشفوا أمر العباس ولأيقنوا أنه على دين ابن أخيه وأنه ما بقى
بيهم يتظاهر بالشرك إلا ليكون عينا عبيهم لرسول الله عليه السلام
يحمل إليه أنبأهم .

وجاء أناس إلى أبي سفيان وهو جالس مع العباس في الحجر
وقالوا :

— ألا تفندي ابنك عمرا ؟

فقال أبو سفيان وقد فقد حلمه :

— أتجمع على دمي ومالي ؟ قتلوا حظلة وأفندي عمرا .

وطمق قلب أبي سفيان بقطر حقد علي بن أبي طالب فهو قاتل
حظلة وآسر عمرو ، وكانت أمه ابنة عقبة بن أبي معيط لا تنفك تسأله
أن يفندي ابنه ويكفيها حزنها على قتل أبيها ، ولكنه كان يطلب منها أن

نصر كما صبرت همد يست عتية ترصدا ليوم النار الأكبر .
واستردت زينب بعض قواها وهدأ الصوت عنها فحملها كنانة بن
الربيع على بعيرها وهي تذرّف الدمع على فراق أبي العاص ، وخرج بها
ليلاً وهو يسلمها سلا حفيًا وقد أرهفت حواسه خشية الطلب .
وكان رسول الله — ﷺ — لما حلّى سبيل أبي العاص بعث بعده
زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقال لهما :
— كونا سطن يأجج حتى تمر بكما زينب تصحبها حتى تأتيا
بها .

وخرج الرجلان ينتظرا حتى أقبل كنانة بن الربيع يقود هودج
زينب حتى أسلمها إلى الرجلين وهو يقول :
عجبت لهبار وأوباش قومه
يريدون إخفاري^(١) بينت محمد
ولست أبالي ما حييت عديدهم

وما استجمعت قبضا يدي بالمهند
وانطلق الرجلان حتى قدما بزینب علی رسول الله — ﷺ — ،
فلما تقدم عافق القلب لاستقبال ابنته العريّة العائدة من دار الشرك إلى
دار الإسلام إذا به يجدها تزف دما فأصابه كدر ، وسمع ما كان من
هبار بن الأسود بن عبد المطلب من قسوة على زينب فأهدر دمه .
وقال عبد الله بن رواحة فيما كان من أمر زينب :

(١) إخفاري : نقض عهدي .

أَتَانِي الَّذِي لَا يَقْدِر النَّاسُ قَسْدَهُ
لَزِينِبَ فِيهِمْ مِنْ هَقُوقٍ وَمَأْثِمٍ
وَإِخْرَاجِهَا لَمْ يَخْزَ فِيهَا مُحَمَّدٌ
عَلَى ثَاقُطٍ (١) بَيْنَا عَطَرَ مَشْمٍ (٢)
وَأَمْسَى أَبُو سَفِيَانٍ مِنْ حَلْفِ صَمْمُضٍ (٣)
وَمِنْ حَرِينَا فِي رَغَمِ أَنْفٍ وَمَنْدَمٍ
قَرْنَا ابْنَهُ عَمْرًا وَمَوْلَى يَمِينِهِ
بَذَى حَلَقَ جِلْدِ الصَّلَاصِلِ مُحْكَمٍ
فَأَقْسَمْتُ لَا تَنْفُكَ مِنَّا كِتَابُ
سَرَاةِ خَمِيسٍ (٤) فِي لِهَامٍ (٥) مَسُومٍ
نَزْوَعُ قَرِيْشَ الْكَفْرِ حَتَّى نُعْلِّهَا (٦)
بِحَاطِطَةِ فَوْقِ الْأَنْوَفِ بِمَيْسَمٍ

(١) ثاقط : معترك الحرب .

(٢) كناية عن شدة الحرب ومشتم بائعة طيب تعطر بطيبها فتباد ثم ذهبوا للحرب فلم يرجعوا .

(٣) صممض بن عمرو العفاري أرسده أبو سفيان ليحير أهل مكة بمحاولة تعرض الرسول وأصحابه لتجارة قريش .

(٤) الخميس : الجيش الكبير .

(٥) الالهام : الجيش العظيم .

(٦) العلل : الشرب مرة بعد مرة

نزلهم أكاف نجيد ونخلة
وإن يُتهموا بالخيل والرجل تُتهم
يد الدهر حتى لا يعوج سربنا
وتلحقهم آثار عاد وجرهم^(٦)
ويندم قوم لم يطعموا محمدا
على أمرهم ولات حين تئلم
فأبلغ أبسا سفيان إما لقيته
لئن أنت لم تخلص سجودا وتسلم
فأبشر بخزى فى الحياة معجل
وسريال قار خالدا فى جهنم

(٦) عاد وجرهم . من القبائل التى بادت .

وكان الأسود بن المططب أصيب له ثلاثة من ولده : أبو حكيمة
 زمعة وعقيل والحارث بن رمعة ، فكان يحب أن يبكي على قتلاه فتأبى
 عليه قریش ذلك ، وكان يقول لعلامه وقد ذهب بصره !
 — ويلك ! احمل معي خمرًا واسلك بي الفج الذي سلكه أبو
 حكيمة .

فيأتي به غلامه على الطريق عند ذلك الفج فيجلس فيسقيه الحمر
 حتى يتشهى ثم يبكي على أبي حكيمة وإخوته ، ثم يحشى الراب على
 رأسه ويقول لعلامه :

— ويحك ! اكتم على . فإنني أكره أن تعلم بي قریش ، إني أراها
 لم تجمع البكاء على قتلاها .

وبما هو يبكي على قتلاه سرا إذ سمع نائحة من الليل فقال لعلامه :
 — انظر هل بكت قریش على قتلاها ؟ لعلني أبكي على أبي حكيمة
 فإن جوفى قد احترق .

فذهب العلام ورجع إليه فقال :

— إنما هي امرأة تبكي على غيرها قد أضلته .

فقال الأسود :

أتبكي أن يصل لها بعير — ويمنعها من النوم سهود

فلا تبكى على بكر (١) ولكس على بكر تصاعرت الخدود
 فبكى إن بكيت على عقيل وبكى حارثا أمد الأسود
 وبكهم ولا تسمى (٢) جميعا فما لأبى حكمة من نديد
 على بدر سراة بى هضيص ومحروم ورهط أبى الوليد
 ألا قد ساد بعدهم رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا
 وبلغ نوفل بن معاوية الديلى وهو فى أهله ، وكان قد شهد بدرًا ،
 أن قريشا بكت على قتلاها فقدم مكة فقال :

— يا معشر قريش لقد حفت أحلامكم وسفه رأيكم وأطعتم
 ساءكم ، أمثل قتلكم بىكى عليهم ! هم أجل من البكاء مع أن ذلك
 يذهب عيظكم عن عداوة محمد وأصحابه ، فلا ينبغى أن يذهب العيظ
 عنكم إلا أن تدركو ثأركم من عدوكم .
 فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه فقال :

— يا أبا معاوية علبت ، والله ما ناحت امرأة من بى عبد شمس على
 قتيل إلى اليوم ولا يكاهم شاعر إلا بهيته حتى تدرك ثأرنا من محمد
 وأصحابه وإنى لأنا الموتور الثائر ، قتل ابنى حظلة وسادة أهل هذا
 الوادى ، أصبح هذا الوادى مقشعرا لعقدهم .

وكان رسول الله ﷺ — لما قدم إلى المدينة وقدم بعده الأسرى
 قال قوم من المنافقين :
 — ليتنا خرجا معه حتى نصيب غنيمة .

(١) لا تسمى : لا تسمى .

(٢) البكر : الفتى من الأبل .

وقالت يهود فيما بينها :

— هو الذى نجلد نعته فى كتبنا ، والله لا ترفع له راية بعد اليوم إلا ظهرت .

واتفقوا فيما بينهم أن ينتظروا وقعة ثانية يبروا إن كانت له أو عليه قبل أن يصلوا إلى قرار .

وقال كعب بن الأشرف :

— بطل الأرض حير من ظهرها ، هؤلاء أشرف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحزم والأمن قد أصيبوا .

وخرج إلى مكة فترل على أبى وداعة بن ضبيرة وجعله يرسل هجاء المسلمين ، ورثى قتلى بدر من المشركين فقال :

طحنت رجا بدر لمهنيك أهله	ولمثل بدر يستهل ويدمغ
قتلت سراة الناس محول حياضه	لا تبعثوا إن الملوك تصرع
ويقول أقوام أذل بعزهم	إن ابن أشرف ظل كعبا يحرع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا	ظلت تسيح بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعنة	أو عاش أعمى مرعشا لا يسمع
بيث أن بسى المعيرة كلهم	خشعوا لقتل أبى الحكيم وجذعو
واينا ربيعة عنده ومببه	ما نال مثل الهالكين ونبع
بيث أن الحارث بن هشامهم	فى الناس بينى الصالحات ويجمع

ليزور يشرب بالجموع وإنما

يسعى على الحسب القديم الأروع

فما أرسل كعب هذه الأبيات أحدها الناس بمكة عنه وأظهروا المرائى وجعل الصبيان والحوارى ينشدونها بمكة فباحث بها قريش على قتلاهم

شهرها ، ولم تبق دار بمكة إلا فيها النوح . وجز الساء شعورهن ، وكان
يؤتى براحة الرجل منهم أو بفرسه فتوقف بين أظهرهم فينوحون حولها ،
وخرج إلى السكك وضرب الستور في الأزقة فخرج إليها ينحس .
وكانت هند بنت عتبة قد عزمت على ألا تبكي أباه عتبة وأحاهها الوليد
وعمها شيبة قبل أن تنأر من قاتليهم ، ولكن الصبيعة كانت فوق طاقتها فما
أن بكت قريش قتلاها حتى راحت هند تذرف الدمع السخين وتنشد :

لله عينا من رأى هلكا كهلك رجاله
يأربُّ باك لي غدا في البائيات وباكية
كم غادروا يوم الف لبيب غداة تلك الداعية^(١)
من كل غيث في السين إذا الكواكب خاوية
قد كنت أحذر ما أرى فاليوم حق جذاريه
يأربُّ قائلسه غدا يا ويح أم معاويه

وتأهبت قريش للخروج في الموسم وقد بلغ هند تسويم^(٢)
الحساء هودجها ومعاطمتها العرب بمصيبتها بأيها عمرو بن الشريد
وأخويها صخر ومعاوية فقالت :
— أنا أعظم من الخنساء .

وأمرت يهودجها فسوم براية وشهدت الموسم بمكاظ فقالت :
— اقرنوا جملي بجمل الخنساء .

ففعّلوا ، فلما دنت منها قالت لها الخنساء :
— من أنت يا أخية ؟

(١) الداعية : الصراخ

(٢) تسويم .

(غزوة بدر)

— أنا همد بنت عتبة أعظم العرب مصيبة ، وقد بلعى أنك تعاضمين
العرب بمصيبتك فبم تعاضمينهم ؟
يعمرو بن الشريد وصحر ومعاوية ابني عمرو ، وبم تعاضمينهم
أنت ؟

— بأبي عسة بن ربيعة وعمى شيبة بن ربيعة وأخي الوليد .

— أو سواء هم عندك ؟

ثم أنشدت الخنساء تقول :

أبكى أبي عمرا بعين غزيرة قليل إذا نام الخلى هجودها
إلى أن قالت :

فذلك يا همد الرزية فاعلمي ونيران حرب حين شب وقودها
فقلت هند تجيها :

أبكى عميد الأبطح^(١) كليهما

وحاميهما من كل باع يريد

أبي عتبة الحيرات ويحك فاعلمي

وشيبة الحامسي الذمار وليدها

أولئك ال المجد من آل غالب

وفي العز منها حين ينمي عديدها

وكان الرواة ينقلون امرأتي إلى المدينة ، فبينا كان رسول الله —
عليه السلام — جالسا مع أصحابه إذ جاء رجل يشد ما قالت فقيلة بنت

(١) الأبطحان . مشى أبطح وهو المسيل الوسع به دقاق الحصى ويقال :

فريش البطاح لأنهم يزلون بين أحشى مكة

الحارث في رثاء أخيه النصر بن الحارث الذي صرب على بن أبي طالب عنقه بالأثيل :

يا راكباً إن الأثيل مظنة	من صبح خامسة وأت موفق
بلغ به ميتاً فإن حجة	ما إن ترال بها الركائب تخفق
منى إليه وعبرة مسووحة	جادت لمانحها وأحرى تحق
فليس من النصر إن ناديت	إن كان يسمع ميت أو يطسق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه	لله أرحام هناك تمزق
صبرا يقاد إلى المدينة راغما	رسف المقيد وهو عان موثق
أحمد ولأنت نجل نجية	في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مت وربما	من الفتى وهو المقيظ المحنق
والنضر أقرب من قتلت وسيلة	وأحفهم إن كان عتق يعتق
وراح البي — ^{صلى الله عليه} — بصفى إلى شعر بست حالته في رثاء ابن خالته	
وقد غشيت رقة وقال :	

— لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله ما قتلته .

صلى رسول الله — ﷺ — ، فلما رفع رأسه من الركعة الأخيرة من وتره دعا لقوم من قريش فقال :

— اللهم أبح سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين .

ومس الدعاء أذنى عمر بن الخطاب فأهاج ذكرياته ، فإنه اتعد لما أرادوا الهجرة من المدينة هو وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل السهمي وقالوا :

— أبنا لم يصبح عند سرف فقد حس فليمص صاحاه .

وكانت سرف على ستة أميال من مكة ، فأصبح هو وعياش بن أبي ربيعة عندها وحس عنهما هشام ، فانطلقا فلما قدما المدينة نرلا في بي عمرو بن عوف بقاء ، وحرح أبو جهل بن هشام وانحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة وكان ابن عمهما وأحاهما لأمهاتهما حتى قدما عليهم المدينة ورسول الله — ﷺ — بمكة ، فكلماهما وقالوا :

— إن أملك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك .

فرق عياش لأمه أسماء بنت مخزبة ، ورأى عمر ميله لتصديقهم فقال له :

— يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتوك عن دينك فاحذرهم ،

فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستطلت .

— أبر قسم أمي ولي هناك مال فأجده .

— والله إنك لتعلم أني لم أكرر قریش مالا ، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما .

فأبى إلا أن يخرج معهما ، فلما دخلا به مكة دخلا به نهارا موثقا ثم قال :

— يا أهل مكة هكذا فامعلوا بسفهاكم كما فعلنا بسفيتها هذا .

ورأى رسول الله — ﷺ — ما يقاسى عياش بن ربيعة المخزومي من تعذيب دون أن يملك إلا الإشفاق عليه ، فما كان له حول ولا قوة في مكة .

وراح عمر يتذكر ما كانوا يقولون فيمن افتتوا : ما الله بقابل ممن افتن صرفا ولا عدلا ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم .

فلما قدم رسول الله — ﷺ — المدينة أنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو العفور الرحيم . وأنبؤوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ (١) .

ورأى عمر بن الخطاب نفسه وهو يكتبها بيده في صحيفة ويبعث

بها إلى هشام بن العاص ، ورن هي أعواره صوت هشام وهو يحدثه :
« فلما ألتنى جعلت أقرؤها بدي طوى أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها
حتى قلت : اللهم فهمنيها . فألقى الله تعالى في قلبي أنها أنزلت فينا
وفيما كنا نقول في أنفسنا ، فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت
برسول الله — ﷺ — وهو بالمدينة . »

وأفاق عمر من ذكرياته على صوت رسول الله — ﷺ — وهو
يقول :

— من لي بعياش بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام ؟

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة :

— أنا لك يا رسول الله بهما .

فخرج إلى مكة فلما بلغها وجد أن أباه الوليد بن المغيرة قد أصابه
سهم رجل من بني كعب بن عمرو من خزاعة ، فدخل عليه وقد
حضرته الوفاة ، ووجد أبا سفيان عنده قبل أن يخرج لذي مجاز
والحوار دائر بينهما ، يقول الوليد لصاحبه :

— أخشى ألا تصد العزى بعد موتي .

فيقول له أبو سفيان :

— أعدت لحياتك حتى لا تعبد لموتك ؟

— الآن أموت وأنا قرير العين .

وخرج أبو سفيان والتفت الوليد إلى بنيه : هشام بن الوليد وخالد بن
الوليد والوليد فقال لهم :

— أي بني أوصيكم بثلاث فلا تضيعوا يمين : دمي في خزاعة فلا

تطله (تهدرته) ، والله إني لأعلم أنهم منه برآء ولكنني أخشى أن

تسبوا به بعد اليوم ! وريأى مئ ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه ، وعقرى
(ديتى) عبد أبى أزيهر الدوسى فلا يهوتكم به .

وكان أبو أزيهر قد روجه بتا ثم أمسكها عنه .

وهلك الوليد بن المغيرة فوثبت بو محروم على خراعة يطلبون
منهم دية الوليد وقالوا :

— إنما قتله سهم صاحبكم .

فأبى عليهم خراعة ذلك حتى تفاولوا أشعارا وغلظ بينهم الأمر ،
فقال عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة المحرومى :

إسى رعيم أن تسيروا فتهرسوا وأن تركوا الظهران تعوى ثعالبه

وأن تركوا بقاء بجرعة أطرقا وأن تسألوا : أى الأراك (١) أطايبه

فأنا أناس لا تطل دماؤنا ولا يتعالى صاعدا من نحاربه

فأحابه الجون بن أبى الحون أحد بنى كعب بن عمرو الحزاعى

فقال :

والله لا تؤنى الوليد ظلامه ولما تروا يوما تزول كواكبه

ويصرع مكم مسمن بعد مُسمر وتفتح بعد الموت قسرا مشاربه

إذا ما أكلتم خبزكم وخزيركم (٢) فكلكم باكى الوليد وناديه

ثم إن الناس تراصوا وعرفوا أنما يحشى القوم السبة ، فعطنتهم

خراعة بعض الدية وانصرفوا عن بعض ، فلما اصططح القوم قال الجون

بن أبى الجون :

(١) كانت الظهران والأراك مارل بى كعب من خراعة .

(٢) الخزير : الحساء من الدسم .

وقائلة لما اصطدحنا تعجبا لما قد حملنا للوليد وقائل
ألم تقسموا تؤتوا الوليد ظلامه ولما تروا يوما كثير البلبال

فنحن خلطنا الحرب بالسلم فاستوت

فأما هوأه آمنا كسل راحل

ثم لم يته الجون بن أبي الجون حتى افتحر بقتل الوليد وكان ذلك
باطلا ، فلحق بالوليد وبولده وقومه من ذلك السية ، فقال الجون بن
أبي الجون :

ألا زعم المغيرة أن كعبا بمكة منهم قدر كثير
فلا تفخر مغيرة أن نراها بها يمشي المعلق والمهير^(١)
بها آباؤنا وبها ولدنا كمأ أرسى بمثته ثير^(٢)
وما قال المغيرة ذاك إلا ليعلم شأننا أو يستشير
فإن دم الوليد يُطل لنا نطل دماء أمت بها خبير
كسأه العاتك الميمون سها زعانا وهو ممتلىء بهير^(٣)
فخر يطن قلة مسلحبا^(٤) كأنه عند وجيته بعير
سيكفيني مطل أبى هشام صغار جعدة الأوبار حور^(٥)
وكان أبو سميان بسوق دى المجاز فعدا هشام بن الوليد على أبي

(١) المعلق المطعون فى سبه ، والمهير : الصحيح السب

(٢) ثير : جيل بمكة

(٣) البهير : المنقطع النفس من الأعياء .

(٤) المسلح : الممتد ، والوجبة : السقطة .

(٥) الحور : الفراء اللين .

أزهر فقتله بعفر الوليد الذي كان عنده لوصية أبيه إياه في السوق ، وبلغ
الحجر مكة فخرج يريد بن أبي سفيان فجمع بني عبد مناف ليثأر لأبي
أزهر فعاتكة بنت أبي أزهر كانت عبد أبي سفيان ، فحسب الناس أن
أبا سفيان سيثيرها حربا بين بني أمية وبني محزوم فقالوا :
— أحمر (١) أبو سفيان في صهره فهو ثائر به .

فلما سمع أبو سفيان بالذي صنع ابنه يريد انحط سريعا إلى مكة
وحشى أن يكون بين قريش حدث في أبي أزهر ، فأتى ابنه وقد ليس
عدة القتال وكان في قومه من بني عبد مناف ، فأخذ الرمح من يده ثم
صر به على رأسه هذه مها ثم قال له :

— قبحك الله ! أتريد أن تصرب قريشا بعضهم ببعض في رجل من
دوس . سؤيتهم الغفل (الدية) إن قتلوه .
وكان دفع الدية لإطماء لار الحرب التي كادت أن تنشب بين قائل
قريش ، وكان المسموم يرجو أن يشب لهيها توهينا لعدوهم
الألد ، فاسعت حسان بن ثابت يحرض في دم أبي أزهر ويعير أبا سفيان
خضرتة ويحجبه فقال :

عدا أهل صوحى (٢) دى المجار كيهما
وجار ابن حرب بالمعص ما يعلو
ولم يسمع العير الضروط ذماره
وما سمعت محيزة والدها هند

(١) الحجر : الغدر .

(٢) صوحى : جانب الوادى .

كسأها هشام بن الوليد ثيابه
فأبل وأحلف مثلها جددا بعد
قضى وترا منه فأصبح ماجدا
وأصحت رخوا ما تخب وما تعدو
فلو أن أشياخنا بيدر تشاهدوا
لبل نعال القوم معتبط ورد^(١)

فلما بلغ أبا سفيان قول حسان قال :
— يريد حسان أن يصرب بعضنا ببعض في رجل من دوس ! بشس
والله ما طن .

وطال غياب الوليد بن الوليد بمكة فظن المسموم بالمدينة أنه
حبس ، فكان رسول الله — ﷺ — إذا ما رفع رأسه من الركعة الأخيرة
من وتره دعا :

— اللهم أرح سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن
الوليد

وراح الوليد بن الوليد يلقب عن محسن عياش بن أبي ربيعة حتى
لقى امرأة تحمل طعاما فقال لها :

— أين تريد يا أمة الله ؟

— أريد هذا المحبوس .

فقطن إلى أنها في طريقها إلى عياش بن أبي ربيعة فتبعها حتى عرف
موصعه وكان محبوسا في بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور عليه ثم

(١) معتبط ورد : الدم المعبط (الطرى) .

أحد مروءة (حجرا) فوضعها تحت قيده ثم ضرب القيد بسيفه فقطعه ، فكان يقال لسيفه : « دو المروءة » ثم حمل على بعيره وساق به فعثر فدميت أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت
ثم قدم به على رسول الله ﷺ — المدينة فتهللت بالبشر
لوصولهما سالعين أسارى المسلمين .

وبينا عياش يسير بطهر فباء إد لقي الحارث بن يزيد فتذكر في لحظة ما كان من الحارث يوم أن جاء إليه أبو جهل والحارث بن هشام لما هاجر أول مرة ، لقد حذعاه وقالوا له إن أمه قد حلفت لا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يرجع إليها ، فرق لها وعاد معهما . أوثقه قومه وجنده كل واحد منهم مائة حلدة ، ثم أتاه الحارث بن زيد وقال :

— يا عياش ، لنس كان الذي كنت عليه هدى لقد تركت الهدى ، وإن كان ضلالة لقد كنت عليها .

فغضب عياش من مقاله وقال :

— والله لا ألقاك خاليا إلا قتلتك .

وإنه لينقاه خاليا الساعة فحمل عليه فقتله ، فقال الناس في فرع :

— أى شيء صنعت ؟ إنه قد أسلم .

فرجع عياش إلى رسول الله ﷺ — فقال :

— يا رسول الله كان من أمرى وأمر الحارث ما قد علمت ، وإنى لم أشعر بإسلامه حين قنته .

وأطرق رسول الله ﷺ — وشق ذلك على عياش ، حتى برل

الوحي عليه عليه السلام بقوله تعالى ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم غلو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم يبغون ويذهبهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليمًا حكيمًا ﴿ (١) .

كانت صدور أهل مكة تغلى بالحقد للخرى الذى بالهم فى بدر ،
 وكان يريد فى حقهم آيات الله التى تصل إليهم من المدينة تسجل
 عليهم العار والاندحار وتخزهم وحزا أليما . وكان حكيم بن حرام
 يرتحف فرقا كلما رد فى أعواره قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا
 يفتقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة
 ثم يعلمون ﴾ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون « ليمير الله الحبيث من
 الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى
 جهنم أولئك هم الخاسرون ﴿١﴾ . فهو يتذكر المطعمين فى بدر وما
 حاق بهم فينزله رعب شديد

إن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قد قتل وإن كان محمد
 ابن عبد الله قد قال لأصحابه : « من طمر به مكتم فليتركه لأيتام بى
 نوفل » . وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس كانا أول من ذاق الموت
 فى المعركة ، وترك على بن أبى طالب زمعة بن الأسود بن المطلب بن
 أسد بن نوفل بن خويشد بن العدوية كأمن الدابر وأردى أبا جهل قتيلا ابنا
 عفرأ ، وقتل أمية بن خلف وابنا الحجاج بيه ومنبه ، فما أطعم أحد
 بدر إلا قتل إلا هو لا يدري الحكمة قد نجاه الله أم ألقى القتل يترصد به !

إن حنله يقشعر من الحوف حتى بات يخشى الوحدة حتى لا
تفتسه أفكاره فكان يفرع إلى برادى قومه . وبنا كان جالسا مع أبى
سعيد بن حرب وصفوان بن أمية ومن بقى من شيوخ قريش حتى قال
قائل :

— إن ثأرنا بأرض الحبشة فلم نسل إلى ملكها ليدفع إلينا من عبده
من أتباع محمد فتقتلهم بمن قتل منا .

انهزموا فى المعركة واستأصل المسلمون وجوههم فلم يبحثوا إلا
عن نصر رخيص يشقى غليل نفوسهم ، فأرسلوا عمرو بن العاص
صديق النجاشى الحميم ، وعبد الله بن أبى ربيعة إلى النجاشى ليدفع
إليهما من عبده من المسلمين .

وركب عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة سفينة وقد حملا
معهما هدايا عظيمة . وما إن أقنعت حتى راح الدين تنر أقدتهم بالحقد
على على بن أبى طالب لقتل آبائهم أو إخوتهم أو أرواحهم أو أبنائهم
وما أكثرهم ! يعمون النفس بأن يدفع النجاشى إليهم جعفر بن أبى
طائب ليقتلوه انتقاما لأهبيهم الدين سمحت دماؤهم فى بدر .

إن عليا هناك فى المدينة قد ذاع صيته بعد أن جدل صناديد قريش ،
وإن أسد الله حمرة فى حصن من المهاجرين والأنصار وقتلها ليس
أمرا ميسورا ، وإن كانت هند بنت عتبة قد قتلتها مرارا فى حياها ثأرا
لأبيها وأختها وعمها . فما دام الانتقام من هذين اللذين فعلا فى قريش
الأفاعيل بعيد المسال فقتل جعفر ومن معه من المسلمين فيه كثير من
العزاء .

وكان رسول الله ﷺ — قد بعث رسولا إلى النجاشى يحمل

إليه أنباء تنصار بدر ، فركب الرسول السفينة من يسع وانطلق بها إلى الحبيشة وهو يتلو الآيات التي برلت في الأنفال وفي بدر ، فيسبقه حياله فيرى نفسه بين جعفر بن أبي طالب والذين معه من المسلمين وهم يصغون إليه مستبشرين وهو يقرأ : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أدلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفبكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مرلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشرى بكم ولطمش قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴿ (١) .

وسعت السفينة أرض الحبيشة فانطلق رسول الله ﷺ — إلى قصر النحاشي واستأذن في الدحول عليه ، فما مثل بين يديه لم يحر له ساجدا بل سار مرفوع الرأس يعنوه الوقار يترقق الورع في محاه حتى إذا دأ من الحاشي على العرش ألقى عليه تحبة الإسلام فرد عليه النحاشي تحبته ثم أحلسه إلى جواره .

وراح الرجل يقص على النحاشي أنباء بدر ونصرة رسول الله ﷺ فعصه النحاشي وراح يقرؤه فإذا بالسي عليه السلام يوصيه فيه عني لمسلمين

وأرسل النحاشي إلى جعفر بن أبي طالب وإلى أصحابه الذين معه بالحبيشة فدخلوا عليه فوجدوه جالسا على التراب لا يلبس أثوابا حلقة ، فقالوا له :

— ما هذا أيها الملك ؟

فقال المجاشي وقد تهملت أساريه :

— إني أبشركم بما يسركم إن الله عز وجل قد نصر بيه وأهدك
عدوه أبا جهل بن هشام وأميه بن خلف والنصر بن الحارث وعقبة بن
أبي معيط ، التقوا بمحل يقال له بدر كثير الأراك كنت أرعى فيه غما
لسيدي من بني ضمرة .

إن المجاشي لا يسي تلك الأيام التي باعوه فيها عبدا وقد حمته
سيده إلى بلاد العرب ولولا لطف الله لبقى رقيقا ولما عاد إلى عرش
آبائه ، وإنه ليقتأ يذكر تلك الأيام كلما اجتمع بالمسلمين بالحبشة أو
وقد إليه رسل من أرض العرب ، فقال له جعفر :

— مالك حالس على التراب عليك هذه الأخلاق ؟

— كان عيسى عليه السلام إذا حدث له من الله بعمة ازداد نواضعا ،
فلما أحدث الله تعالى بصرة بيه — ﷺ — أحدثت هذا التواضع .

وكد جعفر ومن معه من المسلمين في لهعة لسماع أساء انتصارات
بدر فاجتمعوا برسول رسول الله — ﷺ — وألقوا إليه أسماعهم
والرجل يحدثهم بأخبار النصر الميسر ويتلو عليهم آيات الله : ﴿ كما
أخرجك ربك من بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ مَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ *
يَحَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ
يَصْطَرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ
ذَاتِ شَوْكَةٍ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ
الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلِيَ كَرِهَ الْمُحْرَمُونَ * إِذْ
تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

مردفين ، وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به فلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴿١﴾ .

واستمر يتلو عليهم ما أنزل الله على رسول الله — ﷺ — من سورة الأنفال وهم يصعون إليه وقد تفرقت العبرات في العيون ، فحصر الله لعباده كل أعظم من أمانيهم وأكر من أحلامهم وما كانوا يأملون . ودخل عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة رسولا قريش على النجاشي وهما يحملان الهدايا في نفس الوقت الذي كان يخرج فيه رسول رسول رب العالمين ، فاحتلس عمرو إليه بطرة ثم تقدم ليخر ساجدا بين يدي النجاشي .

وأمره النجاشي أن يرفع رأسه وأن يجلس إلى جواره ففعل عمرو ، فقال له النجاشي :

— مرحبا بصديقي ، أهديت لي من بلادك شيئا ؟

— نعم أيها الملك ، أهديت لك أدما كثيرا

ثم قربه إليه فأعجبه وغرق منه أشياء بين بطارقه ، وأمر بسائره فأدخل في موضع وأمر أن يكتب ويحتفظ به ، فلما رأى عمرو طيب نفسه قال :

— أيها الملك إني رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول عدو لنا قد وترنا وقتل أشرافنا وحيارنا ، فأعطيه فأقتله .

فغضب النجاشي ثم رفع يده فضرب بها أنف عمرو ضربة طن أنه قد كسره ، فجعل عمرو يتقي الدم بثيابه فأصابه من الدل ما لو انشقت

(١) الأنفال : ٥ — ١٠

له الأرض لدحل فيها عرقاً منه ثم قال :

— أيها الملك لو طست ألك نكره ما قتت ما سألتكه .

ورد الحاشى عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة حائسين ، ثم بعث إلى رسول الله — ﷺ — من خيار أصحابه ثلاثين ليهنئوه بصر الله ، فلما سار الرجال حملاسهم الدينية في المدينة اشترأت إليهم الأعناق ، وأحس اليهود غيرة أن علا شأن رسول الله عليه السلام ، وأبدى المنافقون بأفواههم غير ما يملأ أفئدتهم من حقد على نبي الإسلام ، وفاص قلب المؤمنين بالبشر والاستبشار .

واطلق الرجال إلى مسعد الرسول يحملون إليه تحيات النحاشى وتهنئته وأطيب التميات . واستقبلهم عليه السلام بالترحاب ثم دار بين لجانبين حوار ودى فقرأ عليهم رسول الله — ﷺ — ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * يس * والقرآن الحكيم * إنا نؤمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتبدر قوما ما أنذر آباؤهم فهم عافون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا في أعناقهم أعلا لا مهى إلى الأدقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشياهم فهم لا يصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * إنا نذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمعفرة وأجر كريم * إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا واثارهم وكل شىء أحصياه فى إمام مبين * واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعمرنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا

إنيكم لمرسود • وما عليا إلا لبلاع الميس • قالوا إما تطير • بكم لن
لم تنهوا لرحمكم ولیمسكم منا عذاب أليم • قالوا طائرکم معکم أن
دکرسم بل أنتم قوم مسرفون • وحاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال
يا قوم اتبعوا المرسلين • اتبعوا من لا يسألکم أجرا وهم مهتدون •
وما لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون • أتأخذ من دونه آلهة إن يرد
الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا يقيدون • إني إذا لمي
ضلال ميس • إني آمنت بربکم فاسمعون • قيل ادخل الجنة قال ياليت
قومي يعلمون • بما عمر لي ربي وجعسي من السكرين ﴿١﴾ .

وامتصر رسول الله ﷺ يتلو سورة يس ورهبان الحبشة يصنعون
إليه وقد جاشت صدورهم بمشاعر رقيقة ، وما لشوا أن انهمرت
لدموع من العيون من أثر الأفعال الشديدة ، فأنزل الله تعالى :
﴿ لتحدن أشد الناس عداوة لدين آمو اليهود والدين أشركوا •
ولتجدن أقربهم مودة لدين آمو الدين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم
قسيس ورهان وأنهم لا يستكبرون • وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول
ترى أعينهم تميص من الدمع مما عروا من الحق يقولون ربنا آمتنا فكتبنا
مع الشاهدين • وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن
يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين • فأنابهم الله بما قالوا جئات تجري من
تحتها الأنهار حالدين فيها وذلك جزاء المحسين ﴾ (٢) .

(١) يس : ١ — ٢١

(٢) المائدة : ٨٢ — ٨٥

تدفقت الأموال من مكة إلى المدينة في فداء أسرى بدر ، وقد أخذ رسول الله ﷺ نصيبه في الغنائم وفي الأموال ولكنه لم يحتفظ منها بشيء بل رد كل ما أخذ على فقراء المسلمين ، فقد كان عليه السلام إمام الزاهدين وكان يقول :

— أفلح الزاهد في الدنيا ، حتى يعز العاجلة وثواب الآخرة .
فهو عليه السلام يرى أن من أصبحت الدنيا همه ونسترقه نزع الله العسى من قلبه وصير الفقير بين عينيه ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبحت الآخرة همه نزع الله الفقر من قلبه وصير الغنى بين عينيه وأتته الدنيا وهي راغمة .

وكان علي بن أبي طالب ربيب رسول الله ﷺ ، وله فيه أسوة حسنة ، وقد كان نصيب علي في غنائم بدر عظيما فاندروع في قريش يوم بدر كانت كثيرة فلما انهزموا جعلوا يلقونها وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقطون ما طرحوا ، ولقد التقط منها على الكثير وأخذ نصيبه من الأنفال والأموال ، ولو شاء أن يتاجر في أمواله لكان من أغنياء المسلمين ولكنه كان زاهدا كابن عمه عزت عليه نفسه فهانت عليه الدنيا ، فحب الدنيا رأس كل خطيئة ، واقتناء المال فيها داء عظيم لا يسلم صاحبه من البعى والكبر ، فإن سلم منهما يشغله إصلاحه عن ذكر الله .

إنه يطمع في أن يكون من المتقين فيدع ما ليس به بأس حذرا عما به بأس ، فكان يحرج عن كل ماله ويؤثر أن يكون فقيرا من أن يكون غنيا في أمواله بأس ، ويرضى بالجوع فيه مدلة للنفس وحياة للقلب وقد مع نفسه من الشهوات لكرامة نفسه عليه .

عرف بعد بدر بفارس الإسلام ولم يكن له من قبل ذكر إذا ما ذكرت الحروب ، وقد سمع كثيرا من الإطراء فما زاده المديح إلا تواسعا . وكان يدخل دار رسول الله ﷺ ، ويرى فاطمة الزهراء وأم كلثوم فلا يخطر له الرواح على قلب وإن كانت فاطمة قد صارت رهرة متفتحة في السادسة عشرة من عمرها . فقد كان مشغولا عن دياه بالنور الذي ملأ قواده .

وحاء أبو بكر الصديق إلى رسول الله ﷺ — بخطب فاطمة فأطرق عليه السلام قليلا ثم قال :
— انتظر بها القضاء .

وسمعت فاطمة ولا ريب بحطبة الصديق إليها وفكرت في الرجل وفيما قال له أبوها فم تمهم شيئا ، وترقت ذلك القضاء الذي ينتظره رسول الله ﷺ .

وجاء عمر إلى رسول الله ﷺ — يحطب فاطمة فقال له عليه السلام :
— انتظر بها القضاء .

ودار حديث في الدار بين فاطمة الزهراء وأم كلثوم وأم أيمن حول حطبة عمر لفاطمة الزهراء ورفض الرسول ﷺ — ذلك الزواج في كياسة وأدب وذلك القضاء الذي ينتظره رسول الله ﷺ عليه السلام ، ولم

يؤد الحوار إلى حقيقة تلمس إليها قلوب أهل البيت التي كانت حائرة قلقة .

وقطع أبو بكر وعمر بنى أن رسول الله — ﷺ — قد ادحر الزهراء لعلى بن أبى طالب ، فحاءا إلى على بأمره أن يخطبها فبهاه لأمر كان عنه عاملا ، فجاء رسول الله — ﷺ — فقال :

— تزوجى فاطمة .

فأمهه عليه السلام حتى يستشيرها ، فدخل عليها فقال :

— أى بية إن ابن عمك عليا قد خطبك فماذا تقولين ؟

فبكت ثم قالت :

— كأنك يا أبت إنما ادخرتنى لفقر قريش .

— مالك نيكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم عسما وأفضلهم حلما وأولهم سما . ما آليت أن أزوجك حبر أهني . والذي بعثني بالحق ما تكلمت في هذا حتى أدل لى الله فيه من السماء .

— رصيت بما رضى الله ورسوله .

وتنهل وجه رسول الله — ﷺ — بالبشر وحرص إلى ربيبه وابن عمه وقال له :

— هل عندك من شيء ؟

— كلا .

— وأين درعك الحطمية (التي تحطم السيوف) .

— عدى .

ودفع على بالدرع إلى علامه ليبيعها فاصطق بها إلى السوى ، وبسا هو يبيعها بأربعمائة درهم إذ رآه عثمان بن عفان فقال :

— هذه درع على فارس الإسلام لا تباع أبدا .
فدفع بعلام على أربعمئة درهم وأقسم أن لا يخيره بذلك ورد
الدرع معه .

وقال انبى — ﷺ — لأنس بن مالك
— انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة ولزبير وبعدهم
من الأنصار .

فانطلق ودعاهم ، فلما أخذوا مجانسهم التفت عليه السلام إلى على
وقال :

— يا على انخطب لنفسك .

فقام على فقال :

— الحمد لله شكرا لأنعمه وأياديه ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة
تنبه وترصيه ، وهذا محمد رسول الله — ﷺ — زوجى ابته فاطمة
على صداق مبنه أربعمئة درهم ، فاسمعوا ما يقول واشهنوا .
— ما تقول يا رسول الله ؟

— الحمد لله الم محمود بعلمته ، المعبود بقدرته ، المطاع
لسبطانه ، المهورب إليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ،
الذى خلق الحلق بقدرته ويرهم بأحكامه ، وأعرهم بدينه وأكرمهم
بنبيه محمد ﷺ .

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقا ، وأمرنا مقترضا ،
وحكما عادلا ، وحيرا حامعا ، أوشج بها الأرحام ، وألزمها الأنام ،
فقال الله عز وجل : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا

وصهرها وكان ربك قديرا ﴿١﴾ . وأمر الله يجرى إلى قصاته وقضاؤه يجرى إلى قدره ولكل أحل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . ثم إن الله تعالى أمرني أن أروح فاطمة من علي وأشهدكم أسي زوجت فاطمة من علي على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك علي السنة القائمة والمريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما وجعل سلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة . أقول قولى هدا وأستعفر الله لى ولكم .

وخر على ساجدا شكرا لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول ﷺ :
— بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأرحم مكما الكثير الطيب .

ثم أمر لأصحابه يطبق فيه تمر فوضع بين أيديهم فقال :
— انتهبوا .

وجهزت وما كان لها من حجار غير سرير مشروط ووسادة من آدم خشوها ليف وبورة من آدم (إناء يعمل فيه) وسقاء ومنخل ومشفة وقدح ورحاءان وجرتان .

وجاءت أيسة الرفاف فأولم رسول الله — ﷺ — فيها بكبش من عند سعد بن معاذ وأصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار ، وقال لعلى :

— لا تحدث شيئا حتى تلقانى .

فجاءت بها أم أيمن حتى قعدت فى جانب البيت وعلى فى جانب

آخر .

وجاء رسول الله — ﷺ — فقال لفاطمة :

— اتننى بماء .

فقامت تعثر في ثوبها من الحياء فأثته بقعب يبه ماء ، فأخذ رسول

الله — ﷺ — ثم قال لها :

— تقلمي .

فتقدمت يموح منها عطر طيب فقد أمر رسول الله — ﷺ — بلالا

بأن يشتري طيبا بثلاث الصداق ، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال :

— اللهم إني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

ثم قال :

— اتنوني بماء .

فعلم على الذي يريد فقام ومأ القعب فأثاه به ، فأخذته وصنع به

كما صنع بفاطمة ودعا له بما دعا لها به ثم قال :

— اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك بهما في شملهما .

وتلا المعوذتين ثم قال :

— ادخل بأهلك باسم الله والبركة .

ومكث ﷺ ثلاثة أيام لا يدخل على فاطمة ، وفي اليوم الرابع دخل

عليهما في عداة باردة وهما في قطيفة لهما إذا جملاها بالطول انكشفت

ظهورهما وإذا جملاها بالعرض انكشفت رموسهما ، فلما رأياهما

بالنهوض فقال لهما :

— كما أنتما .

وجلس عند رأسهما ثم أدخل قدميه وساقيه بينهما ، فأخذ على كرم

الله وجهه إحداهما فوضعتها على صدره و بطنه ليدفعها ، وأخذت فاطمة رضى الله عنها الأخرى فوضعتها كذلك . وراح على بن أبى طالب الذى لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره يصعى إلى رسول الله ﷺ — ويتلقى منه الحكمة ليقول ذات يوم :

— لا يحافن أحد إلا دبه ، ولا يرجو إلا ربه . ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم ، ولا من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم . ما أبردها عني الكبد إذا سئلت عما لا أعلم ، أن أقول الله أعلم .

سيطر رسول الله ﷺ — على طرق تجارة قريش المتجهة إلى الشام والعراق وأصبح يهدد الطريق إلى نجد بعد انتصاره الساحق في بدر ، وقد أحس المكيون خطورة تحكم رسول الله ﷺ في طرق قوافلهم المتجهة إلى الشمال منذ أن لحقت بهم الهزيمة فرأوا أن لا مناص من حيلة ثانية مع المسلمين لوضع حد لذلك الموقف الخطير إن أرادوا ألا تحسق مكة اقتصاديا ، فما إن رجع من حصر بدر من المشركين إلى مكة ووجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار البدوة لم يحركها أبو سفيان ولم يفرقها لغية أهل العير ، حتى مشت أشراف قريش إلى أبي سفيان : الأسود بن عبد المطلب بن أسد وجبير بن مطعم وصهوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة وحويطب بن عبد العزى فقالوا :

— يا أبا سفيان انظر هذه العير التي قدمت بها فاحتبسها فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش ، وهم طيور الأنفس يجهرون بهذه العير حيشا كشيئا إني محمد ، فقد ترى من قتل من آبائنا وأبنائنا وعشائرتنا .

فقال أبو سفيان :

— وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟

— نعم .

— فأنا نون من أجب إلى ذلك ومو عيد مناف معي ، فأنا والله الموتور والثائر وقد قتل ابني حفظة بيدر وأشراف تومي .
ولم يعجب ذلك القرار بعض أصحاب الأموال في القافلة فدار حوار بين الناس انتهى بأن قالوا :
— بع العير ثم اعزل أرباحها .

كانت ألف بعير وكان المال خمسين ألف دينار وكانوا يربحون في تجارتهم للديار ديناراً ، فعزل أبو سفيان الأرباح وأعاد إلى الناس رءوس أموالهم ، وحبس عير بني زهرة لأنهم رجعوا من طريق بدر ، وسلم ما كان لمحرمته من نوفل ولبنى أبيه وبني عيد مناف بن زهرة ، فأبى محرمته أن يقبل عيره حتى يسلم إلى بني زهرة جميعاً ، وتكلم الأخص فقال :

— وما لعير بني زهرة من بين عيرات قريش ؟
قال أبو سفيان :

— لأنهم رجعوا عن قريش .

— أنت أرسلت إلى قريش أن يرجعوا فقد أحررنا العير لا تخرجوا هي غير شيء فرجعنا . فآخذت بو زهرة عيره وأخذ أقوام من أهل مكة أهل صعب لا عشائر لهم ولا معة كل ما كان لهم في العير ، وعزل أبو سفيان أرباح القافلة وراح يبعها في التَّهَب لعزو المدينة ليقضى على محمد وأبصاره بأمنياً لطريق القوافل إلى الشام والعراق .

وكانت قريش تعتمد على تأييد القبائل القريبة من المدينة ، بنى سبعم في الجنوب وعصفان في الشرق . وكان رسول الله ﷺ — يعلم ما بين قريش وسليم من ود محشي أد تتحرك سبعم عقب هزيمة قريش

في بدر وتدهم المدينة ثأرا لحلفائهم سادات قريش الذين تحرعوا
عصص الموت ، فما إن قدم رسول الله ﷺ — المدينة من بدر ولما
يقص إلا سب ليل حرج ليعرو نفسه بى سليم ، واستعمل على
المدينة سباع بن عرفة العماري ودفع إلى على بن أبى طالب لواءه
وكان أبيض ، ثم تقدم بالمسلمين حتى بيع ماء من مياههم يقال له الكدر ،
فأقام على ذلك ثلاث ليل وقد علمت بى سليم بذلك فم يحركوا
ساكنوا وآثروا السلامة ، فرجع إلى المدينة بعد أن ألقى الرعب في قلوب
أعدائه ، وحذر بى سليم وعطفا تحديرا عميا أن أى حركة عدائية
ستقابل بالردع الشديد .

وورمت أبوف اليهود بعد انتصار المسلمين في بدر وأكل الحسد
أكبادهم ، فرأوا أن يعملوا على توهين المسلمين على الرغم من
المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ — بين المهاجرين والأنصار
واليهود . والتي تعاهدوا فيها أن يكونوا يدا واحدة على أعدائهم ، فلا
كعب بن الأشرف بمكة يرثي قتلى قريش ويحرضهم على الثأر .
وأحد اليهود في الأسواق يعملون جاهدين على تقبيل شأن انتصار
لمسلمين في بدر ويحاولون تحريك الأحقاد التي كانت بين الأوس
والخزرج والتي نجح الإسلام في احتثائها من أساسها .

وقامت مشكلات بين المسلمين من المهاجرين والأنصار وبين
المسلمين واليهود حول توزيع المياه كان رسول الله ﷺ يفصل فيها
بحكمته . فلما اختصم إليه في مهروز وادى بى قريظة قضى أن الماء
إلى الكعبين لا يحس الأعلى على الأسفل . وحدث أن حاصم رجل
من الأنصار الزبير بن العوام في شرح من شروح الحرة فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم :

— اشرب يا زبير ثم خل سبيل الماء .

قصي عليه السلام بأن يروى الربير أرضه ثم يدع انماء للأنصارى فإذا بالأنصارى يقول :

— العذل يا رسول الله وإن كان ابن عمك .

فتغير وجه رسول الله ﷺ — حتى عرف أن قد ساء ما قال ، فقال :

— يا ربير احبس الماء حتى يبلع الكعبين ثم خل سبيل الماء .

كانت قريش تنهب لشب على المسممين من الخارج ، وكان اليهود يتربصون بهم ليطلعوهم من الداخل ، وكان المسافقون وقد عميت قلوبهم اتى في صدورهم يودون أن تكون الدائرة على المسلمين . وكانت بعض خلافت تشب بين الأنصار والمهاجرين كان عليه السلام يعمل على إطفائها سريعا ليتفرغ للحظر الخارجي حتى لا يدهم المدينة فجأة ، وللحظر الداخلي الذي يتحفر للتحرك في أية لحظة .

كان الحو مشحونا بالحظر وكانت العداوة قد بدعت دروتها بين مكة والمدينة ، ولكن الأنصار كانوا يرون أن هذه العداوة لن تحول دون خروج المدنيين معتمريين إلى البيت العتيق ، فالحمد بقريش ألا يعرضوا الحاج ولا معتمر إلا بحير . فبينا كان سعد بن العمان بن أكياال أحو بني عمرو بن عوف في عنم له في القيع ، إذ خرج من هناك معتمرا ومعه امرأة له .

كان سعد شبيحا قد هوى فؤاده إلى الحرم فانطلق هو وامرأته وفي

صدريهما بشوة روحية عامرة ، فلما أتيا الكعبة طفقا يطوفان بها وقد
 برل بهما من وسلام . وفيما هما عارقان في مناجاة ربهما إذا بأبي
 سفيان يعدو على سعد ويحسه بابه عمرو الذي كان في يد رسول الله
 — ﷺ — وأبى أن يفديه .

وارتفعت أصوات استنكار ما لبثت أن أحمدت ، فأمر عمرو بن أبي
 سفيان كانت بنت عقبة بن أبي معيط من قتله محمد عليه السلام صبورا ،
 فعدت تؤيد أبا سفيان فيما فعل ، وكذلك كانت روجه هند بنت عتبة
 وكل الموتورين .

وقال أبو سفيان :

أرھط ابن أکیال أجیبوا دعاءه

تعاقدتم لا نسلموا السيد الکھلا

فإن بنی عمرو لثام أذلة

لئن لم یمکوا عن أسیرهم الکھلا

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

لو کان سعد يوم مكة مطلقا

لأکثر فیکم قبل أن یؤسر القتلا

بعضب حسام أو بصمراء بعة

نحن إذا ما أنبضت تحفز النبلا^(١)

وتریث بنو عمرو بن عوف لعل الحمس من أهل الحرم یستکرون

(١) العصب : السیف المقاطع . الصمراء : القوس . والبع : شحر تصع منه
 القسی وتحس . أى یصوت وترها . والأنباص . أن یحرك وتر القوس . وتحفز
 السبل : أى تقذف به وترمیه .

فعلة أبي سفيان ، ولكن الوقت يمر والشبح محسوس في مكة وأبو
سفيان مصر عبي أن لا يطلق سراحه قبل أن يحلّي المسلمون سبيل ابنه
عمرو . فمشوا إلى رسول الله — ﷺ — وسألوه أن يعطيهم عمرو بن
أبي سفيان فيفكوا به صاحبهم ، ولما كان رسول الله عليه السلام لا
يسأله سائل عن شيء إلا أعطاه إياه ، فقد دفع إليهم بعمره فذهبوا به إلى
أبي سفيان ، فحلّي سبي سعد بعد أن أهدر حرمة الحرم الذي كان
آمنا .

أسلم عبد الله بن أبي بن سلول لما وجد أن قومه قد أسلموا جميعاً ولكن مرض قلبه لم يبرأ ، فقد كان يحقد في دفيه نفسه على نبي الإسلام والمسلمين ، فلم ينس أبداً أن هجرة رسول الله ﷺ — إلى المدينة قد حرمته التاج الذي كاد الأوس والخزرج أن يضعوه فوق رأسه .

وكان حليفاً لبني قينقاع وكانوا أشهر قوم من اليهود وأشجع يهود ، وكانوا صاغرة فعداً يمضي بعض الوقت في حواشيتهم يشاركونهم في الاستهزاء برسول الله عليه السلام وبالمسلمين . وقد كانت المرارة تفرق على شفتيه بعد انتصار المسلمين على قريش في بدر ، ولولا حماقه لخرج إلى قريش كما خرج كعب بن الأشرف ورثي قتلى بدر بأحر الدموع .

وكان بنو قينقاع أول من نبذ العهد فقد عاهدهم رسول الله ﷺ — وعاهد بنى قريظة وبنى النضير على أن ينصروه على من دهمه من عدوه ، فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي وأعلنوا على الملأ بأفعالهم وصحريتهم من المسلمين نبذهم العهد .

جاءت امرأة من العرب بإبل وأغنام فباعتها بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ منهم ، فجعل جماعة من اليهود يراودونها عن كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعمده إلى

(عزوة بدر)

طهرها وهي لا تشعر ، فلما قامت انكشفت سوءتها فصحكوا منها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه . فاستصرح أهل المسم المسلمين عني اليهود فغضب المسلمون وأطبت الحرب بحظهما ورأى رسول الله — ﷺ — قبل أن يعدها حربا على ليهود أن يستغف كل وسائل السلام فجمع أصحابه وعبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي بن سلول فقد كانا حليين لى قيقاع ، وقال — ﷺ — :

— ما على هذا أقرر باهم .

فقال عبادة بن الصامت :

— يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء

الكفار .

تبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم وتشت به عبد الله بن أبي بن سلول ، فأمر الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْدُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . فترى الدين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا هؤلاء الدين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَحَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هِيَ الْغَالِبُونَ ﴿١﴾ .

وجمع رسول الله عليه السلام بنى قبيقاع وقال لهم :
— يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما أنزل يقرئش من القصة
وأسلموا ، فإنكم عرفتم أئى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله
تعالى إليكم .

فقالوا مستهزئين :

— يا محمد إنك ترى أنا قومك ولا يفرنك أنك لقيت قوما لا علم
لهم بالحرب فأصبت لهم فرصة ، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن
الناس .

واتخذوا المسلمين هزوا وطفقوا يقولون صاحكين إن محمدا يظننا
أنا مثل قومه ، والله لو قاتلنا ليعلمن أنه لم يقاتل مثلاً . وقد عرهم أنهم
أشجع اليهود وأكثرهم أموالاً وأشدهم بغياً . فأُنزل الله تعالى : ﴿ قل
لذين كفروا ستعلبون وتحشرون إلى جهنم ونفس المهاد * قد كان
لكم آية فى فتية التقتا فقتل فى سبيل الله وأحرى كافرة يرونهم
مثليهم رأى العين والله يؤيد نصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى
الأبصار ﴾ (٢) . وأُنزل تعالى : ﴿ وإما تحافرون قوم خيانة فابذ
إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين * ولا يحسن الذين كفروا
سبقوا لأنهم لا يمجزون * وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط
الحيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله

(٢) آل عمران ١٢ — ١٣

(١) المائدة ٥١ — ٥٦

يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴿١﴾ .

وتحصن بنو قينقاع في حصونهم بعد أن أبو أن يحصروا لنسبهم ، فسار إليهم رسول الله — ﷺ — ولواؤه الأبيص بيد عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله الذي ينزل الرعب في قلوب أعداء الله الذين يريدون أن يطفئوا نور الله جاھدين ، واستخلف — ﷺ — على المدينة أبا لبابة وضرب حصارا على حصون اليهود .

كان الشهر شوال وكان القمر بدرا وكان اليهود يطلون من الحصون فيرون المسلمين وقد اتفوا بالحصون كالأسود فتتحلج أفدتهم من الرعب ، ويتذكرون ما نال صايد قريش في بدر ، قتل الفرسان وأسر الشجعان وهرب على رجليه سادات الناس : فحكيم بن حزام أطلق ساقه للريح ، وفارس الفرسان عمرو بن عبد ود نجا هاربا على قدميه وهو شيخ كبير ، وخرج من المعركة حريحا فوصل إلى مكة وهو مشرف على الهلاك . وطفقت أشاح معركة بدر تتحائل لهم فتص في عضدهم وتضعف من روحهم وترلزل الأرض تحت أقدامهم وتجعل أفدتهم هواء .

وانقضت خمس عشرة ليلة وهو قينقاع في حصونهم قد قذف الله الرعب في قلوبهم ، كانوا أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع وكانوا قادرين على القتال ولكنهم آثروا السلامة ورأوا أن يسلموا قبل التقاء الجيشين ، فسألوا رسول الله — ﷺ — أن يخلي سبيلهم وأن يجلو من المدينة وأن لهم نساءهم والدرية وله — ﷺ — الأموال

والسلاح .

ونزلت بنو قينقاع فأمر رسول الله ﷺ — أن يكتفوا فكتفوا ،
فكلمه فيهم عبد الله بن أبي بن سلول وألح عليه فقال :
— يا محمد أحسن في موالى .

فأعرض عنه — ﷺ — فأدخل يده في جيب درع رسول الله —
ﷺ — من خلفه ، فقال له عليه السلام :
— ويحك أرسلنى .

وغضب رسول الله — ﷺ — حتى رأوا لوجهه سمره لشدة
غضبه ، ثم قال :
— ويحك أرسلنى .

— والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى فإنهم عترنى وأنا امرؤ
أخشى الدوائر .
— خذهم لا بارك الله لك فيهم .

وأمر — ﷺ — أن يجلوا من المدينة ووكل بإجلاتهم عبادة بن
الصامت وأمهلهم ثلاثة أيام .

وجاء ابن أبي بن سلول إلى منزله — ﷺ — يسأله فى إقرارهم
فحجب عنه ، فأراد الدخول فدفعه بعض الصحابة فصدم وجهه
الحائط فشجه فانصرف مغضبا .

وانقضت الأيام الثلاثة فجاءوا إلى عبادة بن الصامت فسألوه أن
يمهلهم فوق الثلاث ، فقال :
— لا ولا ساعة واحدة .
وبلغهم ما نال أبى بن سلول (أبو الحباب) على أيدي صحابة

رسول الله عليه السلام فقلوا :

— لا نمكث ببلد يفعل فيه بأبي الحباب هذا ولا نتصر له .

وخرجوا أذلة من المدينة ليذهبوا إلى أفرعات بالشام .

وكانت أموالهم هيأ الله ورسوله لأنها لم تحصل بقتال ، ولكن

رسول الله عليه السلام قسمها بينه وبين المسلمين فكان له الخمس

ولأصحابه الأربعة الأخماس . وراح يوزع الخمس على ذوى القربى

واليتامى والمساكين وابن السبيل ليعود إلى منزله وليس معه منها بيضاء

ولا صفراء .

قريش تنأهب لثأر ليوم بدر ، واليهود هي قلب المدينة يتأمرؤن على المسميين ، والمفاقون يسوؤهم أن تمس المؤمنين حسنة ويفرحون إن أصابتهم سيئة ، والقرآن ينزل من السماء يجادل الكافرين ويتوعد أهل الكتاب ويكشف المنافقين ويشرع للبشر بين لهم طريق الحلال وطريق الحرام ويهديهم إلى صراط مستقيم .
وجاء عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه إلى النبي ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إن قوما من قريظة والضرر قد هاجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا ، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل .

إن قومهم لما رأوهم آمنوا بالله ورسوله وصدقوه رفضوهم وآلوا على أنفسهم ألا يجالسوهم ولا يناكحوهم ولا يكلموهم ، فشق ذلك عليهم فأنزل الله فيهم : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (١) .

وكان رسول الله ﷺ — يحذر اليهود بعد ما بدت العدواة من بني قينقاع ويرى أنهم أهل مكر وحداغ ، وقد سرق رجل من الأنصار

يقال له طعمة بن أبيرق أحد بنى ظفر بن الحارث درعا من جابر له يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من حرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق ، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين ، فالتصت الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم :

— والله ما أخذتها وما لي بها من علم .

فقال أصحاب الدرع :

— بلى والله أدلج عليها فأخذها وطلبنا أثره حتى دخل داره فرأينا أثر

الدقيق .

فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه ، فقال :

— دفعها إلى طعمة بن أبيرق .

وشهد له أناس من اليهود على ذلك فقال بنو ظفر وهم قوم طعمة :

— انطلقوا بنا إلى رسول الله — ﷺ .

فكلموه في ذلك فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا :

— إن لم تفعل هلك صاحبنا وانفضح وبرىء اليهودي .

فهم رسول الله — ﷺ — أن يفعل وكان هواه معهم وأن يعاقب

اليهود ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ

بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنِ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ . واستغفر الله إن الله

كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا

يحب من كان خوانا أيما . يستحفون من الناس ولا يستحفون من الله

وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون

محيطا * ما أتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا * ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما * ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما * ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتاننا وإثما مبينا * ولولا فضل الله عليك ورحمته لهت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأُنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما * لا حير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما * ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نو له ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا * إنا الله لا يغفر أن يشرك به ويعمر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴿١﴾ .

وكان اليهود يمججون في المجتمع المدني يمشون بالأراجيف ويهمسون في آذان حلفائهم من الأنصار بأقوال مسمومة لعلها تنال من ذلك الولاء العجيب لرسول الله — ﷺ — ، جاء جماعة من اليهود إلى رجال من الأنصار يخالطونهم فقالوا لهم :

— لا تنفقوا أموالكم فإننا نخشى عليكم الفقر .

وقبل أن يستقر ذلك الوهم في النفوس المؤمنة أنزل الله تعالى :

﴿ الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من

فصله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا * والذين يعقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا * ومادا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما * إن الله لا يطلعكم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما * فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا ﴿١﴾ .

وآمن عبد الله بن سلام وأصحابه بالنبي — ﷺ — فأمنوا بشرائعه وشرائع موسى ، فعظموا السبوت وكرهوا لحمان الإبل وألبانها بعد ما أسلموا ، فأنكر ذلك عليهم المسلمون فقالوا : — إنا نقوى على هذا وهذا .

وقالوا للنبي — ﷺ — :

— إن التوراة كتاب الله فدعنا نعمل بها

فأنزله الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ رَدْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢)

وكان رجال من قريش يأتون إلى رسول الله ﷺ في المدينة يعطونه

من طرف اللسان حلاوة وإن كانت قلوبهم تقيض بالحقد ، وقد أقبل إلى النبي عليه السلام الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة من عاد بالناس يوم بدر ، وغدا يتحدث حديثا عذبا حتى قال :
— إنما جئت أريد الإسلام والله يعلم إنى لصادق .

وأعجب النبي — ﷺ — حديثه فغدا يقبل عليه ويلو عليه ما أنزل من القرآن ، ثم حرج من عند رسول الله — ﷺ — ليعود لمكة فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر . فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهدي ﴿ (١) .

وكانت القوافل تأتي إلى المدينة من الشام فتزول في أسواقها تبيع الخمور وتشتري التمر ، وكان المسلمون يشترون خمور الشام فما كانت الخمر قد حرمت بعد ، وقد صنع عبد الرحمن بن عوف طعاما ودعا أناسا من أصحاب رسول الله — ﷺ — فطعموا وشربوا . وحضرت صلاة المغرب فتقدم بعض القوم فصلى بهم المغرب فقرا : قل يا أيها الكافرون . فلم يقمها . فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ (٢) .

وكان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان فتصبرا قبل أن يبعث النبي — ﷺ — وخرجا مع تجار الشام الذين جاءوا يحملون

الزيت ، وكانا يؤمان المدينة كل عام مع التجار فرأهما أبوهما ففرهما
وقال :

— والله لا أدعكما حتى تسلما .

فأبيا أن يسلما فاختصموا إلى النبي — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فسمن
يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها
والله سميع عليم ﴾ (١) .

فخلى الرجل سبيلهما وهو حزين .

وكان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله
امرأة جاء ابنه من غيرها أو قرابته من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة
فصار أحق بها من نفسها ومن غيره ، وإن شاء أن يتزوجها تزوجها بغير
صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت ، وإن شاء زوجها من غيره
وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها وضربها لتفتدى منه بما
ورثت من الميت أو تموت هي ميرثها ، توفي أبو قيس بن الأسلت
الأنصاري وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية ، فقام ابن له من
غيرها اسمه عيس بن أبي قيس فطرح ثوبه عليها ، فورث نكاحها ثم
تركها فلم يقر بها يضارها لتفتدى منه بمالها ، فأتت كبيشة إلى رسول
الله — ﷺ — فقالت :

— يا رسول الله إن أبا قيس توفي وورث ابنه نكاحي وقد أضرتني

وطول عني ، فلا هو يفتق على ولا يدخل بي ولا هو يحلى سبيلي .
فقال لها رسول الله ﷺ :

— اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله .

فانصرفت وسمعت بذلك النساء فى المدينة فأتين رسول الله عليه
السلام وقلن :

— ما نحن إلا كهيفة كبيشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء ونكحنا بنو
العم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ
كُرْهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ
مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا
وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۖ وَإِنْ أَردْتُمْ اسْتِبْدَالَ رَوْحٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ
إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتَانَا وَهَتَانَا وَمَيْمَنًا * وَكَيْفَ
تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * وَلَا
تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ (١) .

وتوفى أوس بن ثابت الأنصارى وترك امرأة يقال لها أم كحة وثلاث
بنات له منها . فقام رجلان هما أبا عم الميت ووصياه يقل لهما سويد
وعرفجة فأخذوا ماله ولم يعطيا امرأته شيئا ولا بناته ، وكانوا من الجاهلية
لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرا ، إنما يورثون الرجال
الكبار وكانوا يقولون :

— لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الحيل وحاز العيمة .

فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت :

— يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك عبي بات وأنا امرأة وليس عدى ما أعتق عليهن ، وقد ترك أبوهن مالا حسنا وهو عبد سويد وعرفجة لم يعطيني ولا بياته من المال شيئا وهن فى حجرى ، ولا يطعماني ولا يسقياني ولا يرفعان لهن رأسا .

فدعاهما رسول الله ﷺ — فقالا :

— يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا يركب عدوا .

فقال رسول الله ﷺ :

— انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن .

فانصرفوا فأنزل الله تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ۚ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا ۚ وليحش الذين بوتركوا من حلهم ذرية ضعافا حافوا عليهم فليتقوا الله ولبقولوا قولا مديدا ۝ (١) ۚ

ولما أنزل الله تعالى على رسوله : ﴿ الله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير ۝ (٢) ۚ اشتد ذلك

على أصحاب رسول الله — ﷺ — ودخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من قبل ، فجاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وناس من الأنصار إلى النبي — ﷺ — فحشوا على الركب وقالوا :

— يا رسول الله والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية . إن أحدا لم يحدث بمسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه وأن له الدنيا وما فيها ، وإننا لمؤاخذون بما يحدث به أنفسنا هلكنا والله .

فقال النبي — ﷺ — :

— هكذا أنزلت .

فقالوا :

— هلكنا وكفينا من العمل ما لا نطبق .

— فنعلمكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى : سمعنا وعصينا ،

قولوا : سمعنا وأطعنا .

— سمعنا وأطعنا .

واشتد ذلك عليهم وأنزل الله تعالى على بيته : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (١) .

ومكثوا حولا وهم في شدة يتدربون على تهذيب نفوسهم حتى لا توسوس في صدورهم بما يكرهون أن يسيحوا به ويعلموه على الملأ .

حتى أرل الله الفرح والراحة بقوته . ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها
لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن سبنا أو أخطأنا ربنا
ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الدين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما
لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على
القوم الكافرين ﴾ (١) .

٢ (١) البقرة ٢٨٦ .

جلس أبو سفيان في الحرم بأسر الوجه مقطب الجبين فهو قد نذر يوم أصاب قريشا في بدر ما أصابها أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ، وها هي ذى الأيام تمر وقد اعتزل نساءه ولم يبر قسمه ، فغدا يفكر فيما يفعله ليمر يمينه التي انتشرت في مكة انتشار الريح .
وراح أبو سفيان يستعيد تلك الأيام التي كان فيها رسول الله ﷺ — بين ظهرانيهم في مكة ، فإنه كان لا يسمع أحد كلامه إلا أحبه ومال إليه ، وكان الوليد بن المغيرة يحب أن يحلس إليه ويلقى إليه سمعه حتى قال أعداء ابن عبد الله :

— نحاف أن يصبو الوليد بن المغيرة إلى دين محمد ، ولئن صبا الوليد وهو ريحانة قريش لتصبون قريش بأجمعها .
ورن في أغوار أبي سفيان ما كان يقول الناس :

— ما كلامه إلا السحر .. إنه ليفعل بالألياب فوق ما تفعل الحمر .
ورأى سادات قريش وهم ينهون صبيانهم عن الجلوس إليه لئلا يستميلهم بكلامه وشماله ، فلوى شعثه السفلى في مرارة وسخرية ، فما نفع الأبياء ذلك التحذير ، بل لكأنما كان إغراء لهم على أن يرتدوا في أحضان دعوته ، سحرهم حتى هان عليهم فراق الأهل فهاجروا إلى الحبشة ثم المدينة .

وتذكر ابنته أم حبيبة ، إنها خرجت بعد أن أسلمت مع زوجها عبيد

الله بن حش إلى الحبشة وتركه وفصلت عليه إله محمد ودين محمد ، ولكن روحها ما لبث أن ارتد إلى النصرانية وعدا يقول لأصحاب محمد : أبصروا وأتم تلتمسون النصر ولم تبصروا بعد . فلماذا لم يززع ارتداد روحها عن دينه ثقتها في ذلك الدين الذي ابتدعه محمد ؟ ولماذا لم تعد إليه وهو سيد قريش تلتمس منه الصفح ؟ إنها لو عادت مرتدة عن دين الإسلام لرحب بها وغفر لها رلتها وتلك المهانة التي لطحت بها بى أمية جميعا يوم فرت بديها إلى الحبشة . ليت أم حبيبة تعود إليه الساعة معلنة توبتها مستغفرة عن صبرتها فإنها لو فعلت لقيت هزيمة قريش انتصارا ، وهى أحوج ما تكون إلى تأييد معنوى يعيد إليها ثقتها التي رعرعتها هزيمة بدر .

وأطرق برأسه كأنما يعلن هريمته ، فهو في عين ذاته يعلم أن أم حبيبة لن تعود إليه . إنه سيصحو من نومه ذات يوم لسمع أن ابنة قد هاجرت من الحبشة إلى حيث قد استقر المسلمون ، لكأنما قد استمرت مهانته والهزاء من بى عبد شمس .

وراح يسأل نفسه : ما الذى استهوى أم حبيبة في ذلك الدين ؟ وما لبث أن رأى بعين خياله رسول الله — ﷺ — وهو يصلى فى الحجر ويجهر بتلاوته والمشركون يحملون أصابعهم فى دأنهم خوفا أن يسحرهم ويستميلهم بقراءته أو يولون على أديارهم نفورا .

وخطر على ذهنه أبو بكر ، إنه كان تاجرا ناجحا من أثرياء مكة ، راجح العقل سيدا فى قومه ، فكيف آمن بما يدعو إليه محمد وكيف أنفق عن رضى كل أمواله فى سبيل تلك الدعوة ؟ وتحرك يحله فراح يسأل نفسه : أيرضى عن إنفاق أمواله كلها على العرى ؟ فإذا به يصرع

ويؤكد لنفسه أن ذلك ليس من العقل وأن محمدا قد سحر أتباعه ولا ريب !

وعجب في نفسه كيف يصدق أناس عقلاء أن الله يبعث بشرا رسولا . وراد عجبه لما تذكر أشراف قريش وهم يمشون إلى ابن عبد الله يعرضون عليه أن يملكوه عليهم وأن يترك دعوته التي تفرق بين الأهل فأبى عليهم ذلك . فماذا يريد محمد أكثر من أن يسود قومه ، أن يكون فيهم مثل كسرى وقيصر ؟

كانت آمال أبي سفيان أرضية فلم يكن يجد مجدا أعظم من أن يكون المرء سيد قومه ، شريفا مطاعا صاحب السلطة العليا الذي تتعلق مصائر الناس بكلمة ترفرف على شفتيه . وقد جاء الملك إلى محمد يسعى إليه وفتحت له حرائر قومه فماذا يريد من ديباه بعد ذلك الجاه والمال والسلطان ؟!

لو قبل محمد الملك لقوض كل أحلام أبي سفيان ، ولكن أبا سفيان تمنى صادقا وهو يجرى وراء أفكاره لو أن محمدا عليه السلام قد قبل الملك الذي عرض عليه ، فنار الحمد التي كانت سترعى في جوفه أهون من النار التي تأكل أحشائه لقتل حنظلة وصناديد الرجال ، ولكن الأيام جاءت بما لا يشتهي أبو سفيان فقد آس الأوس والخزرج بدعوة محمد فأصبحت المدينة خطرا يهدد تجارة مكة ويسر بيوت المال فيها بالكساد . وقد وقع المحطور يوم بدر وأصبح طريق قواهل قريش إلى عزة في قبضة المسلمين وطريقها إلى العراق غير مأمور ، بل طريقها إلى نجد محفوا بالأحطار . وقد أراد محمد أن يؤكد سلطانه على المنطقة مخرج إلى بى سليم وإلى غطفان حماء قريش في أصحابه ،

فآثرت بهو سليم وغطفان السلامة فانسحب الرجال إلى منازلهم تاركين
 عند مياههم جيش المسلمين المظفر بهما بالصبر في أمان .
 إن أبا سفيان قد أقسم يوم أن جاءت أنباء قتلى بدر ألا يمس النساء
 والطيب حتى يغزو محمدا ، فحرح في مائتي راكب من قريش ليبر
 يمينه حتى نزل بمحل بينه وبين المدينة نحو بريد ، ثم انطلق إلى خيبر
 وأتى بني النضير تحت الليل فأتى حتى بن أخطب وضرب عليه يابه
 فأبى أن يفتح له .

كان حتى بن أخطب قد عزم على عداوة محمد عليه السلام منذ أن
 وطئت قدما رسول الله ﷺ — أرض يثرب ، وكان وأخوه أبو ياسر
 ابن أخطب من أشد يهود العرب حسدا وكانا جاهدين في رد الناس عن
 الإسلام بما استطاعا . فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ ود كثير من أهل
 الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من
 بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على
 كل شيء قدير ﴾ (١) . وكانا مع نفر من يهود يأتون رجالا من الأنصار
 كانوا يخالطونهم يتصحون لهم من أصحاب رسول الله ﷺ —
 فيقولون لهم :

— لا تنفخوا أموالكم فإننا نحشى عليكم المقر في دهايبها ، ولا
 تسارعوا في الفقة فإنكم لا تدرون علام يكون . فأنزل الله فيهم :
 ﴿ الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من
 فضله واعتدنا لنكاثرين عدابا مهيبا ﴾ (٢) .

كان حبي بن أخطب من أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ — ولكنه أبى أن يفتح بابه لأبي سفيان ، فقد تذكر ما حاق ببني قينقاع لما بقضوا عهد محمد ، إنه حاصرهم في حصونهم وآطامهم حتى اضطروا إلى التسليم . ولولا عبد الله بن أبي بن سلول لضرب محمد أعناقهم ، فاقشعر جلد حبي وكره أن يكون بقمة على قومه فهان عليه أن يفلق بابه في وجه سيد قريش .

وانسل أبو سفيان في جنح الليل إلى سلام بن مشكم سيد بني اضبير ، إنه صاحب كثرهم فهو الذي تودع عنده حليهم ، ولطالما حاء إليه سفيان يستعير منه الحلي لأهل مكة لقاء بعض المال . فاستأذن عليه فأذن له واجتمع به وراح يقص عليه أنه جاء في مائتي راكب من قومه ليغزو محمدا ، فدعاه سلام إلى الطعام والشراب وراح يقص عليه خبر الناس ، ولم يستطع أن يعده بمد يد العون لرجاله إذا ما دهموا المسلمين فما حاق ببني قينقاع كان مائلا أمام عيبه .

وخرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالا من قريش إلى المدينة ، فأتوا ناحية بها يقال لها العريض فحرقوا نخلا فيها ووجدوا بها رجلا من الأنصار وحليفا له في حرث لهما فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين .

وبلغ رسول الله ﷺ — ما فعلت قريش فاستعمل على المدينة بشير ابن عبد المندر وخرج رسول الله عليه السلام في طلبهم في مائتين من المهاجرين والأنصار . وخاف أبو سفيان وأصحابه أن يلحق بهم الذين خرجوا في طلبهم فجعلوا يتخفمون بإلقاء أزوادهم وكان أكثر ما طرح القوم جرب السوق ، فأخذهم المسلمون ثم عادوا إلى المدينة بعد

خمسة أيام .

وراح أبو سفيان يقول :

وإني تحيرت المدينة واحدا
سقاى فرواى كميننا مدامة
ولما تولى الجيش قلت ولم أكر
تأمل فإن القوم سر وإنهم
لحنف فلم أندم ولم أتلوم
على عجل مى سلام بى مشكم
لأفرحه : أبشر بعمر ومغنم

صريح لوى لا شماطيٲ (١)

وما كان إلا بعض ليلة راكب
أتى ساعيا من غير خلّة معدم
وداع أمر غزوة السويق فى اقبائل فأصبح أبو سفيان سحرية القوم
ومادة التندر فى بواديههم ، فقد افعل غزوة ليبر يمينه ويحدع نفسه حتى
يمس النساء والطيب دون أن يحشى فى ذلك لومة لائم !

(١) شماطيٲ : محتطون .

خرج أمية بن أبي الصلت من الشام قاصدا مكة ، فإذا به يعيش
صوال الطريق مع ذكريات الأيام فيرى نفسه تارة وهو يخرج مع أبي
سفيان بن حرب إلى بلاد فارس وتارة وهما ينطلقان إلى دمشق ، فقد
كانا حليفين قلما يفترقان .

ومرت القافلة بصومعة راهب فإذا بالذكريات تتشال على رأسه ، إنه
اعتنق النصرانية منذ الشاب وقرأ في كتبها أن بيا عربيا يعث وقال له
الربها أن قد أظلم زمانه ، فكان يطمع في أن يكون ذلك النبي وسرعان
ما رأى نفسه بين نساء ثقيف يحدثهن عن ذلك النبي وأنه هو ، فأحس
وهو على ظهر راحته عرق الخجل يتصب على وجهه ويبلل لحيته .
ورن في أغواره ذلك الحديث الذي دار بينه وبين أبي سفيان ذات
يوم ، إنه حديث قد حفر في عين ذاته يتردد في نفسه بين آن وآن لكانما
قد صار نشيد حياته :

— هيا صخر .

— ما نشاء ؟

— حدثني عن عتبة بن ربيعة ، أيجتب المقاليم والمحارم ؟

— إى والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

— إى والله .

— وكريم الطرفين وسط في المشيرة ؟

— نعم .

— فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

— لا والله لا أعلم .

— أمحوج هو ؟

— لا ، بل هو ذو مال كثير .

— وكم أتى عليه من السن ؟

— قد راد على المائة .

— فالشرف والسن والمال أزرين به .

— ولم ذلك يرى به ؟ لا والله بل يزيده خيرا .

— هو داك .

وطعا على سطح ذهبه الحديث الذي دار بينه وبين العالم النصراني الذي كان قد دخل عليه ، ذلك الحديث الذي كان سبب الحوار الدائر بينه وبين أبي سفيان .

— أخيرني عن هذا السبي الذي ينتظر .

— هو رجل من العرب .

— قد علمت أنه من العرب ، فمن أي العرب ؟

— من أهل بيت يحجه العرب .

— وفيما بيت تحجه العرب .

— هو من إخوانكم من قريش .

وكان أمية ثقفيا وكان البيت الذي تحجه العرب هي الطوائف هو اللات . فلما ابعث من أعوار نفسه صوت العالم النصراني محددا قريش

أصابه شيء ما أصابه مثله قط ، وخرج من يده نور الدنيا والآخرة .
— فصفه لى .

— رحل شاب حين دخل إلى الكهولة ، بدو أمره يحسب المظالم
والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصحتها ، وهو محوح كريم الطرفين
متوسط في العشيرة أكثر جنده من الملائكة .

ورأى أبا سفيان بن حرب يدخل عليه وهو في الطائف وإذا ما كان
بيهما من حوار في ذلك اليوم يدوى بين جبيه :

— هل تذكر قول النصراني ؟

— أذكره وقد كان .

— ومن ؟

— محمد بن عبد الله .

— ابن عبد المطلب ؟

— ابن عبد المطلب .

— والله يا أبا سفيان لعله . إن صفته لهى وليس طهر وأنا حى لأطلسن

من الله عز وجل فى نصره عذرا .

ثم رأى أبا سفيان وقد قفل راجعا من اليمن فإذا بصدى الحوار
يترجع فى نفسه :

— يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغت وسمعته

— قد كان لعمرى .

— فأين أنت منه يا أبا عثمان ؟

— والله ما كنت لأؤمن برسول من غير ثقب أبدا .

ومرت الثمانى المسين التى قضاهما فى البحرين فى ذهنه مرور الطيف

ورأى نفسه وهو يقدم الطائف فيقول :

— ما يقول محمد بن عبد الله ؟

— يرعم أنه نبي هو الذي كنت تمنى .

واحتل صفحة دمه خروجه حتى قدم عليه مكة فلقبه :

— يا بن عبد المطلب ما هذا الذي تقول ؟

— أقول إني رسول الله وأن لا إله إلا هو .

— إني أريد أن أكلمك فعدي عدا .

— فمعدك غذا .

— فتحب أن آتيك وحدي أو في جماعة من أصحابي وتأتي

وحدي أو في جماعة من أصحابك ؟

— أي ذلك شئت .

— فإني آتيك في جماعة فأب في جماعة .

وأرحى الليل سدوله واستمرت القافلة تغد السير في الظلمات يب

أضاءت نفس ابن أبي الصلت بالكريات ، فهو يرى هي وضوح نفسه

وهو يعدو في جماعة من قريش ورسول الله — ﷺ — يفدو معه نفر

من أصحابه حتى جلسوا في ظل الكعبة ، فبدأ يحطب ثم يسجع ثم

ينشد الشعر ثم يقول :

— أجبني يا بن عبد المطلب .

— ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * يس * والقرآن الحكيم * إنك

لمن أمرسلين * على صراط مستقيم * تزييل العرير الرحيم * تتدر قوم

أسر أبأؤهم فهم عافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا

جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من

بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * إنا نندر من اتبع الذكر وحشى الرحمن بالعيب فشوهه بمعصية وأجر كريم * إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴿١﴾ .

وسرى صوت رسول الله — ﷺ — فى وجدانه حتى أتى على السورة كلها وأمية بن أبى الصلت يرتحف فوق راحلته من الرأس إلى القدم ، إنه يحس نفس الإحساس الذى استولى عليه يوم أن سمع السورة فى مكة ، إلا أن صدره قد اشرح لها وهو يسرى فى معبد الله والله أقرب إليه من حبل الوريد .

إنه وثب يوم أن فرغ رسول الله — ﷺ — من تلاوة يس بحر رجليه فتبعته قريش يقولون :

— ما تقول يا أمية ؟

— أشهد أنه على الحق .

— هل تتبعه ؟

— حتى أنظر فى أمره .

إنه خرج إلى الشام وقدم رسول الله — ﷺ — المدينة ولم يستطع أن يفر من الحقيقة التى انبجحت فى سريرته ، إنه كان ينتظر بيا وقد بعث ذلك السى فحق عليه أن يؤمن به وإن كان يرجو أن يكون هو نفسه رسول الله . فراح يراود نفسه على أن ترضى بقضاء الله حتى إذا ما برأ قلبه من مرض الحسد خرج ليعلن على الملأ شهادة الحق التى كتبها

مذ أول يوم عرف فيه أن النبوة كانت في ابن عبد الله .
وانفعل بالذكريات فراح ينشد :

باتت همومي تسرى طوارفها

أكف عيني والدمع سابقها

أوت برّة سمع ناطقها ^(١)	مما أتاني من اليقين ولم
ار محيط بهم سراقها	أم من تلظى عليه واقدة النـ
أبرار مصفوفة سارقها	أم أسكن الجنة التي رعد الـ
أعمال لا تستوى طرائقها	لا يستوى المنزلان ثم ولا الـ
سة حفت بهم حدائقها	هما فريقان فرقة تدحل الجـ
ار فسائتهم مرافقها	وفرقة منهم قد أدخلت النـ
همت بخير عاقت عوائقها	تعاهدت هذه القلوب إذا
جنة دنيا الله ماحقها	وصدها للشقاء عن طلب الـ
يعلم أن البصير راققها	عبد دعا نفسه فعاتبها
تحيى قليلا فالموت لاحقها	ما رغب النفس في الحياة وإن
يوما على غرة يوافقها	يوشك من فر من نيتـه
للموت كأس والمرء ذائقها	إن لم تمت غبطة تمت هرما

ونزلت القافلة مياه بدر وأمة بن أبي الصلت يتحرق شوقا للقاء
رسول الله ﷺ ، ليشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وعدا
يتأهب للانطلاق إلى المدينة فقل قائل :

يا أبا الصلت ما تريد ؟

(١) برة علم جنس للمبرة .

ثم أغمى عليه إذ شفق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف فقال :
— لييكما لبيكما ، هأنذا لديكما ، بالنعم محفود ، وبالندب
محفود

ثم أغمى عليه إذ شفق شهقة فقال :
— لييكما لبيكما ، هأنذا لديكما .

إن تعفر اللهم تغفر حما وأى عهد لك لا ألما
ثم أغمى عليه إذ شفق شهقة فقال :
كل عيش وإن تطاول دهـرا مصائر مرة إلى أن يزولا
لبتقى كنت قبل ما قد بدا لى

فى قلال^(١) الجبال أرعى الوعولا
فاجعل الموت نصب عينيك واحذر

غولة الدهر إن للدهر غولا
بائلا ظفرها القساور^(٢) والصد

عان^(٣) والطفل فى المنار الشكلا
وبياث^(٤) البياث^(٥) واليعمر^(٦) لنا

فر والعوهج^(٧) البرام الضئلا

ومات أمية بن أبى الصلت شاعر النصرانية من كاد أن يسلم ، دون
أن يطقن لسانه بشهادة الحق وإن كان منها على يقين

(١) جمع معرده قلة - وهى أعلى الجبل . (٢) جمع قسورة وهو الأسد

(٣) والصدعان : ثيران الوحش (٤) البياث . الرحم

(٥) البياث : الجبال (٦) واليعمر : الغلبى

(٧) والعوهج : ولد العامة يعى أن الموت لا يسجو منه الوحوش فى البرارى ولا

الرحم الساكنة فى ربوس الجبال ولا يترك صغيرا لصعره ولا كبيرا لكبره .

كانت سليم فى شرق المدينة ومازل بنى سليم فى عالية نجد بالقرب من خير تمتد إلى جنوبى المدينة إلى منتصف المسافة تقريبا بينها وبين مكة من ذات عرق . وكانت ظروف الحياة تحتم تحالف القبائل لضمان أمنها فقاانون الصحراء بسود المنطقة ، القبائل القوية تتهم القبائل الضعيفة ، مراحت كل قبيلة تقوى نفسها بعقد محالفات مع غيرها فالحلف يقوم على أن ينصر الحليف حليفه وأن يمنع مما يمنع منه نفسه وأن يكون يدا معه على غيره .

وقد تحالفت سليم مع قريش ، فلما نشب القتال فى بدر بين المسلمين والمشركين وروت دماء سادات قريش أرض الصحراء ، أرادت سليم أن تتحرك لتتأثر لحلفائها . وقد أحس رسول الله ﷺ — ذلك فخرج يغزو بنفسه بنى سليم بعد عودته من بدر إلى المدينة بثمانية أيام ، وكانت حركته عليه السلام سريعة ألقت الرعب فى قلوب حلفاء أعدائه فانسحبوا إلى منازلهم وأغلقوا دورهم عليهم ، ونزل عليه السلام والذين معه على مياههم ومكث ثلاثة أيام لم يلق فيها كيذا ، ففعل راجعا إلى المدينة يرصد حركات القبائل المعادية التى تلتف حوله .

وراحت الحياة تسير على ماألوفها فى سليم ، الرجال يشنون الغارات على القوافل للمسطو والساء يقلن الماء فى الجرار إلى الدور

ويرعى الغم ويبدل عديته للتم . ولما كان القتل فى بدر قد استشرى فى سادات حلفائهم فقد وجد شعر الخساء صدى فى نفوسهم انتقل إلى مكة لتندب به الناديات .

كانت الخساء أشهر شخصية فى سليم وكانت تنوح على أخويها معاوية وصخر ، وسرعان ما تتلقف النائحات فى سليم وقريش شعرها لنواح به فى المناحات ، وكان ذلك الشعر يتسلل إلى المدينة وقد ينشده بعض ساء الأنصار والمهاجرين اللاتى فجعن فى الأعزة من الآباء والأخوات وفلذات الأكباد :

يا عين جوذى بالدمو	ع المستهلات السوافح
فيصا كما فاضت غرو	ب ^(١) المترعات من النواضح
وايكى لصحر إذ ثوى	يس الضريحة والصفائح
رما لدى حدث تذيع	بترسه هوح النوافح
السيد الجحججاج وابن	السادة الشم الجحججاج
الحامل الثقل المهم	من الملمات الفوادح
الجابر العظم الكسير	من المباصر والممانع
الواهب المائسة اهجا	ن من الخناذيد ^(٢) السوابح
الغافر الذنب العظيم	لذى القرابة والممالح
بتعمد منه وحلم	حين يغى الحلم راجح

(١) الغروب جمع غرب وهو الدلو

(٢) الخناذيد : الفحل

داك الـدى كنا به	شغى العراض من الحوانح
ويرد بسادرة العدو	ونحوه الشف ^(١) المكاشح
فأصابا ريب الرما	ن فأننا منه باطح
فكأنما أم الزمما	ن محورنا بمدى الدبائح
فمنافنا يدبر نسو	حا بعد هادية النوائح
يحنن بعد كرى العيو	ن حنين والهة قوامح ^(٢)
شعث شر ألا يتيـــــــــــــــــ	ن إذا ولى ليل النوايح
يدبن فقد أخى الندى	والخير والشيم الصوالح
والجود والأيدى الطوا	ل المستفيضات السوامح
فالآن نحن ومن سوا	ن مثل أسنان القوارح ^(٣)

كانت قریش تبكى قتلاها وكانت سليم تمد السائحات بما ينشده ،
 يسما كان شعراء رسول الله ﷺ — بهنحرون بانتصار المسلمين فى
 بدر ، فها هو ذا حسان بن ثابت يربط بين المقدمة العزلية والغزوة
 الكبرى فيقول :

يا من لعادلة تلصوم سفاهة
 ولقد عصيت إلى الهوى لوامسى
 بكرت على بسحرة بعد الكبرى
 وتقارب من حداث الأيام

(١) الشف : المبعص المتنكر

(٢) الأيل القوامح : التى اشتد عطشها

(٣) القارحة : التى وقعت أسنانها

زعمت بأن المرء يكرب يومه
 عدم لمعتكر^(١) مسن الإصرام
 إن كنت كاذبة الذى حدثتسى
 فنجوت مجى الحارث بن هشام^(٢)
 ترك الأحبة أن يقاتل دونهم
 ونجا برأس طمرة^(٣) ولجام
 جرداء تمزع^(٤) فى العبار كأنها
 سرحان^(٥) غاب فى ظلال غمام
 تلز العناجيج^(٦) الجياد بقفرة
 مر الذمول بمحصد ورجام
 ملأت به الفرجين فارمدت^(٧) به
 وثوى أحبته بشر مقام
 وبنو آية ورهطه فى معرك
 نصر الإله به ذوى الإسلام
 طحتهم — والله يفد أمره —
 حرب يشب سعيها بضرام

(١) اعتكر : كر وانصرف

(٢) وكان قد فر من المعركة فى بئر

(٣) الطمر : العرس الحواد (٤) تمزع : تثب

(٥) السرحان : الدثب

(٦) العناجيج : جمع عجوج وهو النجيب من الحيل

(٧) ارمدت : أسرع

لولا الإله وحريه لتركه

جزر السباع ودمنه بحوام (١)

كانت الأشعار تنتقل بين مكة والمدينة والقبائل ، وكانت الأبناء
تقد إلى رسول الله ﷺ — مع رجال انبثوا في كل مكان في الجزيرة
العربية قلوبهم مع الإسلام . فبلغ رسول الله عليه السلام أن جمعا من
بنى سليم وغطفان بقرقرة الكدر يريدون الإغارة على المدينة بعد أن
غزاهم — عقب غزوة بدر بشماية أيام لما علم أنهم يريدون
النار لحلفائهم من فريش ، فسار إليهم في مائتين من أصحابه وحمل
لواءه على بن أبي طالب من أصبح اسمه يلقي الرعب في قلوب أعداء
الإسلام بعد أن صال وحال في بدر وقطع رقاب صاهيد قريش
وفرسائهم ، واستحلف على المدينة أس أم مكتوم .

وسار عليه السلام والذي معه حتى نزل قرقرة الكدر وهي أرض
مساء فيها طيور في ألوانها كدرة عرف بها ذلك الموضع ، فلم يجد
به أحدا ، وأرسل نفرا من أصحابه إلى أعلى الوادى واستقبلهم في بطن
الوادى فوجد خمسمائة بعير مع رعاة منهم غلام يقال له يسار ،
فاستولوا عليها واحدروا بها إلى المدينة . فلما كانوا بمحل على ثلاثة
أيام من المدينة خمسمائة ، فأخرج حمسه وقسم الأربعة الأخماس
على أصحابه فخص كل رجل منهم بعيران ، ووقع يسار في سهمه
ﷺ .

وراح يسار يرقب رسول الله عليه السلام فإذا به يجد الإنسان

(١) الحوامى : ميامن الحمار ومياسره

الكامل ، ففتح له قلبه وألقى سمعه إلى ما يقرأ من القرآن فإذا بأُنوار اليقين تملأ صدره فيتحرك لسانه بشهادة الحق ويقوم يصلي مع المسلمين وقد استبشر بأن هداه الله الصراط المستقيم ، فدما رآه عليه السلام في صفوف المؤمنين أعتقه لوجه الله الكريم .

وعاد — ﷺ — إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمس عشرة ليلة ، وغدا يوزع خمس العنانم على الفقراء والمساكين وابن السبيل فقد كان له الخمس والخمس مردود على المحتاجين فما كان يدخل داره منها شيء ، فقد اختار أن يحوج يوما فيسأل الله وأن يشبع يوما فيحمد الله . وأحسن المسلمون عرة فراحوا يتفقّهون في دينهم يلقون أسماهم إلى رسول الله — ﷺ — ويحفظون ما أنزل عليه من ربه فرحين بما آتاهم ، بما كان أبو سليم يفعلون لشعر الحساء ويتربحون بمراثيها لأخويها لكأما قد باتت الدنيا ماحة لموت رجلين :

أعصى جودا ولا تحمدا	ألا تكيان لصحر السدى
ألا تكيان الجرىء الجميل	ألا تكيان الفنى السيدا
طويل التحاد رفيع العما	دسد عشيرته أمردا
إذا القوم مروا بأيديهم	إلى المجد مد إليه يدا
فال الذى فوق أيديهم	من المجد ثم مضى مصعدا
يكلفه القوم ما عالهم	وإن كان أصغرهم مولدا

ترى المجد بهوى إلى بيته

يرى أفضل السكسب أن يحمدا

وإن ذكر المجد ألفيته تأزر بالمجد ثم ارتدى
وقد تأثر بعض نساء المسلمين ورجالهم بذلك السواح فكاسوا

يقولون إذا ما تحدثوا عن قتلى بدر من المسلمين وكانوا بضعة عشر رجلا ، ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين :
— مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها .
فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ (١) .

كان المسلمون في المدينة يأتون البساتين يأكلون ويشربون ، وكانت الخمر تلعب برعوس بعضهم فيأتي من الأقوال أو الأفعال ما ينكرون . وكان أناس منهم يلعبون الميسر فكانوا يذبحون الحزور ويقطعونه عشرة أجزاء ثم يلعبون عليها فمن حسر دفع ثمن الذبيحة بيا تورع النحوم على فقراء المدينة ، وكان الذين يلعبون لا يجدون في الميسر من بأس ما دام النفع يعود على الفقراء والمساكين وابن السبيل .

وجاء رجال رسول الله ﷺ — يسألونه عن الخمر والميسر فأنزل الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ (١) . فلما قرئت على عمر قال :

— اللهم بين لنا في الخمر بيان شافيا .

وكان مسجد الرسول ﷺ — منارة العلم في المدينة ، فكان الصحابة يجلسون إليه عليه السلام ويلقون إليه أسماعهم فإذا بالحكمة تنسكب في أعماقهم ، وإذا بالرعاة السطاء والتجار الذين كانت كل معارفهم ما يتجرون فيه من طيب وبز وأقوات وبعض معلومات عن

البلاد التي جابوها يلقون من العلم ما يؤهلهم لأن يصبحوا رعاة أمم وخير أمة أخرجت للناس .

و ذات يوم جلس رسول الله — ﷺ — فذكر الناس ووصف القيامة ولم يزد هم على التخويف فرق الناس وبكوا ، فاجتمع أناس من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي ، فيهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب وعبد الله ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسي واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا انودك ويترهبوا ، فبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فجمعهم فقال :

— ألم أنبأ أنكم اتفقتم على أن تصوموا النهار وتقوموا الليل ولا تناموا على الفرش ولا تأكلوا اللحم ؟

— بلى يا رسول الله وما أردنا إلا الخير .

فقال عليه السلام :

— إني لم أؤمر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا ، فأبى أقوم وأنام وأصوم وأفطروا آكل اللحم والدسم ، ومن رغب عن سنتي فليس مني .

ثم خرج إلى الناس وخطبهم فقال :

— ما بال أقوم حرمتكم النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا ، أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهبانا ، فإنه ليس مني ديني ترك اللحم والنساء ولا اتحاذا الصوامع . وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتها الجهاد . واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وحجوا واعتمرُوا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان ، فإنما هلك

من كان قبلكم بالشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم في الديارات والصوامع ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

وكانوا قد حلفوا أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء فقالوا :

— يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها ؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّعْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتِهِمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢)

وراح المسممون يشربون الخمر ويقولون :

— ما حَرَّمَ علينا إِنْما قال : « فيها إثم كبير » .

وغدوا يقولون لرسول الله ﷺ :

— يا رسول الله دعنا نتنفع بها كما قال الله تعالى .

فسكت عنهم وظلوا يشربون حتى كان يوما من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب حط في قراءته ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (٣) .

— حرمت الخمر .

فقالوا :

— يا رسول الله إنا لا نشربها قرب الصلاة .

فسكت عنهم وكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة ينادى :

— لا يقرن الصلاة سكران .

كان الناس يشربون حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مميق ، وكان عمر بن الخطاب يقول :

— اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا .

وأتى سعد بن أبي وقاص على نفر من المهاجرين فقالوا :

— تعال نطعمك ونسقيك خمرا .

فأتاهم في بستان وإذا رأس جزور مشويا عندهم ودن من خمر ، فأكل وشرب معهم وذكر الأنصار والمهاجرين فقال :

— المهاجرون خير من الأنصار .

أخذ رجل لحي الرأس فحدهع أنفه بذلك ، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره .

وشربت قبيلتان من قبائل الأنصار ، فلما ثمل القوم عث بعضهم بعض فلم يصحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته فيقول :

— صبع يي هذا أخى فلان ، والله لو كان يي رعوفا رحيمما ما صنع

هذابي .

وكانوا إحوة ليس في قلوبهم ضغائن فإذا بالضغائن تقع في قلوبهم .

وكان لعلي بن أبي طالب ناقة من نصيبه من المغنم يوم بدر ، وكان

رسول الله ﷺ — أعطاه ناقة من الحمس ، ولما أراد أن يتتى

بفاطمة بنت رسول الله ﷺ — واعد رجلا صواعا من بنى قبيقاع أن يرتحل معه فيأتيان بإذخر ، أراد أن يبيعه من الصواعين فيسبتعين به في وليمة عرسه .

كانت الناقتان ماسختين إلى جب حجرة رجل من الأنصار ، وكان على يجمع لناقتيه من الأقطاب والعرائر والحيال ، وكان عمه حمزة بن عبد المطلب في بيت الأنصارى يشرب عنده وقينة تقول في عائها :
ألا يا حمز للشرف السواء وهن معقلات بالنساء
زج السكين في اللبسات منها

فضرجهسن حمزة بالدماء
فأطعم من شرائحها كبايا ملهوجة على ربح الصلاء
فأنت أبا عمارة المرجى لكشف الضر عنا والسلاء
فوثب إلى السيف فأجب أصام ناقتي على بن أبي طالب وبقر
خواصرهما وأخذ من أكبادهما ، فلما جاء على ورأى ما وقع لناقتيه لم يملك عينيه حين رأى ذلك المنظر ، قال :

— من فعل هذا ؟

— فعله حمزة وهو في البيت في شرب من الأنصار .
فانطلق على حتى أدخل على النبي ﷺ — وعنده زيد بن حارثة ، فعرف رسول الله ﷺ — الذي لقي فقال :
— مالك ؟

— يا رسول الله ما رأيت كاليوم . عدا حمزة على ناقتي وجب أستمتهما وبقر خواصرهما . ها هو ذا في بيت معه شرب شرب فدعا رسول الله ﷺ — بردائه ، ثم اطلق بمشى فاتيغ على أثره

وريد بن حارثة حتى جاء البيت الذي هو فيه ، فاستأذن فأذن له فإذا هم شرب ، فطفق رسول الله — ﷺ — يلوم حمزة فيما فعل ، فإذا حمزة ثمل محمرة عياه . فنظر حمزة إلى رسول الله — ﷺ — ، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه ثم قال :

— وهل أنتم إلا عبيد أبي ؟

فعرف رسول الله — ﷺ — أنه ثمل ، فنكص على عقبيه الفهقرى فخرج وخرج على وزيد . وأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴿ (١) ، فقال رسول الله — ﷺ — .

— حرمت الخمر :

ودعى عمر فقُرئت عليه . فلما بلغ « فهل أنتم منتهون » قال عمر : — انتهينا .

وكان أنس بن مالك ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة ، كان يسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهيل بن البيضاء ونفرا من أصحابه حتى كان الشراب يأخذ بهم ، فإذا مناد ينادي ، قال أبو طلحة :

— اخرج فانظر .

فخرج أنس فإذا مناد ينادي .

— ألا إن الخمر قد حرمت .

فقالوا :

— يأنس ، أكف ما بقي في إنائك .

فما قالوا حتى ننظر وسأل ، بل أطاع المسلمون وغدوا يهرقون ما عندهم من الخمر .

وتوضأ بعض الرجال واغتسل بعضهم وطهوا ثم خرجوا إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ — يقرأ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ ثم قال :

— من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتها بها .

فجعلوا يأتونه فيقول أحدهم :

— عندي راوية .

ويقول الآخر :

— عندي زق .

أو ما شاء الله أن يكون عنده ، فقال — ﷺ :

— اجمعوا ببيع كذا وكذا ثم آذنوني .

فعملوا ثم آذنوه ، فقام وقام معه عبد الله بن عمر ومشى عن يمينه وهو متكئ عليه ، فلحقهما أبو بكر فأخبره رسول الله ﷺ — فجعله عن شماله وجعل أبا بكر في مكانه ، ثم لحقهم عمر بن الخطاب فأخبر رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر وجعل عمر عن يساره ، فمشى بينهما حتى بلغوا المريد ، فإذا بزقاق على المريد فيها خمر فقال للناس : — أتعرفون هذا ؟

— نعم يا رسول الله ، هذه الخمر .

— صدقتم ، فإن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها
وساقيتها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها .
فدعا رسول الله — ﷺ — بالمدينة فقال :
— اشحبوها .

— ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله ﷺ يحرق بها الرقاق فقال
الناس :

— في هذه الرقاق منعة .

— أجل . ولكني إنما أفعل ذلك عصباً لله عز وجل لما فيها من
سخطه .

فقال عمر :

— أنا أكفيك يا رسول الله .

— لا .

وجرت الخمر في سكك المدينة أنهاراً .

وقال أناس :

— يا رسول الله أصحابا الدين ماتوا وهم يشربونها ؟

فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات
جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا
ثم اتقوا وأحسوا ، والله يحب المحسنين ﴾ (١) .

كان لغطفان إله على مشارف الشام يدعى الأقيصر فكانوا يحجون إليه كما كانوا يحجون إلى البيت العتيق ، وكانوا يصخرون بشاعرهم النابعة الذياني فقد كانت تضرب له قة في سوق عكاظ وكان الشعراء من كل القبائل يخفون إليها ليحتكموا إليه في أشعارهم .

وكان حساد النابعة من عطفان يقولون إن الرباح بن ميادة أشعر عطفان وهو حير لقومه من النابعة ، فهو لا يمدح غير قريش وقيس يسا يهذى النابعة باليمن ويطوف على ملوك الحيرة يعيش بشعره على موائد المتادرة .

وكانت غطفان سعيدة بتحالفها مع قريش ، فقريش سادات البيت الحرام ائدى يأمر فيه الطير ولأشرافها الكلمة المسموعة في العرب ، وهم ذوو قوة ومنعة وأصحاب تجارة ممدودة وجاه وسلطان وبجدة . وكانت عطفان مطمئة بحلفها لا تخشى غدر جيرانها من القبائل ، وكانت في نفس الوقت على صلة وثيقة بالأوس والحزرج فمساكنها كانت قريبة من حير ، فكان العطفانيون يزورون يشرب وينزلون بأسواقها فتوطدت صلات طيبة بينهم وبين اليثريين من أوس وخزرج ويهود .

وكان لغطفان أثر في الحروب التي كانت تنشب بين الحيين والحيين

بين الأوس والحزرج ، فقد بعث رجل من عطفان من بني ثعلبة بن سعد بن ديان إلى يثرب بعرس وُحلة مع رجل من عطفان وقال :
— ادفعهما إلى أعز أهل يثرب .

فجاء الرجل بهما حتى ورد سوق قيقاع فقال ما أمر به ، فوثب إليه رجل من عطفان كان حاراً لمالك بن العجلان الخرجي فقال له مالك ابن الثعلبي فقال :

— مالك بن العجلان أعز أهل يثرب .
وقام رجل آخر فقال :

بل أحب من الحلاج أعز أهل يثرب .

وكثر الكلام فقل الرسول العطفاني قول النعسي الذي كان حاراً لمالك بن العجلان ، ودفعهما إلى مالك فقال كعب الثعلبي :
— ألم أقل لكم إن حليمي أعزكم وأفضلكم !

فغضب رجل من بني عمرو بن عوف يقال له سُمَيْر فرصد الثعلبي حتى قتله ، فشبت بين الأوس والحزرج حرب سُمَيْر .

وطلت علاقة عطفان يشرب طيبة حتى هاجر إليها رسول الله ﷺ ، وهجر الأنصار عادة الأوثان فتغير قلوب العطفانيين وأصبح هوهم مع قريش ، فقد كان في جوف الكعبة صنم لإلههم الأقصر وكانت قريش حاملة لواء الدفاع عن الأصنام .

ووقع الصدام بين قريش ومحمد عليه السلام وصحبه عند ماء بدر وانتصر المسلمون وقتل صناديد قريش وقال أعداء الإسلام لئسوا سمعوا بمقتل أشراف حماة الحرم . لطم الأرض حير من وجهها .

وكانت غطفان ممن ساءها هزيمة حلفائها فأرادت أن تدهم المدينة
 بالهجوم لتقوم بحق الحلف انتقاماً لأصحاب القلب . ولكن رسول الله
 ﷺ — أفسد تدبير القوم فقد فاجأهم بالهجوم عقب بدر ، فأعلقوا
 مبارلهم ولم يحركوا ساكناً ، وبرل محمد — ﷺ — والذين معه
 مياهم ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة دون أن يلقي كيداً .

وكان الغطفانيون يستشعرون مهامة لأهم لم يقوموا بحق الحلف
 الذي كان بينهم وبين قريش ، فكانت فكرة الهجوم على المدينة
 هجومًا حاضف تداعب أحيلتهم حتى قام رجل منهم يدعى دعثور بن
 الحرث العطفاني من بني محارب يجمع جمعاً من ثعلبة ومحارب
 ليصيبوا من أطراف المدينة حتى يحفظوا ماء وحومهم أمام حلفائهم
 سادات الحرم الذين قتل أشرافهم عند بدر .

وبن رسول الله — ﷺ — ما يدبر دعثور ، فخرج إليهم في
 أربعمائة وخمسين رجلاً لاثنتي عشرة مصت من شهر ربيع الأول ،
 واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

وأصاب أصحاب رسول الله عليه السلام رجلاً منهم يقال له حباب
 من بني ثعلبة ، فأدحل على رسول الله — ﷺ — ، فلما نظر إليه هابه
 وأحس نفسه نذهب شعاعاً ، فما إن سأله عليه السلام عن دعثور ومن
 معه حتى راح الرجل يفص كل شيء ، ثم قال له :

— لن يلاقوك ولو سمعوا بمسيرك إليهم هربوا في رعوس الجبال
 وأنا سائر معك .

وراح حباب يرصد المسلمين ، إنهم رهبان في الليل فرسان

بالسهار ، إخوان متحابون . وابلجت الدهشة فى نفسه فقد كان على علم بالعداوة التى كانت بين الأوس والخزرج ، فمس ذا الدى طهر قلوب أقوام كانت تبغض بالضعية والحقد ؟ ومن ذا الدى صهرهم فى بوتقة واحدة فأصبحوا أنصارا لبيهم لا فرق بين حزر جى وأوسى ؟! وعدا حباب يصمى إلى ما يتلون من قرآن فإذا به يسمع : ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (١) . فانزاحت الدهشة عه فما كان بشر بقادر على أن يؤلف بين تلكم القلوب المتنافرة مهما كان عى خلق عظيم ، إنها قدرة إله عزيز حكيم النى ألفت بين أعداء الأوس فأصبحوا بعملة الله إخوانا ، وألقى التصديق فى عين ذات حباب فأسلم وضمه — صلوات الله عليه — إلى بلال .

كان بلال لا يفارق رسول الله — صلوات الله عليه . فإذا ما حان أوان الصلاة كان يؤذن للمسلمين فكانوا يهرعون ليصطفوا خلف النبى عليه السلام ، وكان لا يتناول طعاما إلا من طعام النبى وكان غالبا بعض تمرات أو قعب لبس ، فأصبح حباب رفيق بلال وغدا يتهلل بالفرح أن صار فى صحبة نبى الإسلام عليه السلام ينهل من فيض علمه ويسعد بأنوار اليقين التى تأتلق فى صدره .

وأخذ حباب بالمسلمين طريقا وهبط بهم على عطفان فسمعوا بمسير رسول الله — صلوات الله عليه — فهربوا فى رعوس الحبال ، وانطلق

المسلمون حتى برلوا ماء يقال له ذو أمر فعسكروا به . وسرعان ما هطلت الأمطار عريرة بلبث ثياب رسول الله ﷺ — وثياب أصحابه ، فزرع رسول الله ﷺ — ثوبيه ونشرهما على شجرة يجفها وعنق بها سيفه واضمضع تحتها .

واشتغل المسلمون في شتوبهم وكان دعثور يرصدهم من بعيد ، لما وقع بصره على رسول الله عليه السلام ووحده قد انفرد قال :
— قتلني الله إن لم أقتل محمدا .

وانسل دعثور ومعه سيفه حتى قام على رأس رسول الله ﷺ —
ثم قال :

— من يمنعك مني اليوم ؟

وقال رسول الله ﷺ — في ثبات دون أن تخلص عيابه :
— الله .

وملىء دعثور رعبا من ذلك الثبات العجيب الذي قابل به رسول الله عليه السلام تهديده ، لم يرتجف ولم يرتد فرعا ، بل اضطرب السيف في يده من أقسم أن يقتل محمدا وسقط منها على الأرض من شدة الخوف ، فأخذ السيف رسول الله ﷺ — وقال له :

— من يمنعك مني ؟

فقال وهو يرتجف وقد اقشعر جنده :

— لا أحد .

ثم جمع شتات نفسه وقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فأعطاه رسول الله — ﷺ — سيفه فانقلب إلى أهله وغدا يدعو قومه إلى الإسلام .

وصدق رسول الله — ﷺ — لما قال : نصرت بالرعب . وأنزل الله تعالى على عبده ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَّ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَنِ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

دخل عبد الله بن مسعود كاتم سر رسول الله ﷺ — على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر في جنبه ، فقال :
— يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه .

فقال عليه السلام في بساطة :
— مالي وبنديا ؟ ما أنا والنديا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

ومر الوقت واستبد برسول الله ﷺ — الجوع فحرج من المسجد ، فوجد أبا بكر وعمر فسألتهما عن حم وحهما فقالا :
— أخرجنا الجوع .
— وما أخرجني إلا الجوع .

فدهنوا إلى أبي الهيثم فأمر لهم بشعير وقام إلى شاة فدهنها واستعذب لهم ماء معلقا عنده في بحلة ، ثم أتوا بالطعام فكبوا وشربوا من ذلك الماء ، فقال عليه الصلاة والسلام :
— لنسألن عن نعيم هذا اليوم ؟

كان — ﷺ — مرهف الحس راهدا في الدنيا ، فما كان يعرف الكبر ، فإذا ما وصلت إلى يده صغراء أو بيضاء تصدق بها ، وكان له من العنائم الحس والحمس مردود على فقراء المسلمين والمساكين .

وما كان يحتفظ لنفسه بناقاة أو شاة ليدبحها لأهل بيته بل كان عليه السلام وأهله يعيشون على الأسودين : التمر والماء .

وكان قدوة لأصحابه ، فيما كان جالسا مع رجال من المهاجرين والأنصار ، إذ طلع عليهم مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة مرقعة بفرو ، فلما رآه ﷺ — بكى ، فمصعب كان في نعمة قبل الإسلام لا يرندى إلا أفخر الثياب ، وكانت أمه تغمره بعطفها وحنانها وما كانت تبخل عليه بمال ، ثم التفت عليه السلام إلى أصحابه وقال :

— كيف بكم إذا عدا أحدكم في حلة وراح في أخرى ووضعت بين يديه صفحة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تسر الكعبة ؟
— يا رسول الله نحن يومئذ حير ما اليوم ، نكفي المؤنة ونتفرع للعبادة .

— بل أنتم خير منكم يومئذ .

وكان القرآن ينزل على رسول الله ﷺ ، إنه أنزل حيث أنزل ومه آى قد مصى تأويلهن قبل أن ينزل ، ومه آى قد وقع تأويلهن عند نزولهن ، ومه آى يقع تأويلهن بعد نزولهن ، ومه آى تأويلهن عند الساعة ، وكان الناس يأتون رسول الله عليه السلام يسألونه بعض ما غمض عليهم من تأويل بعض الآيات ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من صل إذا هتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فيحكم بما كنتم تعملون ﴾ ^(١) . أتى أبو ثعلبة الخشني إلى رسول الله ﷺ فقال :

— كيف نصنع فى هذه الآية ؟

— آية آية ؟

— قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرَّكُمْ مِنْ صِلَ إِذَا هْتَدَيْتُمْ ﴾ .

— بل ائتمروا بالمعروف وناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودينا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بحاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، لتعامل فيهن مثل أحر حمسين رجلا يعملون كعمسكم .

— يا رسول الله أجزر خمسين رجلا منا أو منهم ؟

— بل أجزر خمسين منكم .

وكان رسول الله ﷺ — يحب أن يسمع القرآن ، قال لعبد الله بن مسعود :

— اقرأ عني .

— يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟

— نعم ، إننى أحب أن أسمعه من غيرى .

فقرأ ابن مسعود سورة النساء حتى أتى إلى هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ (١) . فقال عليه السلام :

— حسبك الآن .

فإذا عيناه تدرفان .

وجاءت إلى داره عجوز فقال لها :

— من أنت ؟

فقالت :

— جثامة المزنية .

— أنت حسنة ؟ كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟

— بخير يا أباي أنت وأمي .

فلما خرجت قالت عائشة :

— يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟

— إنها كانت تأتينا زمن خديجة . وإن حسن العهد من الإيمان .

كان المثل الأعلى في الشجاعة ، فهي ذات ليلة هب أهل المدينة

عبي صوت أنكروهم وانطلقوا إلى ناحية الصوت ، فإذا يرسل الله —

عليه السلام — يتلقاهم راحعا على فرس عرى ، فقد كان أول من أسرع قبل

الصوت ويقول في حنان الأب :

— لن تراعوا .

وكان القدوة الحسنة في الوفاء والمثل الكامل في الرهد والقناعة

والتواضع والعدل والمعروف وحسن الخلق ، وكان يدعو ربه : اللهم

اجعل رزق آل محمد كفافا . إنه يعيش لله وبالله وفي الله فإذا أتاه أمر

يحبّه قال :

— الحمد لله الذي بعثته تنم الصالحات

وإذا أتاه أمر يكرهه قال :

— الحمد لله على كل حال .

وإن قصد فعل شيء قال :

— اللهم خذ لي واختر لي .

وإن أراد سمرا قال :

— اللهم بك أصول وبك أجول .

وإذا أراد نوما قال :

— اللهم باسمك وضعت جسدي وباسمك أرفعه .

وإن استيقظ قال :

— الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .

وإن لبس ثوبا جديدا قال :

— الحمد لله الذي رزقني ما أتحمّل به في حياتي .

وإن أكل قال :

— الحمد لله الذي أطعما وسقانا وجعلنا مسمين .

وإن شرب قال :

— الحمد لله الذي جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذوبنا .

وإذا انقلب من الليل في فراشه قال :

— لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار .

وإذا هب من نومه في الليل قال :

— رب اعمر وارحم ، واهد لسبيل الأقوم .

ركاه ربه ومدح حسن خلقه في قرآنه فأنزل فيه : ﴿ وإليك لعلى خلق عظيم ﴾ ^(١) فكاد أصحابه أن يفتنوا به فكاتبوا يقولون :

— ما شاء الله و شاء محمد .

ودخل الطفيل بن سخبرة أخو عائشة أم المؤمنين لأمرها فنام ، فرأى
حيما يرى النائم كأنه أتى على نفر من اليهود فقال :

— من أنتم ؟

قالوا :

— نحن اليهود

— إياكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزيز ابن الله .

— وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله و شاء محمد ،

ثم مر بنفر من النصارى فقال :

— من أنتم ؟

— نحن النصارى .

— إياكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله .

— وإياكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله و شاء محمد .

فلما أصبح أخبر بها من أخبر ، ثم أتى النسي عليه السلام فأخبره

فقال :

— هل أخبرت بها أحدا ؟

— نعم .

فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإن طفيل رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم

كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاركم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله

و شاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده .

وحاء رجل إلى النبي ﷺ وجعل يحدثه ثم قال :
— ما شاء الله وشئت .

فقال عليه السلام في غضب :
— أحعنتي لله ند ؟! قل : ما شاء الله وحده .

كانت مكة تعلق بالحقد على محمد ﷺ — وصحبه ، فأبو
سفيان بن حرب وعيم قريش وسيدها كان ينتظر إلى الدنيا يوم أن بعث
عليه السلام ، فقد كان يعلم أن محمداً ﷺ — صدوق لا يكذب
وإنما كان يرى أن إيمانه بما جاء به ابن عبد الله فيه قضاء على أحلامه
وأمانه ، فقد جاء أمرا لا يبقى معه شرف فخاصمه ولج في الخصام
حمية وكرهية أن يذهب شرفه .

فلما هاجر النبي عليه السلام إلى المدينة واستقر بها وألف بين قلوب
الأوس والخزرج استمر حقد أبي سفيان على سبي الإسلام ، فالمدينة
تقع على طريق قوافل قريش المطلقة إلى الشام وتهدد طريق القوافل
الصاعدة إلى العراق . فلو تحرك محمد عليه السلام ليهاجم قوافل
قريش انتقاما لإخراجه وأصحابه من ديارهم وعوضا عن أموالهم التي
صودرت في مكة . فسيهدد تجارة قريش مع الشام والعراق بالبوار مما
يذهب عزها وسلطانها .

وكانت محاوف أبي سفيان تغذى كراهيته لرسول الله ﷺ —
— ، والمهاجرين والأنصار ، فلما تحققت مخاوفه يوم أن خرج عليه
السلام والمسلمون ليتعرضوا لعير قريش الآتية من الشام تيقن أن كيان
قريش مهدد بالزوال ما دام لمحمد عليه السلام كلمة مطاعة في
المدينة ، وأن لن يكون أمان قبل القضاء قضاء مبرما على الحظر الكامن

على طريق الشمال .

وبلغ حقد أبي سفيان عايته لما جاءت أنباء بدر وحمل إليه العاى
حبر مقتل ابنه حنظلة وأسر ابنه عمرو ، فقد أصبح يه ويس المسلمين
ثأر ، إلى عر الهزيمة الذى جمل قريش جميعا وقطع الطريق إلى
الشام ، فصار عليه وهو رعيم القوم أن يثار لقتلى بدر وأن يحصل ما
لحقهم من عار وأن يظهر طرق القوافل من الأعداء .

وكانت زوجته هند بنت عتبة قد عادت محمدا — ﷺ — مد جهر
بدعوته ، فهي مؤمنة أشد الإيمان بدين لآباء فكانت عداوتها لرسول
الله عليه السلام فى سبيل عقيدتها ، ولم تخف أبدا كراهيتها لابن عبد
الله وما يدعو إليه ولم تجامل ولم تحاول أن تخفى عواطفها ، فذات يوم
أقبل أبو سفيان من الشام ومعه هند ومعوية على حمار ، فلما دنوا من
مكة لقيهم رسول الله — ﷺ — فقال أبو سفيان لمعوية :

— انزل يركب محمد .

فالت هند فى إنكار :

— أنزل ابنى لهذا الصابىء ؟

قال أبو سفيان :

— نعم .

وكان يحرك غضبها دخول أخيها أبى حذيفة فيما يدعو إليه ابن أبى
كبشة ، وبلغ غضبها غايته لما قتل يوم بدر أبوها عتبة وأخوها الوليد
وعمها شبة ، وقد أت أن تكيهم أو تندبهم قبل أن تثار لهم من
المسلمين .

وراحت هند تحرض زوجها أب سفيان على حرب على قال محمد

والذين معه ، وكانت وقود حقله حتى جعلته يقسم أن لا يغتسل من حنابة قيل أن يثار يقتلى بدر ، فلما طال الرمن افعل أبو سفيان عزوة اسويق لير قسمه . ولكن ذلك لم يشف عليل هند فلن يهدأ لها بال ما دام حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب يمشيان في الأرض . ولم تستطع قريش أن تطوى صدورهما على أحرانها حتى يحين يوم الانتقام فيكت قتلها أحر البكاء . واطلق لسان هند بالشعر لتنفس عن لوعتها إلى حين :

هلكا كهلك رجاليه	لله عينا من رأى
في البائيات وباكيه	يارب باك لى غدا
عداة تلك الداعيه ^(١)	كم عادروا يوم القلب
إذا الكواكب خاويه	من كل عيث فى المين
فاليوم حرق حذاريه	قد كنت أحذر ما أرى
يا ويح أم معاويه	يارب قاتلة غدا

وكان أبي بن خلف يجلس فى الحرم لا هم به إلا تحريض القوم على قتال المسلمين ، فهو وإن كان قد فر طلبا للمجاة إلا أنه قد سمع بما صنع بأخيه أمية بن خلف ، فعبد الرحمن بن عوف صديقه الذى ما كان يعارقه قبل أن يفرق ابن عبد الله بينهما لم يستطع أن يقده من سيف المسلمين ، هلال بن رباح صاح صيحته فإذا بأخيه وابن أخيه على قد صارا فى الغابرين .

وراح أبي يتذكر تلك الأيام التى كانوا يعدون فيها بلالا برمضاء

مكة ، إنه أوشك على الموت مرات ، فيأليتهم قضو عليه فلو كان قد مات لما مات أمية بن خلف وابنه على ، ولما جلس هو في الحجر يكتب بئارهما !

وكان صفوان بن أمية بن حلف أكثر المشركين حقدا على رسول الله ﷺ ، فإن كان أبو جهل بن هشام قد أحرأه الله يوم بدر فإن صفوان قد بهص ليحمل لواء الكراهية والبغضاء لسي الإسلام — ﷺ — وللأنصار والمهاجرين .

كان أبو فكيهة يسار مولى صفوان قد أسلم ، وكان رسول الله ﷺ — إذا جلس في الحرم فجلس إليه المستضعفون من أصحابه ، حباب وعمار و أبو فكيهة وصهيب ، هرت بهم قريش وكان صفوان يقول :

— هؤلاء أصحابه كما ترون ، أهؤلاء من الله عليهم من بينا بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد حيرا ما سبقا هؤلاء وما حصهم الله به دوسا . كان صفوان من المستهزئين وقد عالى على سحرته وتهكمه لما أنزل الله في المستضعفين : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالمعدة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين * وكذلك فشا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بينا أليس الله بأعزم بالذاكرين * وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل مكتم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴾ (١) .

إنه كان يتهكم بمحمد عليه السلام وبالمستضعفين ، ولكنه كان وهو جالس في ظل الكعبة يصعق إلى كعب بن الأشرف وهو يصف سمومه في صدره يتحرق شوقا إلى قتال من قتلوا أباه وأخاه وأذلوه . إنه بعث عمير بن وهب بعد مصاب أهل بدر من قريش ليسيّر ليقتل محمدا ، وغدا صفوان يقول لقريش :

— أبشروا بوقعة تأتاكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر !

ورجع عمير بن وهب إلى مكة بعد أن أسلم ، وأخزى الله صفوان فإن الذاهب لقتل رسول الله — ﷺ — وإطفاء نور الله قد عاد إلى مكة يدعو أهلها إلى الله وإلى رسول الله وإلى الإسلام .

وراح صفوان يحرض للناس على عداوة رسول الله عليه السلام ، حتى جاء أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي ، إنه شاعر ولنشعراء مكانتهم في إثارة العداوات وإشعال نار الخصومات ، وغدا يغريه بعداوة نبي الإسلام .

كان أبو عزة قد وقع أسيرا في بدر فأعتقه رسول الله — ﷺ — دون فداء لما قال به : إن لي خمس بات ليس لهن شيء ، فتصدق بي عليهن يا محمد ، وأخذ عيه ألا يظهر عليه أحدا فقال أبو عزة :

من مبلع عنى الرسول محمدا	بأساك حق والمليك حميد
وأت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى	عليك من الله العظيم شهيد
وأت امرؤ بوئت فينا مساءة	لها درجات سهلة وصعود
فإنك من حاربتك لمحارب	شقى ومن سألته لسعيد
ولكن إد ذكرت بدرا وأهله	تأوب ما بى حسرة وقعود

وظل صفوان يحاول أن يوعر صدر أبي عزة على النبي — ﷺ —
وأبو عزة يقول :

— إني قد أعطيت محمدا موثقا ألا أقاتله ولا أكثر عليه أبدا ، وقد
من علي ولم يمس علي غيري حتى قتله أو أحد منه الفداء .
فضمن له صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قتل وإن عاش أعطاه مالا
كثيرا لا يأكله عياله .

فخرج أبو عزة يدعو العرب ويحشرها .
وجاءت أم الفضل لتطوف بالحرم فمد كعب بن الأشرف عينيه
إليها ، إنها زوجة العباس عم النبي وهي أول امرأة آمنت به بعد روجه
حديجة ، فإن تشبب بها وهو شاعر يسير الركبان بشعره فسيجرح
ذلك كبرياء المسلمين ويؤدى محمدا ، فاستراح للفكرة فلم يعد
لكعب بن الأشرف هم إلا أن يقضى على نبي الإسلام عليه السلام . فلو
قتل لماتت دعوته التي أصبحت تقض مضاجع قريش والمشركين
والحاسدين واليهود .

خاف القرشيون طريقهم الذين كانوا يسلكون إلى الشام فرأوا أن خير ما يفعلون أن يسلكوا طريق العراق ، فاستأجروا فرات بن حيان رجلا من بني بكر بن وائل يدلهم في ذلك على الطريق .

وتجمعت عبر قريش في الحرم تحمل فضة كثيرة وهي عظم تجارتهم ، وأقبل أبو سميان بن حرب تحف به أشياخ قريش وسادات بني أمية والتجار الخارجون معه فطافوا بالبيت سبعا ثم أذن أبو سفيان بالرحيل .

واطلقت العير بعد أن دعا القوم ألتهم لتحمل الرجا وال أموال من أعدائهم ، وما إن عابت القافلة في الأفق البعيد حتى خفقت القلوب رهبة ونزل بالموس قلق ، فقد شعل الأذهان ما كان بين رجالهم وبين المسلمين يوم بدر ، فابن عبد الله قد خرج أصحابه في طلب القافلة التي كانت في طريق عودها من الشام ، ولولا حرص أبي سميان لما أفلت من قبضة المسلمين .

كان رسول الله ﷺ — يعلم أن قوة قريش في تجارتها وأنه إذا هدد طريق قوافلها قطع الشريان الذي يمدّها بالحياة والقوة فيجعلها تترج وتحر مستسلمة عند أقدام من أكرهوا عبي الحروح من ديارهم ومن صادرت قريش أموالهم ، فكان يرصد العيون ليعرف أبناء العير الممطرة إلى الشمال ليروعها بغاراته التماسا للعيمة وتحطيم لروح (عزوة بدر)

أعدائه المعنوية بتأكيد سيطرته على الطريق .
ونزلت قافلة قريش على القردة ، ماء من مياه نجد التماسا للراحة ،
ومحر الرحاب الحرور وأوقدوا البيران وتأهوا ليمضوا أمسية حميلة في
صوء القمر ، وإذا بصوت الدبر يعكر عليهم صموهم ويصيح :
— الفرع .. الفرع .

فهب أبو سفيان ومن معه مرعوبين وأحسوا أن المسلمين قد أغاروا
عليهم فانطلقوا إلى رواحهم يمتطوئها وسرعان ما ولوا هاريس وقد
شعل كل منهم بنفسه ، فمسوا القافلة وما فيها من قصة كثيرة .
كان رسول الله ﷺ — قد بعث ريد بن حارثة فلقبهم على ذلك
الماء ، فلما أحسوا به أطلقوا لرواحهم الأعنة ، فأعجزه لرجال
وأصاب تلك العير وما فيها ، ثم انقلب إلى المدينة يحمل العيمة
وقسمت الأموال وكان لله ورسوله الخمس ، فعدا نبي الإسلام عليه
السلام يوزع نصيب الله ونصيبه من الأفال حتى إذا ما أتى على كل ما
آل إليه دخل داره لينام على الحصير .

كان ريد قد تزوج أم أيمن وكانت تكبره بمنين كثيرة ، وكان ثمرة
ذلك الزواج أسامة حب رسول الله ﷺ . وغدا أسامة هو الصلة
الطيبة بين الروح الشاب وزوجه المحور فقد أحس ريد رغبة في الزواج
من شابة ، ولما كان ابن محمد وأول من أسلم بعد علي بن أبي طالب
وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عمه حمزة بعد أن هاجر إلى المدينة
وآخى بين أصحابه ، فقد راح زيد يتطلع إلى الروح من شريفة من
أشراف قريش نليق بمقامه الجديد في ظل دين الله الذي يساوى بين
الناس .

وكانت رينب بنت جحش قد هاجرت إلى الحبشة مع بني جحش فرارا بدبيها ، فعلمت دار بني جحش هجرة ، فمر بها عتبة بن ربيعة ولباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تحقق أبوابها يبأيا ليس فيها ساكن ، فتذكر عبد الله بن جحش وأبا أحمد عبد بن جحش وكان رجلا ضرير البصر وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعرا وكانت عده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي . وتذكر الحركة الدائنة التي كانت تنبض بها الدار فتتفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها

يوما ستدركها الكباء والحبوب^(١)

أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها .

فقال أبو جهل :

— وما تبكي عليه من قل بن قل^(٢) . هذا عمل ابن أحي ، هذا هرق

جماعتنا ومشت أمرنا .

وهاجرت رينب بنت جحش إلى المدينة مع من هاجر من بني

جحش عقب هجرة الرسول ﷺ ، وراح شاعرهم أبو أحمد يصف

هجرتهم فيقول :

لما رأني أم أحمد غاديا بدمة من أخشي وأرهب

تقول : فيما كنت لا بد فاعلا فيمم بها البلدان ولتنا يشرب

(٢) القل : الواحد

(١) التوجع

فقلت لها : بل يثرب اليوم وجهها
إلى الله وجهي والرسول ومن يُقيم
فكم قد تركنا من حميم ماصح
تري أن وترا (١) تأينا عن بلادنا
دعوت بي عم لحق دماهم
أجابوا بحمد الله لما دعاهم

إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا (٣)

كموجين : أما منهما فموفق
طغوا وتمنوا كذبهم وأربهم
ورعا إلى قول النبي محمد
سنت بأرحام إليهم قريفة
فأى ابن أخت بعدنا يأمنكم
ستعلم يوما أنها إذ ترائلوا (٤)
وكانت ريب بيضاء سمية من أتم نساء قريش وكانت معتزة بسبها
الرفيع ، فلما راها ريد من حارثة بعد قدمها إلى المدينة جاء إلى النبي
ﷺ — وقال :

— يا رسول الله اخطب علي .

— من ؟

— ريب بنت جحش .

إنها ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب وهو عليه السلام يعلم

(١) الوتر طلب النار . (٣) أوعبوا : اجتمعوا وكثروا .

(٢) تلحج : طريق بين واصلح . (٤) تفرقوا .

اعتزازها بنسبها ، فقال له :

— لا أراها تفعل ، إنها أكرم من ذلك سببا .

— يا رسول الله إذا كلمتها أت وقلت زيد أكرم الناس عليّ فعلت .

— إنها امرأة لئساء .

فذهب ريد إلى علي بن أبي طالب فحمله علي أن يكلم له النبي — صلّى الله عليه وآله ، فانطلق معه علي إلى النبي — صلّى الله عليه وآله — فكلّمه فقال :

— إني فاعل ذلك ومرسلك يا علي إلى أهلها لتكلمهم .

وذهب علي إلى عبد الله بن جحش يكلمه في أمر رواج زيب من

ريد فابرد وجه عبد الله ، إنه كان يترقب أن يأتي ابن خاله محمد —

صلّى الله عليه وآله — ليطلب منه رواج ابنة عمته زينب بنت جحش وما خطر له علي

قلب أن يبعث يطلب زواج زينب من مولاه ، فسحطت زينب وسخط

أحوها عبد الله ، وعاد على كرم الله وجهه إلى النبي عليه السلام فأخبره

بكرامتها وكراهة أخيها لذلك .

وجاء عليه السلام إليها ليحطبها لمولاه فقالت :

— لست بناكحته .

قال عليه الصلاة والسلام :

— بل فانكحيه .

— يا رسول الله أوامر نفسي فأبى خير مه حسبا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله

ورسوله أمرا أن يكون لهم الحيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد

ضل ضلالا مبينا ﴾ (١) .

فقال زينب .

— رضيت .

وساق زيد إلى بي جعش عشرة دنانير وسنين درهما ودرهما
ونخمارا وملحفة وإزارا وحمسين مدا من الطعام وعشرة أمداد من التمر
أعطاه ذلك كله رسول الله ، وبني زيد بن حارثة مولى رسول الله عليه
السلام بزینب بنت جعش سلیلة أشرف بیت فی قریش من كانت تعتر
بنسبها ، لتقرير حقيقة المساواة بين البشر وأن ليس بحر علي عبد من
فضل إلا بالتقوى .

كان كعب بن لأشرف رجلا من طييء ثم أُحد بنى بهان ، وكانت أمه من بنى الضبير ، وقد ناصب رسول الله ﷺ العداء مذ هاجر إلى المدينة . فلما وقعت الحرب بين المسلمين وقريش عند ماء بدر وأيد الله المسلمين بنصره بدت العداوة على لسانه ، وقال حين بلغه مقتل سادات قريش :

— ويلكم أحق هذا ؟ أترون أن محمدا قتل هؤلاء الرجال وهؤلاء
أشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم
لبطش الأرض خير لنا من طهرها .

فما نيقض الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي
وذاعة بن صيرة السهمي وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص بن أمية
بن عبد شمس فأثرت له وأكرمته ، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ
ويشد الأشرار ويكبي على أصحاب الملب الدين أصيبوا بدر من
قريش ، فقال :

طحنت رحي بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياصهم لا تبعثوا إن الملوك تُصرع
كم قد أصيب به من ايض ماجد ذى بهجة يأوى إليه الضيع
طلق اليمين إذا الكواكب أحلفت

حُمال أثقال يسود ويرسع^(١)

(١) يربع : يأخذ الربع أى أنه كان رئيسا ، لأن الرئيس من الجاهلية كان يأخذ ربع العنيفة .

ويقول أقوام أَسْرُ بسخطهم إن ابن الأشرف ظل كعبا يجرع
صدقوا فبيت الأرض ساعة قُتِلوا ظلت تسوخ بأهدها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعة أو عاش أعمى مُرعشا لا يسمع

نبئت أن بنى المغيرة كلهم

خشعوا لقتل أبى الحكيم وجُدعوا
وابا ربيعة عسده ومُبَّه ما زال مثل المهلكين وتبع

نبئت أن الحارث بن هشامهم

فى الناس بنى الصالحات ويجمع
فرد عليه حسان بن ثابت ، وأجابت كعبا ميمونة بنت عبد الله
فأجابها كعب بن الأشرف :

ألا فارجروا منكم سفيها لتسلموا

عن القول يأتى منه غير مقارب
أتشمسى أن كت أبكى بعبرة بقوم أتانى ودهم غير كاذب
فأبى ساك ما بقبت وذاكر مآثر قوم محدثهم بالحجاب
لعمرى لقد كانت مُريدٌ بمعزل

عن الشر فاحتالت وجوه الثعالب

فحق مُريدٌ أن تجد أنوفهم يشتمهم حيى لوى بن عبال
وهيت نصيبى من مرید جعدر وفاء وبت الله بين الأخشاب
وعد كعب بن الأشرف إلى المدينة ، يعلن فى حماقة ما قاله فى
محمد عليه السلام فى مكة وما أشده فى رثاء سادات قريش ، واستمر
فى غيه فلم يكتف بالهجاء بل شَبَّه بأُم الفضل بنت الحارث زوجة

العباس وثاني امرأه أعلنت إسلامها بعد الطاهرة حديجة أم المؤمنين ،
فقال :

أُرحل أنت لم تحلل بمقمة وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر اعصرت من ذى القوارير والحساء والكتم
يرتج ما بين كعبيها ومرفقها إذا تأتت قياما ثم لم تقسم
أشبهه أم حكيم إذ تواصلنا

والحبل منها متين غير مُنْجَدم^(١)

إحدى بنى عامر حنّ الفؤاد بها ولو تشاء شفت كعنا من السقم
فرع الساء وفرع القوم والذها أهل المحلة وإيقفاء بالدم
لم أدر شمسا بليل قبلها طنعت حتى تجلت لنا فى لينة الظلم
وآدى كعب بن الأشرف الله ورسوله فقال عليه السلام :

— من لى بابى الأشرف ؟

فقال له محمد بن مسلمة أحو بنى عبد الأشهل :

— أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله :

— ففعل إن قدرت على ذلك .

فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يُعلق

به نفسه ، فذكر ذلك لرسول الله — ﷺ — فدعاه فقال له :

— لم تركت الطعام والشراب ؟

— يا رسول الله ، قلت لك قولا لا أدرى هل أفين لك به أم لا .

(١) مُنْجَدم : مقطوع

— إنما عليث الجهد .

— يا رسول الله إنه لا بد لنا من أن نقول .

— قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك .

فاجتمع في قننه محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة بن وقش أحد بني عبد الأشهل وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عيسى بن جبر ، فرأوا أن يقدموا إليه قبل أن يأتوه أبو نائلة سلكان بن سلامة يستدرجه ، فهو أخوه من الرضاعة وهو يطمئئ إليه ، فانطلق سلكان إلى حصص كعب وكانت الليلة مقمرة فهتف وكان حديث عهد بعُرس ، فوثب في ملحفته فأخذته امرأته بتأحيثها وقالت :

— إنك امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا يبرلون في هذه الساعة .

— إنه أبو نائلة ، لو وجدني نائما ما أيقظني .

— والله إنني لأعرف في صوته الشر .

— لو يُدعى الفتى لطعنة لأجاب .

فنزل فتحادث مع سلكان ساعة وتناشدا شعرا وكان أبو نائلة يقول الشعر ، ثم قال :

— ويحك يا ابن الأشرف ؟ إني قد جئتكم لحاجة أريد ذكرها لك ،

فاستمعني .

— أفعل .

— كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء في بلاء ، عادتنا به العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عما السبل حتى ضاع العيال وجهدت

الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالتنا .
— أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أحيرك يا بن سلامة أن الأمر
سيصير إلى ما أقول .
— إني قد أردت أن تبيننا طعاما ونرهلك ونوثق لك وتحسن في
ذلك .

— أترهوننى أبناءكم ؟
— لقد أردت أن تفضحنا ، إن معى أصحابا لى على مثل رأى وقد
أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ونرهلك من الحلقة
(السلاح) ما فيه وفاء .

وأراد سلكان أن لا يكر السلاح إذا جاءوا بها ، قال :
— إن فى الحلقة لوفاء
فرجع سلكان إلى أصحابه فأحبرهم وأمرهم أن يأخذوا السلاح ،
ثم يطلقوا فيجتمعوا معهم إلى بقيق انفرقد ثم وجههم فقال :
— اطلقوا على اسم الله . اللهم أعنهم .

ثم رجع — ^{عليه} — إلى بيته وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصن كعب ،
بهتوا به فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قال سلكان :
— هل لك يا بن الأشرف أن تماشى إلى شعب المعجوز (١)
فتحدث به بقية ليلتنا هذه ؟
— إن شقتم .

فخرجوا يمشون فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة أدخل يده فى فود

(١) شعب المعجوز بظاهر المدينة

رأسه ثم شم يده فقال :

— مارأيت كالليلة طيباً أعطر قط .

ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى أطمأن ، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه ثم قال :

— اصربوا عدو الله .

فصربوه فاحتلفت عليه أسيافهم فلم تكن عنهم شيئاً ، فتذكر محمد ابن مسلمة مغولاً^(١) في سيفه حين رأى أسيافهم لا تغنى شيئاً فأخذه وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولهم حصن إلا وقد أوقدت عليه نار ، فوضعه ما بين سرته وعانته ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ، فوقع كعب بن الأشرف يخط في دمه وأصابته بعض أسيافهم المحارث بن أوس بن معاذ فخرج في رأسه ، فخرجوا حتى سلكوا على بنى أمية بن زيد ثم على بنى قريظة ثم على بعث حتى ارتفعوا في حرة^(٢) العريض^(٣) وقد أبطأ عليهم صاحبهم المحارث بن أوس وقد أصغفه نرف الدم ، فوققوا له ساعة ثم أتاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه فجاءوا به رسول الله ﷺ — آخر الليل وهو قائم يصلي .

وخرج إليهم عليه السلام فأخبروه بقتل عدو الله ، فراح يضمده جرح صاحبهم وهو يستشعر راحة فقد قضى المسلمون على رجل

(١) المغول : السكين التي تكون في السوط

(٢) الحرة : أرض فيها حجارة سود

(٣) العريض : وادي المدينة

أحرق يزهو بالحوص في أعراض ساء مؤمنات .
ورجع رسول الله عليه السلام إلى أهله ورجعوا إلى أهلهم ،
فأصبحوا فإذا بأسواق اليهود ودورهم قد ارتحت لمقتل كعب بن
الأشرف ولم يبق في المدينة يهودى إلا وهو يرتجف فرقا ويخاف عبي
نصفه .

كان عبد الله بن أبي بن سلول رأسا في المدينة وكان من الحزج
 وكان سيد الطائفتين في الجاهلية وكانوا قد عزموا على أن يملكوه
 عليهم ، فجاءهم النخير وأسلموا واشتعلوا عنه فبقى في نفسه من
 الإسلام وأهله ، فلما كست وقعة بدر وأظهر الله كلمته قال .
 — هذا أمر قد توجه .

فأظهر الدحول في الإسلام ودخل معه طوائف من هم على طريقته
 وبحلته وآخرون من أهل الكتاب ، فمضى ثم وجد الصق في المدينة ومن
 حولها من الأعراب ، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد لأنه لم يكن
 أحد يهاجر مكرها ، بل يهاجر ويترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند
 الله .

وكان القرآن الكريم يزل ليس حال المسافقين الذين يظهرون
 الإيمان ويضطرون الكفر لثلا يغتر بطاهر أمرهم المؤمنون فيقع لذلك
 فساد عريض ، فهم أخطر على المجتمع المؤمن من الأعداء
 السافرين ، فقال الله تعالى فيهم : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله
 وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ يخادعون الله والذين آمنوا وما
 يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فرادهم الله مرضا
 ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في
 الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا

يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قنوا آمنا وإذا حلوإلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا انحلاله بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * مثلهم كمثل الذي استوفد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يحطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴿١﴾

كان المنافقون يظهرون غير ما يبطون وكانوا يلوذون باليهود ويقولون بهم . إنا معكم إنما نحن مستهزئون . وكان هناك رجال وأناس يؤدون رسول الله ﷺ بالقول وينظم الشعر وكان الشعر يتشر في المدينة وفي قریش وفي القبائل انتشار الريح فكان ذلك يثير عصب المسلمين .

كان أبو عطف من بنى عمرو بن عوف وكان يهوديا قد بلغ عشرين ومائة وكان يصعب إلى الحوار الدائر بين أخبار اليهود حول محمد عليه السلام ، فريق منهم يقول إنه النبي الذي بشر به الأنبياء وأن عليهم أن تبعوه وفريق يكر أن يبعث الله رسولا من غير بنى إسرائيل ويؤكد أن

اتباع النبي العربي الذي يؤمن بعيسى ويحمل مريم الطاهر إنما هو إقرار
مهم بأن آباءهم كانوا على ضلال لما أنكروا رسالة المسيح . وكان
ذلك الجدل يشير أبا علفك ويحرك مكاسم الخوف في نفسه على دين
اليهود ، فراح يسب الإسلام ويحرض على رسول الله — ﷺ ،
ويقول الشعر وكان فاحش القور بذي النسان ، فقال سالم بن عمير
وهو أحد البكائين ومن شهد بدرا :
— على نذر أن أقتل أبا علفك أو أموت دونه .

واطبق سالم إلى الشيخ الفاني الذي كانت عداوة رسول الله —
ﷺ — تسرى فيه مسرى الدم فقتله ، فلما ذاع بأ مقتل أبي علفك بين
اليهود انحلت قلوبهم رعبا وذهبت أنفسهم شعاعا وأعلفوا عليهم
حسبهم ، بيا قامت العصماء بت مروان روح يريد الحطمي وكانت
امرأة من الأنصار تشد الشعر وتعيب الإسلام وأهله وتؤب الأنصار في
اتباعهم رسول الله — ﷺ .

نافقت العصماء لما قتل أبو علفك فراحت تهجو رسول الله عليه
السلام وتهاجم المسلمين والإسلام وهي تحسب أنها في معزة من أهلها
فقد كان لها بنون خمسة رجال وكان بنو حطمة كثيرا عددهم وكانوا
على الشرك ، وكان يستخفى بإسلامه فيهم من أسلم خشية بسطش
الكفار .

وكان عمير بن عدى الحطمي صرير النصر وكان قد أسلم وحسن
إسلامه ، وكانت نوهة الحق تحتاجه كلما سمع شعر العصماء الذي
تعيب فيه الإسلام وأهله . وكان يريد في حقه أنها حطمية من رهطه
فعدت تراوده فكرة أن يقتلها ليمحو ذلك العار الذي بات يستشعره

كلما قرعت أذنيه كلمات هجوها بسية عليه السلام .

واستمرت العصماء بنت مروان في عيها ولجعت في العداوة والخصام ، فثار الصرير الذي كان أول من أسلم من بني حطمة وكان إمام قومه وقارئهم ، فمشى إليها في جوف الليل وطعنها طعنة أرهقت روحها الخبيثة ولم يول الأدبار ، بل قام في قومه يقول .

— يا بني حطمة أنا قتلت بنت مروان .

فاستبشر المؤمنون وحاف المفاقون وعضب الكافرون ولكن لم يحركوا ساكنا لما وجدوا أن الذين كانوا يحقون إسلامهم من بني حطمة قد أعلنوه لما رأوا من عز الإسلام .

ومشى الصرير إلى رسول الله — ﷺ ، وأخبره أنه قتل العصماء ، فقال رسول الله — ﷺ :

— لا ينتطح فيها عنران .

وسماه رسول الله عليه السلام البصير .

واستمرت الحصومات مشوبة الأوار بين المسلمين واليهود فكان أهل الكتاب يقولون للمؤمنين :

— نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتابا ونبينا قتل نبيكم .

فيقول المؤمنون :

— نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام وآمنا بنبيكم وبما أنزل من كتاب ، فأنتم تعرمون نبيا ثم تركتموه وكفرت به حسدا

وكان اليهود يعجبون للحجج التي يسوقها الأوس والخزرج ، إنهم كانوا قبل أن يقدم عليهم محمد عليه السلام لا يدرون ما الكتاب وما

الإيمان ولا يعرفون عن رسل الله شيئا ، فإذا بهم بعد أن دخلوا في الإسلام قد تفقهوا في الدين وأوتوا العلم والحكمة والبيان في بضع سنين ، وأصبحوا يحادلون الأبحار المتفقيين ويلزمونهم الحجة إن ما فعله محمد بن عبد الله في المدينة يثير الدهشة ، فقد ألف بين قلوب متنافرة وأزال الجهل الذي راد على بصائر العرب آلاف السنين ، فإذا بالأجلاف الذين كانوا ينظرون إلى أهل الكتاب الأول في إجلال وتوقير يصيرون ورثة العلم الذي فاض على الأفئدة لما وصلت الحقيقة إلى أعماق النفوس .

كانت أول مرة سمعوا فيها بمحمد بن عبد الله يوم أن جاءهم الضر ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط يسألانهم عن محمد ، فقالوا لهما . سلوه عن ثلاث تأمركم بهن ، فإن أحبركم بهن فهو نبي مرسل . سلوه عن فتية ذهبا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كن لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومعاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هي ؟ فإذا أحبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي وإن لم يفعل فهو رجل مقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

وأنزل الله تعالى سورة أصحاب الكهف فيها خبر الفتية الذين ذهبوا في الدهر ، وخبر الرجل الطواف ذي القرنين ، وأرسل في الروح : ﴿ قل أرواح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (١) . لقد قرئت عليهم سورة أصحاب الكهف وما أنزل في الرجل الطواف والروح فاسترحت قلوب بعض اليهود للإسلام ، وقدم جدال

شديد بين الدين قالوا بأنه سى مرسل وبين الذين زعموا أنه منقول على الله . وكان محور الجدل أنه لم يأت بحبر عن الروح .

فلما قدم رسول الله ﷺ — المدينة قالت أحبار يهود :

— يا محمد أرأيت قولك : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ .
إيانا تريد أم قومك ؟

— كلاً .

— فإنك تلو فيما جاءك : إنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء .

— إنها فى علم الله قليل وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .

فأنزل الله تعالى فيما سأله عنه من ذلك : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجر أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (١) .

وآمن نفر من يهود فاشتد الحوار بين المؤمنين من أهل الكتاب الأول والكافرين بمحمد وبما جاء به ، وراحت المدينة تبض بالمناقشات الدائرة بين رسول الله ﷺ ، وبين أحبار اليهود المكدين ، فلما أدب بلال لأول مرة من مسح الرسول عليه السلام هرع إليه يهود وقالوا :

— يا محمد قد أبدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم ، فإن كنت تدعى النبوة فقد خالفت فيما أحدثت من هذا الأذان الأنبياء والرسل من قبلك ، فمن أين لك صياح كصياح البعير ، فما أفتح من صوت ولا أسمع من كفر .

وأعرض عنهم رسول الله عليه السلام ، واستمر الأذان يجلبجلب خمس مرات في اليوم في أنحاء المدينة يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فزاد ذلك في حقهم وقالوا مستهزئين إدا ما نادى منادى رسول الله عليه السلام إلى الصلاة :
— قوموا صلوا أركعوا .

فيقومون ليقلدوا المسلمين في صلاتهم وهم يصحكون ، فأمر الله تعالى : ﴿ وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخلوها هروا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ . قل يا أهل الكتاب هل تنقمون ما إلا أن آما بالله وما أنزل إليا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وعصب عليه وجعل منهم انصردة والجارير وعبد الطاعوت أولئك شر مكانا وأضل عس سواء السبيل ﴿١﴾ .

وكانت وقعة بدر بين المسلمين وقريش وبصر الله ديه وقتل صاديد مكة وساداتها ، وعاد رسول الله ﷺ — إلى المدينة بالأسرى مقرين فعاد الجدل بين يهود ، قال فريق منهم : إنه النبي الذي بعده في التوراة وأنا نطلم أنفسا بعداوته . وقال فريق آخر : ما كان الله ليعث رسولا من الأميس . كأنما قد كتب الله على نمسه عهدا ألا يعث رسلا إلا من بنى إسرائيل لكأنما كانوا هم وحدهم من حنقه ومن عداهم من خلق الشياطين !

ونشب الحوار بين الذين قالوا إنه النبي المنتظر ، قالت طائفة : إن

النصر حليفه على الدوام وهذه علامة من علاماته وإبهم سيعلون على
الملا إسلامهم وقات طائفة : إنهم سينظرون وقعة ثانية بين محمد بن
عبد الله وبين الكافرين فإذا ما انتصر عليهم نارة أخرى كان ذلك تأكيدا
على أنه النبي الذي بشرت به الأنبياء ، من تحقق فوق حيوشه ألوية
النصر المبين .

وكان أشرف اليهود أكثر الناس عداوة لرسول الله ﷺ —
وللمؤمنين ، فقد ناصبوه عليه السلام العدا مد وطئت قدماه أرض
يثرب ، فقد صايقهم أنه آمن بالسيد المسيح وبالحمل الطاهر ، فكان
ذلك الإيمان تسفيها لأحلام بائهم الذين أصروا على إنكار رسالة اسيد
المسيح ، وقد رأوا في اتباعه إقرارا منهم بأن آباءهم كانوا في الجهالة
يعمهمون ، فراحوا يحاولون أن يقنعوه عليه السلام بأن يتهود ليخرجوا
من مأزق الاعتراف برسالة عيسى بن مريم .

ولم يصح عليه السلام للإعراء الذي كانوا يقدمونه إليه في كل
صورة ، فلما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة وصرفت في رجب
عني رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه عليه السلام ، أتى رسول الله ﷺ —
رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الأشرف ورافع بن
أبي رافع والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف والربيع بن أبي
الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق فقالوا :

— يا محمد ما ولاك عن قبلك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك
على ملة إبراهيم وديه ؟ ارجع إلى قبلك التي كنت عليها تتبعك
ونصدقك .

كانوا يريدون تنته عن ديه فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يقول

السمهاء من الناس ما ولاهم عن قبضتهم التي كانوا عليها قل لله انمشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم * وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا العقلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الدين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرعوف رحيم ﴿١﴾ .

وفجر انتصاره عليه السلام في بدر فقد أعدائه الذين أبوا أن يؤمنوا برسائله ، فانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة يرثي قتلى بدر ثم عاد إلى المدينة يشيب بساء المسلمين ، فكان قتله جردا وفاقا على وقاحته . وكان بنو قينقاع أول يهود نضرو ما بينهم وبين رسول الله ﷺ — وحاربوه فحاصروهم خمس عشرة ليلة حتى برزوا على حكمه .

وظلت المدينة تحقق بالأحداث والحوار الدائر بين رسول الله ﷺ — والمؤمنين وبين أهل الكتاب الذين لجؤا في الحصام فأمر الله تعالى : ﴿ هذين حصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجنود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ودوقوا عذاب الحريق * إن الله يدخل الدين آمنوا وعملوا الصالحات حبات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أسوار من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير * وهنوا إلى الطيب من الفول وهنوا إلى صراط الحميد ﴾ ﴿٢﴾ .

لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بن حرب بغيره ، مشى عبد الله بن أبي جهل وصفوان بن أمية والحارث بن هشام والأسود بن عبد المطلب وجير ابن مطعم وحويطب بن عبد العزى في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا :

— يا معشر قريش ، إن محمدا قد وترككم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرا بمن أصاب منا
فقال أبو سفيان :

— وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟
نعم .

— فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي .
فلما أجمعوا على المسير قالوا :

— سير في العرب فنستنصرهم في عبدة منا غير متخلفين عنا .
هم أوصل العرب لأرحامنا ومن اتبعنا من الأحابيش .
فأجمعوا على أن يبعثوا أربعة من قريش يسرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم ، فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب بن الزبير وأبا عزة الجمحي ، فأبى أبو عزة أن يسير وقال :

— من على محمد يوم بدر وحلفت ألا أظاهر عليه عدوا أبدا .
فمشى إليه صفوان بن أمية فقال :

— اخرج .
فأبى وقال :

— عاهدت محمدا يوم بدر ألا أظاهر عليه عدوا أبدا وأنا أفى بما
عاهدته عليه .

فظل صفوان به حتى خرج يسير في تهامة ويدعو بى كنانة
ويقول :

إيه بنى عبد مناف الررام^(١) أتم حماة وأبوكم حام
لا تسلموني لا يحل إسلام لا يعدوني نصركم بعد عام

وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح إلى بنى
مالك بن كنانة يعرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله — ﷺ ،
فقال :

يا مال^(٢) ، مال الحسب المقسّم
أنشد ذا القربى وذا التذمّم
من كان ذا رُحْم ومن لم يرحم
الجلف وسط البلد المحرم
عند حطيم الكعبة المُعظّم

(١) الوزام : الذين يثبتون في مكانهم وقت القتال .

(٢) يا مال : أراد يا مالك فحذف الكاف لترحيم ، ودو التذمّم . هو الذى
له ذمام أى عهد .

وخرج النفر فألوا العرب وجمعوا وبلغوا ثقيفا فخرجوا للغزو ،
فما أجمعوا المسير وتألب من كان معهم من العرب وحضروا ،
واختلفت قريش في إخراج النساء معهم قال صفوان بن أمية :

— اخرجوا بالطعن^(١) فأنا أول من فعل ، فإنه أقمن أن يحفضكم
وبدكرنكم قتلى بدر ، فإن العهد حديث ونحن قوم متسورون
مستميتون لا نريد أن نرجع إل ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه .
فقال عكرمة بن أبي جهل :

— أنا أول من أجاب إلى ما دعوت إليه .

وقال عمرو بن العاص مثل ذلك ، فمشى في ذلك نوفل بن معاوية
الذيلي فقال :

— يا معشر قريش ، هذا ليس برأى أن تعرضوا حُرْمَكُم لعدوكم ،
ولا آمن أن تكون الدبرة^(٢) لهم فتفتضحوا في نساءكم .
فقال صفوان :

— لا كان غير هذا أبدا !

فجاء نوفل إلى أبي سفيان بن حرب فقال له تلك المقالة ، فصاحت
هند بنت عتبة :

— إنك والله سلمت يوم بدر فرحمت إلى سائلك ؛ نعم نخرج
فشهد القتال فقد ردت القيان من الجحفة في سمرهم إلى بدر ، فقتلت
الأحبة يومئذ .

(١) الطعن : جمع طعنة وهي المرأة في اليهودج .

(٢) العانة .

فقال أبو سفيان :

— لست أحالف قريشا ، أنا رحل منها ، ما فعلت فعلت .

ودعا جبير بن مطعم علما له حشيا يقال له وحشى يقذف بحرية له قدف الحبشة قلما يحطىء بها ، فقال له .

— اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعى طعيمة بن عدى فأنت عتيق .

فخرجت قريش بحذها وحدها وحديدها وأحايشها ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالنساء فى الهودج التماس الحفيظة وألا يفروا . فخرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس بامراتين : هند بنت عتبة بن ربيعة وأميمة بنت سعد بن وهب بن أشيم ابن كنانة ، وخرج صفوان بن أمية بامراتين : برزة بنت مسعود الثقفى والبقوم بنت المعدل من كنانة ، وخرج طلحة بن أبى طلحة بامراته سلافة بنت سعد بن شهيد وهى من الأوس وهى أم بيه مسافع والحارث وكلاب والحلاس بن طمحة ، وخرج عكرمة بن أبى جهل بامراته أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وخرج الحارث بن هشام بامراته فاطمة بنت الوليد بن المعيرة ، وخرج عمرو بن العاص بامراته هند بنت مبه ابن الحجاج ، وخرجت خنساء بنت مالك إحدى نساء بى مالك بن حنسل مع ابنها أبى عزيز بن عمير أخى مصعب بن عمير من بنى عبد الدار ، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامراته رملة بنت طارق ابن عنقمة الكنانية ، وخرج كنانة بن عبي بن ربيعة بن عبد العرم بن عبد شمس بن عبد مناف بامراته أم حكيم بنت طارق ، وخرج سفيان بن عوف بامراته قتيلة بنت عمرو بن هلال ، وخرج النعمان بن عمرو

وأخوه حابر مسك الذئب بأمهما اللدعية ، وخرج غراب بن سفيان بن عوف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة الكنانية ، وخرج سفيان بن عوف بعشرة من ولده وحشدت بنو كنانة .

وكانت همد بنت عتة كلما مرت بوحشى أو مر بها قالت :
— وَيَهْأُهَا دَسْمَةُ اشْفِ واستشف .

وخرجت قريش كلها ومن اجتمع إليها من القبائل من كنانة والأحابيش وغيرهم على لواء واحد يحمله طلحة بن أبي طلحة ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل وكان فيهم من ثقيف مائة رجل ، وخرجوا بعدة وسلاح كثير وقادوا مائتي فرس وكان فيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير

وقعد العباس بن عبد المطلب في مكة بعد أن راودوه على الحروب معهم فاعتذر بما لحقه من القوم يوم بدر ولم يساعدهم بشيء ، فلما أجمعوا على المسير كتب إلى رسول الله ﷺ — كتابا وختمه وأستأجر رجلا من بني عفار وشرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بياليتها ، فراح العماري ينهب الأرض بفرسه حتى قدم المدينة فلم يجد رسول الله ﷺ — بها وعدم أنه بقاء ، فانطلق إلى هناك فوجد رسول الله ﷺ — على باب مسجد قباء يركب حماره ، فدفع إليه الكتاب فمك حتمه ودفعه إلى أبي بن كعب فعذا يقرأ :

— إن قريشا قد اجتمعت للمسير إليك ، فما كنت صانعا إذا حلوا بك فاصنعه . وقد وجَّهوا وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير وقد أوعبوا من السلاح .
واستكنتم بني الإسلام عليه السلام أيما ما فيه ، ودخل مرل سعد بن

الربيع فقال :

— أفنى البيت أحد ؟

— لا فنكلم بحاجتك .

فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب .

فجعل سعد يقول :

— يا رسول الله والله إنى لأرجو أن يكون فى ذلك خير .

وانصرف رسول الله — ﷺ — إلى المدينة وقد استكنم سعد بن

الربيع الخبر ، فلما خرج رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — من

منزله حرجت امرأة سعد بن الربيع إليه فقالت :

— ما قال لك رسول الله — ﷺ — ؟

— ما لك ولذاك ؟ لا أم لك .

— كنت أستمع عليكم .

وأخبرت سعد الحبر ، فاسترجع وقال :

— لا أراك تستمعين عليا وأنا أقول لرسول الله — ﷺ — تكلم

بحاجتك .

ثم أخذ يجتمع لئمتها ، ثم حرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله —

ﷺ — بالجسر فقال :

— يا رسول الله إن امرأتى سألتنى عما قلت فكتمتها ، فقالت : قد

سمعت قول رسول الله — ﷺ — . ثم جاءت بالحديث كله ، فحشيت

يا رسول الله أن يظهر من ذلك شيء فتصبنى أفشيت سرك .

— خل سبيلها .

وأرجفت يهود المدينة والمنافقون وقالوا :

— ما جاء محمداً شيء يحبه .

وشاع الخبر بين الناس بمسير قريش ، وقدم عمرو بن سالم الحزاعي في نفر من حزاعة ساروا من مكة أربعاً فوافوا قريشاً وقد عسكروا بذي طوى ، فأخبروا رسول الله ﷺ — ثم انصرفوا ، ولقوا قريشاً ببطن رابع وهو أربع ليال من المدينة فنكبوا عن قريش . فلما أصبح أبو سفيان بالأبواء حيث قبر أمنة بنت وهب أخبر أن عمرو بن سالم وصحابه راحوا أمس ممسين إلى مكة ، فقال أبو سفيان :

— أحلف بالله أنهم جاعوا محمداً فحبرّوه بمسيرنا وعددنا وحذروه منا ، فهم الآن يرمون صياصبيهم ، فما أربنا نصيب منهم شيئاً في وجهنا .

قرر أبو سفيان أن محمداً عليه السلام والدين معه قد دخلوا حصونهم لما بلغهم خبر مسير قريش ، فحرك ذلك حية الأمل في نفوس المشركين فقال صفوان بن أمية :

— إن لم يُصَحِّروا^(١) لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه ، فتركناهم ولا أموال لهم فلا يختارونها أبداً ، وإن أصحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم وسلاحنا أكثر من سلاحهم ولنا خيل ولا خيل معهم ، ونحن نقاتل على وتر عندهم ولا وتر لهم عندنا .

وكان أبو عامر القاسق قد خرج في خمسين رجلاً من الأوس حتى قدم بهم مكة حين قدم النبي ﷺ — المدينة يحرض قريش ويعلمها

(١) أصحروا : خرجوا إلى الصحراء .

أنها عني الحق وما جاء به محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر ولم يسر معها . فلم خرجت قريش إلى أحد مسار معها وكان يقول لقريش :

— إنني لو قدمت على قومي لم يحتنف عليكم منهم اثنان ، وهؤلاء معي نفر منهم خمسون رجلا .

فصدقوه بما قال وطمعوا في نصره .

وخرج النساء معهن الدخوف يحرضن الرجال ويذكرنهم قتلى بدر في كل منزل ، وجعلت قريش تنزل كل مهل ينحرون ما نحروا من اجزر مما كانوا جمعوا من العيين ويتقوون به في مسيرهم ويأكلون من أروادهم مما جمعوا من الأموال .

ونشرت هند بنت عتبة إلى قبر آمة بنت وهب فقالت لزوجها أبي سفيان :

— إنكم قد حرستم بالظفر معكم ونحن نحاف على سائنا فتعالوا نبش قبر أم محمد فإن النساء عورة ، فإن يصب من نسائكم أحدا قلتن : هذه رمة أمك ، فإن كان برا بأمه — كما يرعم — فنعمرى لنفادينهم برمة أمه . وإن لم يظفر بأحد من نسائكم فلعمرى ليعدين رمة أمه بمال كثير إن كان بها برا .

فاستشار أبو سفيان بن حرب أهل الرأي من قريش في ذلك فقالوا :

— لا تذكر من هذا شيئا ، فلو فعلنا نبشت بو بكر وخزاعة موتانا .

وكانت قريش بدى الحليفة يوم الحميس صبيحة عشر من محرجهم من مكة وذلك لخمس ليال مضين من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة ، فلما أصبحوا بدى الحليفة خرج فرسان

مهم فأنزلوهم الوطاء^(١) .

وبعث النبي — ﷺ — عيين له أنسا ومؤنسا ابى فصالة لبنة الحميس ، فاعترضا لقريش بالعقيق فسارا معهم حتى نزلوا الوطاء ، وأتيا رسول الله — ﷺ — فأخبراه .

وكان المسلمون قد اردرعوا الوادى وكان أهله بنو سلمة وحارثة وظفر وعبد الأشهل ، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرعهم ليلة الحميس المدينة فقدم المشركون على زرعههم فحلوا فيه إبلهم وحيولهم حتى تركوا الوادى ليس به حضراء .

وبعث رسول الله — ﷺ — الحباب بن المنذر بن الجموح إلى انقوم لما نزلوا الوادى واطمأنوا ، فدخل فيهم وحرز ونظر إلى جميع ما يريد وكان بعثه سرا وقال له :

— إذا رجعت فلا تحبرى بين أحد من المسلمين إلا أن ترى فى القوم قلة .

فرجع إليه فأخبره خاليا وقال له :

— رأيت عددا حررتهم ثلاثة آلاف يريدون قليلا أو يقصون قليلا ، والحيل مائى هرس ورأيت دروعا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع .

— هل رأيت ظعنا ؟

— نعم . رأيت النساء معهن الدفوف والأكبار (الطبول) .

— أردن أن يحرضن القوم ويذكرهم قتلى بدر ، هكذا جاءنى

(١) الوطاء : ما انخفض من الأرض .

خبرهم . لا تذكر من شأنهم حرفا . حسينا الله ونعم الوكيل . اللهم
بك أجول وبك أصول ا

وكان مقدم قریش يوم الخميس لحمس حلول من شوال ، وباتت
وجوه الأوس والخرج سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عباد
في عدة مهم ليلة لجمعة عليهم السلاح في المسجد باب النبي —
عليه السلام — خوفا من تبیت المشرکین ، وحرست المدينة تلك الليلة حتى
أصبحوا . ورأى رسول الله — ﷺ — رؤيا ليلة الجمعة شعلت كل
تفكيره .

وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة حتى إذا كان بأدنى
الوادي إذا طبيعة حبل المشرکین عشرة أفراس ركضوا في أثره ، فوقف
لهم على شرم الحرة فشقهم بالنل مرة وبالحجارة مرة أخرى حتى
انكشفوا عنه ، فلما ولو جاء إلى مزرعته بأدنى الوادي فاستخرج سيفا
كان له ودرع حديد كان له دعا في ناحية لمزرعة بهما يعدو حتى أتى
بني عبد الأشهل فخير قومه بما لقي .

واجتمع المسلمون لصلاة الجمعة ووقف رسول الله عليه السلام
على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس إني رأيت في منامي رؤيا ؛ رأيت كأني في درع
حصينة ، ورأيت كأني سيمي ذا الفقار انفصم من عذ ظيته ، ورأيت
بقرا تذبح ، ورأيت كأني مردف كبشا .
فقال الناس :

— يا رسول الله فما أولتها ؟

— أما الدرع الحصينة فالمدية ، وأما انفصام سيمي فقتل رجل من

أهل بيتي ، وأما اسفر المذبح فقتلى في أصحابي ، وأما أنى مردف
كيشا فكش الكتبية بقتله إن شاء الله .

وقصيت صلاة الجمعة والتف المهاجرون والأنصار برسول الله —
صلى الله عليه وآله — فقال :
— أشيروا على .

ورأى — صلى الله عليه وآله — ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ورسول الله عليه
لسلام يحب أن يوافق على مثل ما رأى وعلى ما عر عليه الرؤيا ، فقام
عبد الله بن أبي فقال :

— يا رسول الله كنا نقاتل في الجاهلية في هذه المدينة ونجعل
النساء والمرارى في هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة . والله لربما
مكث الولدان شهرا يبقون الحجارة إعدادا لعدونا وبشك المدينة
بالبيان فتكون كالحصص من كل ناحية ، وترمي المرأة والصبي من
فوق الصياصي والآطام ونقاتل بأسيانا في السكك .

يا رسول الله إن مدينتنا عذراء ما قصت عليها قط ، وما حرحح إلى
عدو قط منها إلا أصاب منا وما دخل عينا قط إلا أصابه ، فدعهم يا
رسول الله هاربهم إن أقاموا أقاموا بشر محسن وإن رجعوا حاسرين
مقلوبين لم يبالوا خيرا ، يا رسول الله أطعني في هذا الأمر واعلم أنى
ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم ، فهم كانوا أهل
الحرب والتجربة .

فكان رأى رسول الله — صلى الله عليه وآله — مع رأى ابن أبي ، وكان ذلك رأى
الأكابر من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وآله — من المهاجرين
والأنصار ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وآله — :

(عروة بدر)

— امكنوا في المدينة واحصوا النساء والذراري في الآطام ، فإن
دُخل عينا فأتسأهم في الأرقعة فحس أعذب بها منهم ، ورُموا من فوق
الصياصي والآطام .

فقال فتیان أحداث لم يشهدوا بدرا :

— اخرج بنا إلى عدونا .

بهم رعوا في الشهادة وأحبوا لقاء العدو . وقال رجال من أهل
القطنة وأهل السس منهم حمزة بن عبد المطيب وسعد بن عبادة
والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والحزرج .

— يا بحشى يا رسول الله أن يطر عدونا أنا كرها الحروح إليهم
حيثما عن لقاءهم فيكون هذا حراًة منهم عليا . وقد كنت يوم بدر في
ثلاثمائة رجل فظفرك الله بهم ونحن اليوم بشر كثير . وكنا نتمنى هذا
اليوم وندعو الله به فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا هذه .

ورسول الله — ﷺ — لما رأى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا
السلاح يحطرون بسيوفهم يتساومون كأنهم المحول :

وقال مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري :

— يا رسول الله نحن والله بين إحدى الحسينيين ، إما أن يطعربا الله
بهم فهذا الذى نريد فيدلهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر فلا
يقتى منهم إلا الشريد ، والأخرى يا رسول الله يرقبنا الله الشهادة والله
يا رسول الله ما نألى أيهما كان ، إن كلا لعيه الخير

وقال حمزة بن عبد المطيب وكان صائما :

— لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم يسمى خارجا من المدينة

وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بى سالم :

— يا رسول الله أنا أشهد أن البقر المدبّح قتلى من أصحابك وأنى
مهم ، فلم تحرمنا الحجة ؟ فوالله الذى لا إله إلا هو لأدّخلها .

وقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

— بم ؟

— إني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الرحف .

— صدقت .

وقال إياس بن أوس بن عتيك :

— يا رسول الله نحن بنو عبد الأشهل من البقر المدبّح ، نرجو يا
رسول الله أن تدبّح فى القوم ويُدبّح فىنا فصير إلى الحجة ويصيرون إلى
الدار ، مع أنى يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فتقول
حصرنا محمداً فى صياصي يثرب وأطامها فتكون هذه جرأة لقريش
وقد وظفروا سغفراً ؛ فإذا لم يدب عن عرصنا علم نذرع ؟ وقد كنا يا
رسول الله فى جاهليتنا والعرب يأتوننا فلا يظلمون بهداً ما حتى نخرج
إيهم بأسيافاً فمدبهم عنا ، فحسن اليوم أحق إد أمدنا لله بك وعرفنا
مصيرنا ألا نحصر أنفسنا فى بيوتنا .

وقام خيصة ، أبو سعد بن خيصة ، فقال :

— يا رسول الله إن قريشاً مكثت حولاً تجمع الجموع وتستجلب
العرب فى بواديها ومن اتبعها من أحايشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل
واعتلوا الإبل حتى نزلوا ساحتنا فيحصرونا فى بيوتنا وصياصيا ثم
يرجعون وافرير لم يكلموا فيحرثهم دنك علينا حتى يشقوا الغارات
علينا ويصيروا أطلالاً ويصعروا العيون والأرصاد علينا مع ما قد صمعوا
بحروثنا ، ويحترق علينا العرب حولنا حتى يظلموا فىنا إذا رأوا لم

مخرج إليهم فلبثهم عن حريصا . وعسى الله أن يُظفر بها بهم فتدك عادة الله عددا أو تكون الأخرى فهي الشهادة .

لقد أخطأتني وقعة بدر وقد كنت عنها حريصا ، لقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الحروح فمخرج سهمه فُرِّق الشهادة ، وقد كنت حريصا على الشهادة . وقد رأيت ابني البارحة في اليوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأبهارها وهو يقول . احق بما نرافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقا ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سني ودق عظمي وأحببت لقاء ربي فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة .

فدعا له رسول الله بذلك .

وقال أنس بن قنادة :

— يا رسول الله هي إحدى الحسينيين ، إما الشهادة وإما العيمة والطفر بقتلهم .

فقال رسول الله ﷺ :

— إني أخاف عليكم الهزيمة .

فأبوا إلا الحروج والجهاد ، فوعظهم عليه السلام وأمرهم بالجد و جهاد وأحبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ففرح الناس حيث أعلمهم رسول الله — صلى الله عليه وآله — بالشحوص إلى عدوهم ، وكره ذلك المحرج بشر كثير من أصحاب رسول الله وأمرهم بالتهيو لعدوهم ، ثم صلى العصر بالناس وقد حُشد الناس وحضر أهل العوالي ورفعوا النساء إلى الآطام ، فحصرت بنو عمرو بن عوف يلقبها

والنبي^(١) ولقيها وتلبسوا السلاح ، فدخل رسول الله ﷺ — بيته ودخل معه أبو بكر وعمر فعمّاه ولساء .

وصف الناس له ما بين حجرته إلى منبره ينتظرون خروج ، فحاهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا لهم :

— قلتم لرسول الله ما قلتم واستكرهتموه على الخروج والأمر ينزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه فما أمركم فافعلوه وما رأيتم فيه له هوى أو أربا فأطيعوه .

فبينما القوم على ذلك من الأمر وبعض القوم يقول :

— القول ما قال سعد .

وبعضهم على البصيرة على الشحوص وبعضهم للخروج كاره ، إذ حرج رسول الله — صلى الله عليه وآله — قد لبس لأمته (قد لبس الدرع) فأظهرها وحرم وسطها بمنطقة من حمائل سيف من آدم كانت بعد عد آل أبي رافع مولى رسول الله — ﷺ ، واعتم وتقلد السيف . فلما خرج رسول الله — ﷺ ، يدموا جميعا على ما صنعوا وقال الذين يلحقون على رسول الله — ﷺ :

— ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك .

فقال عليه السلام :

— قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبىتم . ولا ينبغي لبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

اختلفوا في الخروج من المدينة واسقام بها ، وكره النبي ﷺ الخروج ثم خرج عبي مفضل ، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج ، ثم عزم رسول الله عليه السلام على الخروج بعد أن لبس لأمنه ، ففرقت الكلمة فيما كانت الكلمة يوم بدر واحدة لكأنما قد اجتمع المسلمون يوم ذلك على قلب رجل واحد . ترى هلى يتصورون فى هذه الغزوة كما انتصروا يوم بدر والبصر معقود بالعزم والحد والبصيرة فى الحرب واتفاق الكلمة ؟

وكان مائل بن عمرو المجارى مات يوم الجمعة ، فلما دخل رسول الله ﷺ — وليس لأمنه ورح وهو موضوع عند موضع الجوائز صلى عليه ثم دعا بفرسه ثم قال للمسلمين :
— انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فكم البصر ما صبرتم .

وركب رسول الله ﷺ — إلى أحد .

التذيل

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « الله » : ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى . وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات ؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المنفرقة التي يعالجها العلم تارة ، والصناعة تارة أخرى .

ويقول علماء المقابلة بين الأديان : إن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب ، وهي :
دور التعدد .

ودور التمييز والترجيح .

ودور الوحدة .

ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتحد لها أرباباً تعد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبد أو تعويذة تنوب عن الرب في الحصول وتقبل الصلوات والقرابين .

وهي الدور الثاني وهو دور التمسر والترجح تقى الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها في المرور والرححان على سائرهما ، إما لأنه رب القبيلة الكبرى اتى تدين لها القائل الأخرى بالرعاية وتعتمد عليها في شئون الدعا والمعايش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعا مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب ، وهي موضع رجاء أو حشية يعلو على موضع الرجاء والحشية عند لأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

وهي الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة ، ويحدث في هذا الدور أن تفرض لأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المعلومة بالخصوع لإلهها مع بقاءه وبقاء عبادته كبقاء التابع لمتنوع والحاشية للملث المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشبع فيها المعرفة ويتعدى فيها على العقل قبول الحرافات التي كانت سائجة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة ، وتقترب العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيراً ما يصرده الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحققة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحضيرة السماوية .

والرأى الأرجح عند علماء المقابلة بين الأديان أن الاعتقاد بالثنائية

يأتى أحيانا كثيرة بعد اعتقاد الوجدانية ، ويعلمون ظهور الثنائية بعد الوجدانية بأن الإنسان يترقى في هذا الطور فيحاول تفسير الشر في الوجود بنسبته إلى إله غير إله الحير ، ولا يكون هذا من قبيل النكسة في عقيدته لأنه لا يزال يسيغ تعدد الأرباب ويسيع التمايز والترجيح بينها والتفاوت بين درجاتها وطبائعها . فلا تكون الثنائية بعد الوجدانية نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدما من الأدنى إلى الأعلى لتنزيه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع صور الكمال الموافقة لترقى الإنسان في أطوار العبادة .

ويرى علماء المقابلة بين الأديان أن وحدة الوجود تأتى بعد جميع هذه الأطوار توفيقا بين النقائص والضرورات وإثباتا لوجود الله من طريق الثبوت الذى لا شك فيه ، وهو ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان . واختلف علماء المقابلة بين الأديان على أصل العقيدة الدينية أو أصل الباعث عليها ، فمن قائل إن الأساطير هي أصل الدين بين الهنوع ، ومن قائل إن ملكة الاستحياء هي أصل الاعتقاد بالأرباب ، ويرجح آخرون أن السحر هو أصل العبادة وأصل الشعائر الدينية ، ويعمل آخرون العقيدة الدينية بضعت الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من قوى الطبيعة والأحياء ، فلا غنى له عن سد يندعه ابتداء ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصنوات في شدته وبلواه .

يقول الفيلسوف كونت : « إن الدين عبادة الإنسانية » ؛ ويقول سيكا . « إن الدين معرفة لله والتشبه به » ؛ ويقول الفيلسوف الألمانى كنت : « ينحصر الدين في اعتقادنا بأن كل واجباتنا أوامر إلهية » ، ويقرر إسكندر باين : « أن الدين عاطفة يكونها الانفعال الهادىء

مقرونا بالخوف وحساسية الخضوع للعظمة » ، ويقول هكسلى .
« إن الدين لإجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه
فى الحياة » .

ورأى بعض المفكرين أن الوجود البشرى إن هو إلا حوار مع الله .
وجعل بعض المفكرين من الروح الدينية عرضا من أعراض طفولة
الشعوب أو تصور العقل البشرى أو انحراف الشخصية الفردية ، وعجز
المفكرون والفلاسفة عن تقديم تحليل يتفق عليه عن أصل العقيدة الدينية
وأصل الباعث عليها .

وقد أخذ الأستاذ العقاد فكرة ترقى الإنسان فى العقائد وترقيه فى
العلوم والصناعات من قول علماء المقابلة بين الأديان بأن هناك ثلاثة
أطوار عامة مرت بها الأمم حتى وصلت إلى الوحدةانية ، وهذا القول
خاطئ من وجهة النظر الإسلامية ، فهو يعتمد على فكرة أن الله من
خلق الإنسان ، وينفى عنه الثبات .

يقول القرآن الكريم إن الله خلق آدم وأن آدم كان على علم : ﴿ وإذ
قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من
يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني
أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة
فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا أعلم
إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أبشهم بأسمائهم فلما
أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض
وأعلم ما تبذلون وما كنتم تكتمون ﴾ (١) . فتكون الوحدةانية ومعرفة

الله هي الطور الأول من الأدوار التي مرت بها عقائد الشعوب حسب ما يقرره القرآن المجيد .

كان آدم على علم بالله بل كان أكثر البشر معرفه به ، فقد جرى يسه وبين خالقه حوار مباشر دون وساطة حجب : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَرْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٢) .

ولم تقطع صلة آدم بالله عقب هبوطه إلى الأرض بل اصطفاه ربه ليسخ يسه حقيقة لحق ، فلم يعرفوا إلا إلها واحدا لا شريك له ولم يتحدوا أربابا بالعشرات كما يزعم علماء المقابلة بين الأديان الذين يدحض نظريتهم واقع التاريخ .

فلو كانت نظرية النمو الديني صحيحة لبدات العبادة بعبادة أرباب متفرقين ، ثم بانتصار رب س الأرباب وبدء دور التمييز والترجيح ، ثم ترتقى البشرية وتشيع المعرفة ويتعذر على العقل قبول الحرافات ، ويأبى عصر النور الإلهي ولا تكون ردة بعده أبدا . ولكن الدارس لتاريخ الديني للبشرية يجد أن هذا التسلسل الذي يحاول أن يمتنطقه علماء الأديان لم يكن له مكان في تاريخ البشرية الطويل ، فلو أننا تركنا مسألة خلق آدم كان على علم ، ولو لم نعرف بأن إدريس الحفيد

السابع لآدم قد نادى بالتوحيد ، وأنكرنا رسالة نوح مع المسكرين ، وسلمنا بأن إبراهيم الحليل لم يدع إلى الإسلام ولم يعرف الله الواحد القهار ولم يدع إلى عبادته وحده ، ولم نعترف مثلهم إلا بما نقش على الحجر أو وجد مكتوبا على ورق الردى ، وتوغلنا معا فى جوف الزمن حتى وصل إلى محر الضمير الذى تكون فى مصر فى زمن الفراعين ، فإننا نجد أن أحياتون قد عرف التوحيد ، فما إن تولى الملك حتى ثار عسى دين آمون وعلى ما يتبعه الكهنة من أساليب ، وأعلن فى شجاعة أن ديانة المصريين وثنية وأنكر الآلهة جميعا إلا إلها واحدا لا شريك له هو « آتون » ، وهو خالق حرارة الشمس ومعذبيها ، وأن كل ما فى الشمس من مجد ملتهب إن هو إلا رمز للقدرة العاتية التى لا تراها العيون .

وحرم أحياتون رسم صور للإله « آتون » فهو يرى أن إلهه الحق لا صورة له . وراح يناجى ربه قائلا :

— ما أجمل مطلق فى أفق السماء !

أى « آتون » الحى .. مبدأ الحياة .

فإذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى .

ملأت الأرض كلها بجمالك .

إنك جميل .. عظيم .. براق .. عال فوق كل الرعوس !

أشعنتك تحيط بالأرض ، بل بكل ما صغت !

وإنك تربطها جميعا برباط حبك !

ومهما بعدت فإن نورك يعمر الأرض !

ومهما علوت فإن آثار قدميك هى النهار !

ما أبهى الأرض حين تشرق فى الأفق .

هذا هو أبحاثون وهذا هو توحيد مندهم لتاريخ ، فهو كانت
 صرية ارتقاء الإنسان فى العقائد كارتقاءه فى العلوم والصاعات
 صحيحة ، ولو كان قول علماء المقالة بين الأديان بأن هك ثلاثة
 أصور عامة مرت بها الأمم لبدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب حتى
 وصلت إلى دور اتوحيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
 بحق على البشرية ألا تتردد إلى عبادة أرباب متعرقين بعد أن اهدت إلى
 الإله الواحد . ولكن الواقع التاريخي يكذب هذه المرامم كلها ، فقد
 كانت لبشرية تعرف التوحيد ثم تعود إلى الشرك ثم التوحيد
 بشرك والقرآن بكريم يوضح هذا التدبب بين التوحيد وبشرك
 نبي توحيه : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا
 رَّبٍّ مِنْ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمْ
 الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
 الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصَافِرَاتِ الْيَمِّ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً
 لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَا كُنْتَ بِحَاجٍ الْعَرَبِيَّ إِذْ قَصَّيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ
 وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنْ أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا
 كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (٢) ،
 ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ
 وَعِدَانَا حَسْبًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ
 رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ (٣) ، ﴿ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ يَمِينِهِمْ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ الْيَمِينِ وَالنَّهَارُ مِنْ

(١) الحديد ١٦ .

(٣) طه ٨٦

(٢) القصص ٤٣ — ٤٥ .

الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون * أم لهم آلهة تسمعهم من دونه لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم ما يُصحبون * بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض نقصها من أصرافها أفهم العالمون * قل إنا أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴿١﴾ .

فالقرآن الكريم يكذب نظرية ترقى الإنسان فى العقائد ترقية فى العلوم ، ويؤكد أن القائلين بمرور البشرية بأطوار ثلاثة هى التعدد والتميز والترحيح والوحدانية قد جاعاهم التوفيق ، فالأصل التوحيد ثم طول الأمد فقسوة لقلوب وإرسال رسول يوحى إليه أنه لا إله إلا الله فيدعو قومه إلى التوحيد ويقضى على المخرافات والأساطير ، فيطول على الناس العهد فيتحذون آلهة فى الأرض وفى السماء ويشركون ربهم لعالمين ، فيأتىهم ذكر من ربهم فيعودون إلى الإيمان بإله واحد فى السماء والأرض المستعان على ما يصفون .

إنها فى نظر الإسلام دورة : وحدانية فشرى بالله ، سواء أكان ذلك الشرى تعدد الأرباب أو ثنائية فى الاعتقاد بوجود إله مدحير وإله للشرى ، وإرسال رسول إلى الدين طال عليهم الأمد فقسمت قلوبهم ليعبر صدورهم بمر التوحيد ، فطول العهد ، فردة إلى الشرى المقيت ، وإرسال رسول بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم .

وتاريخ الشرى سواء أكان التاريخ الدينى الذى جاء فى الكتب

السماوية ، أو التاريخ الذى نقش على الحجارة أو كتب بالحط المسماوى على الطين ثم جفف ، أو دون على ورق البردى أو الرقاق أو سعف الحيل ، يؤيد الحقيقة القرآنية كل التأيد ويسحر من الرعم الذى وصل إليه من عرفوا بعلماء المقارنة بين الأديان من أن البشرية قد مرت بأطوار ثلاثة قل أن تبلغ بضح التوحيد .

يقرر القرآن أن آدم كان على علم وأن الله اصطفاه ليعين لبيه أن الله واحد لا شريك له ، فلما طال على بيه العهد ألقوا المحسوس وركنوا إليه وطنوا أنه لا عالم سوى ما هم فيه من مطعم شهى ومظر بهى ولا عالم وراء هذا المحسوس ، فقست قلوبهم فأرسل إليهم إدريس ليحررهم من الظلمات إلى النور ، وكانت رسالة إدريس أول خطوة على الطريق الطويل الذى ستقطعه الرسالات لتأكيد وحدانية الله على مر العصور .

وعرف الناس التوحيد والبعث والخلود ثم ارتدوا إلى الظلمات بعد النور ، فأرسل الله رسله ليزيل العشاوات التى رأت على القلوب لتبلغ هى الصدور أنوار الحقيقة : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ بَأُ الْذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَعْيَاهُمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطْمَرن السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُبْعَثَ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُزَحِّركُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ إِنْشَاءٌ إِلَّا يَشْرَ مِثْلًا تَرِيدُونَ أَنْ تَصْطَلُونَ عَمَا كَانَ يَعْبَدُ آبَاؤُنَا فَأَنُونا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يُمْرُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِذُنْ

الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آديتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴿١﴾ .
وقد عرف الناس الإيمان والإلحاد منذ بدء الخليقة ، عرفوا الكمال والحرمان والحلال والعرض والملأكة واللوح والبقم والجنة والبار ، ثم لما طال عليهم الأمد قالوا إن أنهار الجنة وطورها وثمارها إن هي إلا ترغيبات للعوام بما يميل إليه طباعهم ، وإن سلاسل البار وأغلالها إن هي إلا خزي ونكال وترهيبات للعوام بما يزجر عنه طباعهم

وقد عرف الصابغة الأولى عاذيمون وهمس وهما شيت وإدريس عبيهما السلام ، فما طال عبيهم الأمد قالوا بحدود وأحكام عقلية أحلوا أصولها وقوانينها من مؤيد بالوحي ، ثم أنكروا الوحي والرسالة فقالوا إن الأنبياء أمثال في النوع وأشكالنا في الصورة ويشاركونا في المادة ويأكلون مما يأكل ويشربون مما يشرب ، أناس بشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم ؟ وبأية مزية لهم لرميت متابعتهم ؟ ﴿٢﴾ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذ لا تخاسرون ﴿٣﴾ .

وقالوا : الروحانيات هم الأسباب المتوسطة ، في الاختراع والإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال ، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال ، يستمدون القوة من الحضرة القدسية ، ويمصون الفيض على الموجودات السفلية .

فمنها مديرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها وهي هيكلها ؛ فلكل روحاني هيكل ، ولكل هيكل فلك ، ونسبة الروحاني إلى ذلك

(٢) المؤمنون ٣٤ .

(١) إبراهيم ٩ — ١٢ .

الهيكل — الذى احتص به ، سبة الروح إلى الجسد ، فهو ربه ومديره ومديره .

وسموا الهيكل أربابا ، وربما سموها آباء والعاصر أمهات . ففعل الروحانيات تحريكها على قدر محصور ليحصل من حركاتها افعالات فى الطوائع والعاصر ، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات فى المركبات ، فتبعها قوى حسانية ، وتركب عليها نفوس روحانية مثل أنواع النبات وأنواع الحيوان .

ثم قد تكون التأثيرات الكنية صادرة عن « روحانى كلى » ، وقد تكون جزئية صادرة عن « روحانى جزئى » ، فمع حسن المظهر منك ومع كل قطرة ملك .

ومنها مديرات « الآثار العنوية » انظاهرة فى الجو : مما يصعد من الأرض هيرل مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ، ومما يهزل من السماء مثل الصواعق واشهب ، ومما يحدث فى الجو من الرعد والبرق والسحاب والصيد وقوس قزح ودوات الأدباب والهالسة والمجرة ، ومما يحدث فى الأرض مثل الرلزل والمياه والأبحرة .

ومنها « متوسطات القوى » السارية فى جميع الموجودات ومديرات الهداية الشائعة فى جميع الكائنات ، حتى لا نرى موجودا ما حاليا من قوة وهداية إذا كان قابلا لهما .

بمثل هذا التفكير تحول الإنسان الأول من عبادة الله الواحد القهار إلى عبادة الملائكة والكواكب والأجرام السماوية وبعض ظواهر لطبيعة ، بعد أن حذع نفسه بقوله إن الواجب الإقرار بالعجز عن الوصول إلى جلال الله ، وإنما يقترب إليه بالمتوسطات المقربين لديه

(عروة بلر)

وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرًا وفعلاً وحالة .
وقد انقسم أهل الأهواء والحل مد بدء التاريخ إلى صيحين دهرين
قد أنفوا المحسوس وركبوا إليه وطلوا أنه لا عالم سوى ما هم فيه ،
وإني فلاسفة إلهيين ترقوا بالتحصيل عن المحسوس وأثبتوا المعقول
ولكنهم لا يقولون بحدود وأحكام وشرائع ويؤمنون بأن الشرائع
والحلال والحرام مسائل وضعية فيها مصلحة الناس ، وإلى صائفة
يقولون بالمحسوس والمعقول والحدود والأحكام ولا يقوون
بالشريعة التي أتى بها رسل الله وأنبيأؤه .

كانت رسالة إدريس دعوة إلى عبادة الله ، إلى العودة إلى الصراط
المستقيم ، إلى الوحدة بعد الشرك بالله ، فلما طان على الناس لعهد
عبسوا الملائكة والكواكب واتخذوا لها أصناما ترمز إليهم ، فأرسل الله
إليهم نوحا : ﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أندر قومك من قبل أن
يأتهم عذاب أليم ﴾ قال يا قوم إني لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله
واتقوه وأطيعوا * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل
سمى .. ﴿ (١) ، ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا
الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما
هذا إلا بشر مثكم يريد أن يفتصل عيكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما
سمعنا بهذا في آياتنا الأولى * إن هو إلا رجل به جنة فترصبوا به حتى
حين ﴾ ﴿ (٢) ، ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين * أن لا
تعبدوا إلا الله إني أخاف عيكم عذاب يوم أليم * فقال الملأ الذين

كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرادنا
بأدى الرأى وما يرى لكم علينا من فصل بل نطعنكم كاذبين * قال يا قوم
أرأيتم إن كست على بينة من ربى وأناى رحمة من عبده فعصيت عليكم
أنلزمكموها وأنتم لها كارهون * ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى
إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إياهم ملافور بهم ولكنى أراكم قوما
تجهلون * ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون * ولا
أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول
للذين تزدرى أعينكم لى يؤتيهم الله حيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا
لمن الظالمين ﴿١﴾ .

دعوة إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده قبل أن تقوم مملكة آشور
ومملكة بابل فى بلاد ما بين النهرين ، وقل أن يزعم الملوك أن المملكة
قد نزلت من السماء ، وقل أن يجلس الملوك على العرش تشبها بالله
وعرش الله ! دعوة مبكرة إلى الوحدانية تدحض مراغم القائلين بترقى
الإنسان فى العبادة ترقىه فى العلوم والصناعات وتكذب رعم علماء
المقابلة بين الأديان الذين حسبوا أن الحضارة البشرية مد مطرد لا
تعتوره نكسات ، فقالوا إا البشرية قد مرت بأطوار النمو الدينى حتى
بلغت رشد الإيمان بإله واحد قهار .

وطال على الناس العهد فقسى قلوبهم فعادوا إلى عبادة الملائكة
والكواكب والنجوم واتخذوا من دون الله آربابا ، فأرسل الله إليهم
أحاهم هوذا ليعهدهم إلى الصراط المستقيم : ﴿١﴾ وإلى عاد أحاهم

هوذا قال يا قوم اعدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * قال الملأ
الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا سطيك من الكاديين * قال
يا قوم ليس بي سفاهة ولكي رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات
ربي وأن لكم ناصح أمين * أو عجنتم أن جاءكم ذكر من ربكم عني
رجل منكم لينذركم وادكروا إذ جعلكم حلفاء من بعد قوم سوح
ورادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴿١﴾

وعرفت البشرية التوحيد مرة أخرى ، فلما طال على الناس الأمد
قست قلوبهم فارتدوا إلى الشرك وعبادة الأصنام التي اتخذوها رموزا
للملائكة أو الكواكب السيارة أو الظواهر الطبيعية التي كانت تنزل
الرعب في قلوبهم أو يأملون منها الخير العظيم .

ولما كانت سنة الله سبحانه وتعالى أن يرسل الرسل إلى عبده بعد
أن تقسو قلوبهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فقد أرسل
صالحا إلى قومه : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما
لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية
فادروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم *
وذكروا إذ جعلكم حلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتحلون من
سهولها قصورا وتحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في
الأرض مفسدين ﴾ (٢) .

كانت الدعوات كلها تستهدف عودة البشرية إلى عبادة الله وحده ،
وقد كادت أن تكون عبارات الدعوة واحدة ، فنوح عليه السلام يقول

لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وهو يقول
 لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وكذلك
 كانت دعوة صالح . ولم يتخذ أحد منهم اسماً للدين الذى يدعو إليه
 لأن البشرية لم تكن قد تفرقت فى الدين إلى مذاهب ، ولم يتخذ
 المشركون لأديانهم أسماء يميزون دياناتهم بها فقد كانوا يؤمنون أنهم
 يتقربون إلى الله بالمتوسطات المقربين إليه . أما فى زمن إبراهيم الخليل
 فقد أطلق على أديان الكفر أسماء فعرفت عبادة نانا وهى عبادة القمر ،
 وعبادة مردوخ وهى عبادة كوكب المشترى ، وعبادة شمش وهى
 عبادة الشمس ، ثم أطلقت أسماء على عبادات الشرك فكان لا بد من
 إطلاق اسم على دين الله ، فكان الإسلام ذلك الاسم منذ رسالة إبراهيم
 عليه السلام ، وقد أطلق بعد ذلك على كل عبادة تدعو إلى التوحيد :
 ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو احتياكم وما جعل عليكم فى
 الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى
 هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا
 الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم تنعم المولى ونعم
 النصير ﴾ (١) .

وكانت دعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يقيمان القواعد من البيت أن
 يجعلهما الله مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة : ﴿ ربنا واجعلنا
 مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ (٢) .
 وأكد القرآن الكريم أن من يرغب عن ملة إبراهيم إنما يفسده نفسه ،

وأر بيه ويعقوب (إسرائيل) كانوا مسلمين . ﴿ ومن يرعب عن ملة إبراهيم إلا من سمعه نفسه ولقد اصطفيه في الدنيا وإنه في الآخرة لس الصالحين ﴾ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بيه ويعقوب يا بني إن الله صطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون ﴿ (١) .

وعبدت الشمس قبل إبراهيم الحنين وعبدت من بعده في بلاد ما بين النهرين وفي مصر وفي اليمن وفي كل بقاع الأرض التي كانت مأهولة بالسكان في ذلك الزمان ، وهذه حقيقة لا تنفق مع ما يقول به علماء المقابلة بين الأديان من أن أطوار العقيدة الإلهية تشعبت بين الناس فلم تطرد عني مراحل متشابهة في جميع الأمم ولا في جميع الأديان ، وأن عقيدة الأرواح لم تفارق أطوارها الأولى ، وأن عبادة الأسلاف امتزجت بعقيدة الأرواح ثم اتسعت نظرة الإنسان إلى دياه حتى التمس بها عنة في السماء فكانت الشمس هي أكبر ما رآه وتوجه إليه بالعبادة ، ثم أصبحت الشمس رمز للحالق حين تجاورها الإنسان بنظره إلى ما هو أعظم منها وأعلى ، فهي القطرة الأخيرة بين العدوتين . عدوة التعديد وعدوة التوحيد .

ولم يبق بعد اعتبار الشمس رمزا للقوة الكونية إلا قبول التوحيد الصحيح ، فتعلمه الإنسان من الديانات شيئا فشيئا حتى بلغ بالقوة

الإلهية نهاية التبريه .

وكان الله باللغة الآرامية « الإيل » فسمى إبراهيم ابنه البكر إسماعيل
أى من سمع الله لك فيه ، وسمى حفيده إسرائيل ، وسبى مدينه بابل
إبنه باب إيل . ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن الله : « ويدلنا هذا
الترقى الدينى من ترقى العقل فى تفسير كلمة الإله ... فكلمة « إيل »
بالآرامية مرادفة لمعى القوى أو البطل ، ثم أصبحت كلمة الإيل
بالتعريف مرادفة لبطل الأبطال أو لسطولة المطلقة ، كما يميز عالما
بكلمة العالم مع التعريف ، ليقول إنه العالم دون سواه »

أحد الأستاذ العقاد نظرية الترقى الدينى عن علماء المقابلة بين
الأديان ، وإن المدارس لتاريخ البشرية الدينى يحدد فى يسر أن هذه
النظرية محض خيال ، فقد ارتدت البشرية عن لوحداية بعد إبراهيم
الحليل وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف ، فلما طل على الناس
الأمد قست قلوبهم وسوا الإسلام الذى دعا إليه كل الرسل والأنبياء من
بعد حليل الرحمن عليه السلام ، فيوسف الصديق يسأل ربه أن يتوفاه
مسلماً ويدحه بالصالحين . ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعمتتى من
تأويل الأحاديث فاصر السماوات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة
توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ (١) .

وعادت البشرية إلى الشرك بالله ودور تعدد الآلهة والأرباب بعد
التوحيد ، حتى بنو إسرائيل ورثة العلم والتوحيد عبدوا العجل وما كان
يعبد المصريون ، فأرسل الله إليهم موسى عليه السلام ليعيد الإسلام

ناصحا كما كان أيام إبراهيم الخليل أبى المسلمين : ﴿ ولقد أرسنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ (١) .

ولم يطلق بنو إسرائيل التوحيد طويلا ، فقد طلبوا أن يرددوا إلى الشرك والتعدد وموسى كلم الله فيهم ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ ولم يكتفوا بالتمسك بل عبدوا العجل لما ذهب موسى لميقات ربه . ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا حسدا له خوار ﴾ (٢) . ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلقتُموني من بعدى ﴾ (٣) .

ونك موسى عليه السلام التوراة فإذا ببني إسرائيل يحتفلون فيها ويقسمون إلى شيع وأحزاب كل طائفة تكفر الأخرى . ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاحتمل فيه ولولا كلمة سقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ (٤) .

وبعث الله داود إلى بني إسرائيل وآتاه ربورا ليعيد بني إسرائيل إلى الإسلام دين الله مد بدء الحقيقة الذي لم يعرف الترقى ولا التدليل والتغيير . دين لعطرة الذي كانت رسالته عني الدوام أن لا إله إلا الله . وورث سليمان داود واستمر في الدعوة إلى التوحيد وإلى الإسلام : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا عني وأتوبى مسلمين ﴾ (٥) .

(٢) الأعراف ١٤٨ .

(٤) هود ١١٠

(١) هود ٩٦ — ٩٧ .

(٣) الأعراف ١٥٠ .

(٥) المل ٣٠ — ٣١

﴿ قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسسته نحة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح مجرد من قوارير قالت رب إننى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ (١) .

وعرفت اليهودية كديس بعد داود وسليمان فلم يكن لها ذكر قبل ذلك ، فداود وسليمان كانا من نسل يهوذا الابن الرابع ليعقوب (إسرائيل) . فلما آل إليهما ملك بنى إسرائيل رأى رهط يهوذا أن يتهزوا هذه الفرصة وأن يحدثوا اعتلاء اليهوديين عرش بنى إسرائيل لأول مرة ، هفوا عن داود وسليمان الرسالة وثبتوا لهما الملك فقالوا داود الملك وسليمان الملك ثم أطلقوا اليهودية على ما ابتدعوا من دين .

وإن الواقع التاريخي يؤيد هذه الحقيقة . وقد جاء فى القرآن الكريم : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما نزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ (٢) .

وقد عقد كل من هنرى برستيد فى كتابه حجر الصمير وأرثر ويجال فى كتابه حياة إخناتون مقارنة بين صوات إخناتون وأحد مزامير داود فانفقت المعانى بينهما اتفاقا لا ينسب إلى توارد الخواطر ، وقد خلاصا من ذلك أن المزامير قد أخذت معانيها عن ابتهالات إخناتون .

وقد يكون ذلك الاستنتاج صحيحاً ولكنه لا يصح في رسالة داود ، فإن اليهود في مذهبهم في بابل قد أعادوا كتابة التوراة متأثرين بالديانة البابلية والديانة المصرية ، ولم يجعلوا داود نبياً بل مبكاً له خطأياً قد يترفع عنها سواد البشر . إن القرآن الكريم يقرر أن الله قد أتى داود ربوراً كما أتى موسى فرقاناً ولم يثبت أن المزامير الواردة في توراة بابل هي الزبور الذي ذكره الله في قرآنه .

وألف « فرويد » كتاباً سماه « موسى والوحدانية » عقد فيه مقارنة بين عقائد إختنوتون والعقائد العبرية ، وانتهى من مقابلاته وفروصه إلى تقرير رأيه المرجح لديه : وهو أن موسى عليه السلام تربى في مصر في كنف الوحدانية ونشأ في أعقاب المعركة بين آتون وآمون واستعد للنبوة في هذه البيئة الموحدة معهم بنى إسرائيل كيف يوحدون الله ويعظمون صفاته وآلاءه . وكان خروج بني إسرائيل — في رأيه — فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، أى في الجيل التالي لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية .. واسترسل فرويد في تقديراته — وهو من بنى إسرائيل — حتى ظن أن موسى عليه السلام من دم مصري وليس من اللاويين كما جاء في التوراة .

وقد رأى المنكرون لرسالات من رجال هذا العصر في قول بريستد وويجال وفرويد ما يؤيد إلحادهم ، واطمأنوا إلى هذه الاستنتاجات كأنما كانت حقيقة لا يأتيها الباطل من أمامها ولا من خلفها ولا عن يمينها ولا عن يسارها . ولكن حمريات البحر الميت ألقت الضوء على رأى جديد يقول إن موسى كان في عهد تحتشمس الثالث وأن تحتشمسوت هي التي التفتته من اليم ، أى قبل عهد الصراع بين آمون

وآتوب وقبل أن يولد أحماتون ، فرعرع ذلك الاكتشاف حبال الأوهام التي أقامها في الهواء بريستد وويحال وفرويد .

وطال على بني إسرائيل ، الأمد فقسفت قلوبهم ونسو الإسلام الذي جاءهم به موسى ، فوصفوا الله بالصفات البشرية وسبوا القراءة الإنسانية إليه ، فأطلقوا على أبنائهم عمائيل (من العمومه) أو إيل أب من الأبوة ، وغير ذلك من أواصر الأسرة البشرية .

ونسبوا إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته ، فذكروا أنه كان يتمشى في الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب . وأنه دفن موسى حيثما مات في مؤاب اثم اتحدوا التماثيل رمزا للإله وسرعان ما عبدوها . وقد جاء في الإصحاح الثامن عشر من كتاب الملوك الثاني أن حرقيا ملك يهوذا : « .. أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع الصواري وسحق حية السحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها » .

وغرا سوحد نصر (بحتنصر) إسرائيل وحمل بني إسرائيل أسرى إلى بابل ، وهي أرض المسمى تأثر بو إسرائيل بعقائد البابليين ونسوا الجنة والنار وما جاءهم به موسى بعد أن حرق بحتنصر كل نسج التوراة . وفي أرض السبي أعاد أنبياء بني إسرائيل كتابة التوراة فسدوا فيها أساطير الشعوب ووصفوا أنبياء الله بكن نقيصة . ولما كان البابليون لا يؤمنون بالبعث ويقولون إن الموتى يذهبون إلى الأرض التي لا رجعة منها فقد حلت التوراة التي كتبت في بابل من ذكر البعث واليوم الآخر . فالأرض السفلى أو الحب أو شبول هي الهاوية التي تأوى إليها الأيتام بعد الموت ولا نجاة منها لميت ... وإن الذي يرل

إلى الهاوية لا يصعد » .

كان قدماء المصريين يؤمنون بالبعث والحساب قبل أن تكتب التوراة في بابل بآلاف السنين ، فما رأى السادة علماء المقابلة بين الأديان القتالين بالترقى في الديانات على مر العصور ؟ ألم يكن المراعين الأولون أكثر رقىا في العقيدة من بني إسرائيل في المنفى ؟ وفي ذلك الوقت قام في فارس زرادشت يدعو إلى عبادة أهورامزدا إله النور ، وعرفت فارس التوحيد واعتنق الناس ديانة زرادشت ، وسرعان ما عادوا إلى عبادة النار ومزحوا الأساطير بالدين انقيم فأدا بأهورامزدا يصبح على رأس سعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة .

وعرف المجوس الثنائية في العبادة فقالوا إن أهورامزدا إله النور والخير وأهريمان إله الظلام والشر . وقد عرف الثنائية قبلهم قدماء المصريين فقالوا إن أروريس إله الخير وست إله الشر . وقد كانت الثنائية معروفة منذ فجر التاريخ وهذا يدحض رعم علماء المقابلة بين الأديان بأن الثنائية تأتي غالبا بعد التوحيد وأنها ليست بكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدا من الأدنى إلى الأعلى ، لتنزيه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع صور الكمال الموافقة لترقى الإنسان في أطوار العبادة .

وعاد بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وقد تأثرت ديانتهم بديانة البابليين وأساطيرهم ، وضاعت آفاقهم الدينية فقالوا إن الإله هو رب إسرائيل وحدهم وزعموا أنهم الناس وأن من عداهم أمم ، كلاب البشرية ، وقالوا إن الذي يعيش في بيت المقدس فهو يعيش مع الله ، ووصفوا « يهوه » إلههم بأنه غير شديد البطش متعطف إلى الدماء

سريع العصب ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه ، وزعموا أن
الرسالة فيهم وحدهم فهم شعب الله لمختار

يزعم بنو إسرائيل أن الله اصطفاهم وأن الرسالة والنبوة فيهم . ويزعم
بعض علماء الأديان أن الرسالة والنبوة انحصرت في الشرق الأوسط
ويسوقون لذلك تفسيرات يحاولون أن يبدسوها ثوب العلم واليقين .
ولكن الباحث في ديانات الهند وپارس والممالك التي كانت معروفة
في زمن الرسالات يجد فيها آثار ديانات سماوية طمستها الأساطير لما
طال عني الناس العهد . وإن القرآن الكريم يقرر : ﴿ إن من أمة إلا خلا
فيها نذير ﴾ (١) . ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ (٢) .

ويذكر الشهرستاني في كتابه « الملل والحل » أن اليونان عرفت
النبوة وأن حكماءهم تأثروا بها ، وأن تاليس المنطى الذي كان أول من
تفلسف في ملطية وثال : إن للعالم مدعا لا يدرك صغته العقول من
جهة هويته إنما يدرك من جهة آثاره ، وهو الذي لا يعرف اسمه فضلا
عن هويته إلا من نحو أفاعيله وإبداعه وتكوينه الأشياء . فلسفا يدرك له
اسما من نحو ذاته إنما من نحو ذاتنا . إنما تلقى مذهبه من مشكاة
النبوة ، فتاليس يقول إن المبدع الأول هو الماء . وفي السفر الأول من
التوراة : (إن مبدأ الحق هو جوهر خلقه الله تعالى ، ثم نظر إليه نظرة
إلهية فدايت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم ثار من الماء بخار مثل الدخان
فخلق منه السماوات ، وظهر على وجه الماء زيد مثل زيد البحر فخلق
منه الأرض ثم أرساها بالجبال » .

ويقول أنكسيماس المنطى : « إن البارى تعالى رلى لا أول له ولا آخر ، هو مبدأ الأشياء ولا بدء له ، هو المُدرك من خلقه أنه هو فقط وأنه لا هوية تشبهه وكل هوية فمُبدعة مه ، هو الواحد ليس كواحد الأعداد ، لأن واحد الأعداد يتكرر وهو لا يتكرر ... أبداع بوحداية صورة العنصر ، ثم صورة العمل ابعتت عنها ببدء البارى تعالى » .
ويقرر الشهر ستانى فى نهاية حديثه عن فلسفة أنكسيماس : « هو أيضا من مشكاة البوة اقتبس ، وبعبارات اقنوم التنس » .
أما عن رأى أنباد قليس فيقول الشهر ستانى : « وهو من الكبار عند الجماعة ، دقيق الطر فى العلوم رقيق الحال فى الأعمال . وكان فى رمن داود البى عليه السلام — مضى إليه وتلقى مه العلم واحتلف إلى لقمان الحكيم واقتبس مه الحكمة ، ثم عاد إلى يونان وأفاد .
قال : إن البارى تعالى لم ترل هويته فقط وهو هو العلم المحص ، وهو الإرادة المحصة ، وهو الجود والعرة والقدرة والعدل والخير والحق ... لأن هناك قوى مسماة بهذه الأسماء ، بل هى هو وهو هذه كلها .

ويستمر الشهر ستانى فى سرد مذاهب الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة ، ويبدءون بتاليس الملطى ويتهون بأفلاطون ، مؤكدا أنهم قد أجدوا الحكمة من معدن البوة ، فيقول إن فيثاغورس الذى ادعى أنه شاهد العوالم بحسه وحده وبلغ فى الرياضة إلى أن سمع حفيف القلث ووصل إلى مقام الملك وقال . ما سمعت شيئا قط ألد من حركانها ، ولا رأيت شيئا أبهى من صورها وهياتها . وقال إن البارى تعالى واحد لا كالأحاد ، ولا يدخل فى العدد ولا يدرك من جهة العقل

ولا من جهة النفس ، فلا العكر العقلى يدركه ولا المطلق النفسى يصفه ، فهو فوق الصفات الروحانية غير مدرك من نحو ذاته ، وإنما يدرك تأثيره وصائمه وأفعاله فيثاعورس هذا كان فى زمان سليمان النسي ابن داود عليهما السلام .

وسقراط اقتبس الحكمة من فيثاغورس واقتصر من أصنافها على الإلهيات والأخلاقيات ، واشتهر بالزهد ورياسة النفس وتهذيب الأخلاق وأعرض عن ملاذ الدنيا واعتزل إلى الجبل وأقام فى أعلاه . ونهى الرؤساء الدين كانوا هم رماه عن الشرك وعبادة الأوثان فتوروا عليه الفاقة وألجئوا ملكهم إلى قتله ، فحبسه الملك ثم سقاه السم . قال سقراط : إن البارئ تعالى لم يرل هوية فقط وهو جوهر فقط . وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المطلق والعقل قاصرين عن اكتناه وصفه وحقيقته وسميته وإدراكه ، لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره ، فهو المدرك حقا والواصف لكل شيء وصفا والمسمى لكل موحود اسما ، فكيف يقدر المسمى أن يسميه اسما ، وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفا ١٩ . فراجع فتصيفه من جهة آثاره وأفعاله ، وهى أسماء وصفات إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر المحيرة عن حقيقته ، وذلك مثل قولنا : إله أى واضح كل شيء ، وخالق أى مقدر كل شيء ، وعزير أى ممتنع أن يضام ، وحكيم أى محكم أعماله عني النظام ، وكذلك سائر الصفات .

ثم إن مذهب « سقراط » أن أخص ما يوصف به إلهى تعالى هو كونه حيا قيوما ، لأن العلم والقدرة والجود والحكمة ... تندرج تحت كونه حيا ، والحياة صفة جامعة لكل ، والبقاء والسرمد والدوام

وحفظ النظام فى العالم تدرج نحت كونه قيوما ، والقيومة صفة جامعة لكل .

وربما يقول : هو حى ناطق من جوهر أى من داته ، وحياتنا ونطقنا لا من جوهرنا ولهذا يتطرق إلى حياتنا ونطقنا العدم والذئور والفساد ، ولا يتطرق إلى حياته ونظمه — تعالى وتقدس .

ومن مذهب سقراط أن النفوس الإنسانية كانت موجودة قبل وجود الأبدان على نحو من أنحاء الوجود إما متصلة بكلها وإما متميزة بدواتها وحواسها ، فاتصت بالأبدان استكمالا واستدامة ، والأبدان قوالها وآلاتها فتظل الأبدان وترجع النفوس إلى كليتها .

وقال الشهر ستانى عد الحديث عن رأى أفلاطون الإلهى إنه آحر المقدمين الأوائل الأساطين معروف « بالتوحيد » والحكمة ، ولد فى زمن أردشير بن دارا فى سنة ست عشرة من ملكه ، ولما اعتيل سقراط بالسم ومات قام مقامه وجلس على كرسىه ، وقد أخذ العلم من سقراط وطيمارس وصم إليه العلوم الطبيعية والرياضة .

وحكى عنه قومه معر شاهده وتلمذ له مثل . أرسطاطاليس أنه قال : إن لعالم محدثا مبدعا أرليا واجبا بداته ، عالما بجميع معوماته على نعت الأسباب الكلية ، كان فى الأزل ولم يكن فى الوجود رسم ولا طلل إلا مثالا عند البارى تعالى ، ربما يعبر عنه بالهولى وربما يعبر عنه بالعصر ولعله يشير إلى صور المعلومات فى علمه تعالى

قال . فأبدع العقل الأول ويتوسطه النفس الكلية ، وقد ابعت عن العقل ابعاث الصورة فى المرأة ويوسطها العصر .

وقال : والعالم عالمان : عالم العقل وفيه المثل العقية والصور

الروحانية ، وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور الجسمانية ، كالمرآة المجلوة التي تنقطع فيها صور المحسوسات . فإن الصور فيها مثل الأشخاص ، وكذلك العصر — في ذلك العالم مرآة لجميع صور هذا العالم يتمثل فيه جميع الصور كلها ، غير أن الفرق أن المسطع في المرآة الحسية صور خيالية يرى أنها موحودة تتحرك بحركة الشخص وليس في الحقيقة كذلك ، وأن المتمثل في المرآة العقلية صور حقيقية روحانية هي موحودة بالفعل تحرك الأشخاص ولا تتحرك ، فنسبة الأشخاص إليها كنسبة الصور في المرآة إلى الأشخاص فلها الوجود الدائم ولها الثبات القائم ، وهي تمايز في حقائقها تمايز الأشخاص في ذواتها .

وقال : وإنما كانت هذه الصور موحودة كلية دائمة باقية ، لأن كل مبدع صهرت صورته في حد الإبداع فقد كلست صورته في عالم الأور الحق والصور عنده بلا نهاية ، ولو لم تكن الصور معه — في أرليته — في علمه لم تكن لتبقى ، ولو لم تكن دائمة بدوامها لكانت تدثر بدثور « الهيولي » ، ولو كانت تدثر مع دنور الهيولي لما كانت على رجاء ولا خوف ولكن لما صارت الصور الحسية على رجاء وخوف استدل به على بقائها ، وإنما تبقى إذا كانت لها صور عقلية في ذلك العالم ترحو السحاق بها وتحاف التحيف عنها .

قال : وإذا اتفقت انعلاء على أن هناك حسا ومحسوسا وعقلا ومعقولا ، وشاهدا بالحس جميع المحسوسات وهي محدودة ومحصورة بالزمان والمكان ، فيجب أن شاهد بالعقل جميع المعقولات وهي غير محدودة ومحصورة بالزمان والمكان ، فتكون

مثلا عقلية .

أحد الحكماء السبعة حكمتهم من مشكاة النبوة ، فلما طال على
الس العهد تشعبت آراء الفلاسفة وحكمهم وقد تفسد أهل
الكتاب لأول والعلم الأول بعد أن أفسدوا تورا في أرض المنفى ،
وكان أقدم فلاسفة اليهود الذين أسسوا قطرة الاتصال بين الدير
والفلسفة فيلون السكندري الذي ولد في السنة العشرين قبل الميلاد
وتوفي بعد ذلك بنحو سبعين سنة .

تقدم اليهود في الزمن وتقدموا في دراسة الفلسفة اليونانية ، وبلغ
احتلاطهم بمذاهب الفلسفة أتمه في مدينة الإسكندرية قبل الميلاد
لأنها أصبحت مركز الثقافة في العالم المتحضر بعد انتهاء عصر الفلسفة
من أثينا وسائر بلاد الإغريق .

تعلم فيلون من دينه أن لله ذات ، وتعلم من الفلسفة اليونانية أن الله
عقل مطلق مجرد من ملاسبات المادة ، فلم يستطع أن يقبل الصفات
والأنباء التي أسندت إلى الله في كتب اليهود بدلائلها الحرفية ونصوصها
الطاهرة ، ولم يستطع أن يجاري الفلاسفة في عزلهم بين الله ومخلوقاته
ورفعهم عناية الله عن الاشتغال بأحوال هذه المخلوقات .

إلا أنه كان على اقتناع مكين بتسريه الله عن صفات التشبيه
والتجسيم ، وكان يرى أن عقل الإنسان لن يستشيت من صفات الله
شيئا ، غير أنه موجود ولكه في وجوده الكامل المطلق أعلى من أن
تحده صفة تدركها العقول .

فكيف يتأتى الاتصال بين هذا الحائق وبين مخلوقاته في هذه الصور
الامادية ؟ وكيف يفهم لصفات والأشياء التي أسندت إليه في كتب أسياء

اليهود ؟

أما كتب الأنبياء فهو لا يرفضها ولكنه يقبها على الرمز والمجاز ، ويقول إنها تنطوي على حقيقة أعمق من الحروف والصووص يفهمها المستعدون لها على درجات ، وأما الاتصال بين الخالق والمادة فإما يكون بوسيلة العقل أو الكلمة ، فالعقل يصدر عن الله والمادة تقاد للعقل فتتحرك وتنظم وتعدد فيها طبقات المخلوقات .

وكان فيلون يرفض أقوال الروافيين التي تشبه القول بوحدة الوجود وتجعل الله من العالم والعالم من الله ، ولكنه كذلك كان يرفض مذهب أرسطو في تحريده الله عن العمل في المخلوقات ورعه أن كمال الله يقتضى هذا التحريد . قال : إن بعضهم ممن فاق إعجابهم بالعالم إعجابهم بصاحبه يقولون إن العالم أبدى بعير بداية ، ويسون إلى الله سبة حلت من اتقوى واثق لإجردونه من العمل وكان أخرى بهم أن يقفوا موقف الروعة أمام قدرته : قدرة الصانع والأب ، ولا يتجاوزوا الحد في تعظيم العالم وتمجيده . وقد كان موسى الذى بلغ الذروة في المسسة واهتدى بوحي الله إلى أعرق أسرار الطبيعة يعلم أن الضرورة أوجبت أن يوجد في الكون سبب محرك ومادة لا حراك بها ، وأن السبب المحرك هو العقل أو هو عقل الكون الطهور الذى يعلو على الفضيلة والعلم ، ويعلو على الخير نفسه وعلى الجمال نفسه .. أما المادة التي لا حراك بها فليست لها روح ولا طاقة لها بالحركة من عند ذاتها، ولكنها متى تحركت بالعقل واستمدت من روح الحياة صارت إلى هذا الصنع المحكم المحيى المتجنى لنا في هذا العالم ، وإن أولئك الذين يحسبون العالم بلا بداية لا يصرون أنهم يقطعون بذلك الحسان

أكرم عنصر من مقومات الدين وهو الإيمان بالعناية الإلهية ، لأن العقل يشأ أن الأب الحائق يعنى بما خلق ... » .

ورفض فينون زعم الراعمين أن الله يحتويه مكان أو زمان لأنه محيط بكل مكان و زمان ، ويرفض زعم الراعمين أن الله لا يستجيب للصلاة لأن الصلاة أصل من أصول العلاقة بين الإنسان والله ، وعده أن الله يستجيب دعاء « الكلمة » لهذه الموجودات الأرضية ، وأن موسى عليه السلام هو « الكلمة » الذى استجاب الله دعاءه فى سياء ، وهو الذى خلص من شوائب المادة فلهى بالطبيعة الإلهية (١) .

قال : إن الله أحد ، ولكم بقدرته خير حاكم . فبالحير صنع العالم وبالحكم يديره . وثمة شيء ثالث يجمع بين القدرتين وهو الكلمة ، لأن الله — بالكلمة — يحود ويحكم .. والكلمة كانت فى عقل الله قبل جميع الأشياء .. وهى متحلية فى جميع الأشياء .

وكان مذهب فلولون مبدأ ثورة ديبية فى بى إسرائيل ، فتابعه أناس فى التأويل والتفسير ، وأحجم الناس عن كل تأويل وتفسير مشفقين على التراث القديم ، وانتهى الخلاف إلى اشتقاق حسم بين القرائين وهم الملتزمون بالصصوص وبين الربائيس الذين يجيرون تفسيرها والتوفيق بينها وبين ممررات العم ومداهب لحكمه

أفسد اليهود التوراة فى أرض بابل وكتبوها بأيديهم وأصافوا إليها سير من قاموا بخدمات لشعب بى إسرائيل ، فاستحرفت من كتاب منزل من السماء إلى كتاب أدب وتاريخ يسجل أعمال البارزين فى التاريخ

(١) عن كتاب « الله » للأستاذ العقاد .

اليهودى ، واعتنق بعض مفكرى اليهود المذاهب الفلسفية التى انتشرت فى ذلك الوقت فإذا بالقلوب تقسو وإذا بشطحات الفكر تقود إلى الكفر والشرك بالله ، وإذا بالزمان يصبح فى حاجة إلى رسول من عند الله ليريل الأساطير التى رانت على الصمائر ويعيد إلى الأرض الإسلام دين الله . فأرسل الله إلى بنى إسرائيل المسيح عليه السلام . ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى دريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناها الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين تبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتيا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴿ (١)

ودعا المسيح عليه السلام إلى الإسلام وآمن له الحواريون : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا أما واشهد بأنا مسلمون ﴾ (٢) .

ولم يطل مكث الإسلام الذى جاء به المسيح فى الأرض فقد قام نولس بمرح الأمتة الدينية بصور الفلسفة ولا سيما فلسفة الحنول ، وراح يقول إن المسيح جالس على يمين الله ويدعو لمن يطلب لهم الخبز « أن تسكن فيهم كلمته » ، ويسأل لهم العفران منه ويشترهم بأنهم سيبلغون المجد متى عاد إلى الأرض

وأشار إلى المسيح عليه السلام فى صلواته : ﴿ باسم ربنا يسوع المسيح ﴾ . وسمى نفسه باسم ﴿ رسول يسوع المسيح بحسب أمر

الله مخلصا وربا يسوع المسيح ﴿١﴾ . وإن كان القرآن الكريم يؤكد أن الله قد تاب على آدم بعد خطيئته : ﴿٢﴾ «تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه» ﴿٣﴾ إلا أن بولس استمر يؤكد أن أبناء آدم قد توارثوا خطيئته وسماها «الخطيئة الموروثة» ، وقال إن المسيح إنما صلب ليظهر البشرية من تلك الخطيئة .

وكان لنظرية بولس أعمق الأثر في إلحاد من ألدوا من مسكرى المسيحية وفلاسفتها ، فطرية الخطيئة الموروثة لا تستقيم مع عدل الله الذي يقره في كل دياناته السماوية ﴿٤﴾ ولا سرور واردة ودر أخرى ﴿٥﴾ . ﴿٦﴾ وأن يس للإنسان إلا ماسعى ﴿٧﴾ .

فاست كتب رجال الدين وآباء الكنيسة وبسكان وبوسويه وماسيون وغيرهم من الساطقين باسم التقيد المسيحي بمكرة أن الإنسان هي نظر هؤلاء جميعا محنوق وصيح لا يمتك أية طهارة ولا يتمتع بأية فضيلة ولا تطوى نفسه على أية براءة ! إنه عند أصحاب نظرية الخطيئة الأولى «مخلوق ساقط يهيمى نعميه شهوته الدنيئة بحيث إنه لولا خوفه من نار جهنم أو لولا احترامه لسلطة المجتمع لأقدم على ارتكاب أدبي الموبقات ، ولما تورع عن إتيان أخص الحرائم» ﴿٨﴾ .

احتدم الخلاف بين المجامع والكنايس لما اعتنق أباطرة الرومان الدين المسيحي كما جاءهم به بولس ، واشتد الجدل حول تفسير كلمات الأب والابن والروح القدس والكلمة ، واحتفوا في أقايم الثالث : هل الابن مساو للأب ؟ وهل هو ذو طيعة واحدة أو ذو

(١) البقرة ٣٧ . (٢) فاطر ١٨ . (٣) السهم ٣٩

(٤) مشكلة الإنسان : الدكتور ركريا إبراهيم

طبيعتين إلهية وإسائية ؟ وهل هو إله أو إنسان مفضل على سائر البشر ؟
وهل يصدر الروح القدس من الأب وحده أو من الأب والأب معاً ؟
وهل المسيح هو الكلمة أو هو الابن فقط أو أن الكلمة والابن
مترادفان ؟ أو أن الكلمة هي الأب والإله ؟

ظل شيخ « الحطيثة الموروثة » يطارد أفكار المفكرين والفلاسفة
حتى بعد القول بأن الصليب كان كفارة عنها ، وذلك يظهر بوضوح في
فلسفة نيتشه فهو يقول :

« إن كان من شأن فكرة الله أن تسقط صلال الحطيثة على براءة
الأرض ، فإنه لا بد للمؤمنين بالحس الأرضي مع أن يهروا بمعاولهم
على تلك الفكرة » .

وراح نيتشه ينادي : « طوبى لأتقياء القلب لأبهم لا يعايون الله ..
نقد صرنا بشرًا ولهدا فإننا لا نريد إلا ملكوت الأرض . إلى أين مصى
الله ؟ سأقول لكم إلى أين مصى ! لقد قتلناه ، أنتم وأنا ، أحل بحر
الدين قنسه . نحن جميعاً قاتنوه ! ألا تشمون رائحة العفن الإلهي ؟ ..
إن الآلهة أيضاً تتعفن ! لقد مات الله وسيظل ميتاً » .

وكب نيتشه يقول : « إن فكرة الله قد بقيت حتى الآن أقوى
اعتراض ضد الوجود . . ونحن جميعاً نكر الله ونكر مسئولية الله
فإننا عن هذا الطريق إنما ننقذ العالم » .

ويردد سارتر عبارات نيتشه فيقول : « إن الله قد مات ولكن هذا لا
يعنى أنه غير موجود أو أنه لم يعد موجوداً ، بل إن الله قد مات بمعنى
أنه كان يحدثنا هي صمت فلم يعد يستطيع أن يلهم من الآن إلا حنة
هامدة ، إن الله قد مات ولكن هذا لا يعنى بطبيعة الحال أن الإنسان قد

أصبح ملحدًا ، فإن صمت المتعالي ، مصداقاً إليه استمرار قيام الحاجة الدنية لدى الإنسان الحديث ، إنما هو في صميمه مشكلة كبرى ، وهذه المشكلة التي ثارت بالأمس كما تنور اليوم إنما هي المشكلة التي لا زالت تؤرق بيتشه وهيدجر ويسبرز .

أرقت فكرة « الحطيئة الأولى » رجال الفكر مدقاً بها بولس ، فهي فكرة إن دلت فيما تدل على ظلم الإله الذي يسعى أن ينزه عن كل نقیصة ، وقد دارت حولها مناقشات عنى مر العصور حتى دعت بعض انفلاسفة فى العصر الحديث إلى أن يقولوا إن الله قد مات .

ثارت المشكلات اللاهوتية وشعلت عقول الباحثين يسر المسيحيين ، وذهب الدين المسيحى شيعة محصلة لكل شيعة قوايس تناقص نفسها ، وصار بعض العقائد لا يتمق فى شيء مع ما جاء به المسيح عليه السلام على الرغم من قرب العهد ، فمن قائلين إن التثليث يشمل الأب والابن وروح القدس إله واحد ، كما يتكون لإنسان من جسم وروح وعقل باطنى ، ومن قائلين إن المسيح ابن الله ولكنه مفصل عنه وأقل منه ، ومن قائلين إن للمسيح طبيعتين مختلفتين إلهية وإنسانية وأن مريم إن هى إلا أمه وإنه لمس الكفر أن تدعى أم الإله . ومن قائلين إن عيسى هو الله قبل التجسد وبشر أثناء التجسد . ومن شيعة من النساء يعبدن مريم العذراء . ومن مريميين يقدسون التثليث ، فأن الله الأب والله الابن والله الأم مريم .

وصاع الإسلام الذى جاء به السيد المسيح فى ركام الفلسفة والأساطير ، وظهر الفساد فى البر والبحر وبدأ أن شجرة الحصاره قد دب فيها الفساد حتى الساب . وفى ذلك الوقت أرسل الله محمد بن

عبد الله ليدعو الناس كافة إلى الإسلام .
إن النظرية الإسلامية تقرر أن الأصل التوحيد ثم الشرك كلما طال
على الناس الأمد وفست قلوبهم ، ثم التوحيد فالشرك . وإن الواقع
التاريخي يؤيد ما جاء في القرآن الكريم ويكر كل الإنكار ما زعمه
عماء المقابلة بين الأديان من أن الإنسان قد ترقى في العقائد كما ترقى
في العلوم .

وكان الإسلام مند بدء الحليقة هو دين الله ، دعا إليه كل الرسل
والأنبياء لم يعرف الترقى . ويؤيد ذلك قول الله تعالى . ﴿ إن الدين
عند الله الإسلام ﴾ (١) . ﴿ ومن يتبع غير الإسلام دينا فلس يقبل
منه ﴾ (٢) .

وقد أنزل الله على رسوله كتابا لهداية البشر فاندثرت أو حرفت أو
كتبت بأيدي الناس ثم قالوا . هذا من عند الله . ولما كان الله سبحانه
ونعالى قد جعل رسالة محمد ﷺ حاتمة الرسالات فقد كتب على
نفسه حفظ كتابه الكريم .

فقال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٣) . وإن
كل يوم يمر والقرآن بين الناس ليزيد هذه الحقيقة تأكيداً .

ويقول الأستاذ العقاد في كتابه « الله » : فلما ظهر الإسلام في
الجزيرة العربية كان عليه أن يصحح أمكاراً كثيرة لا فكرة واحدة عن
الدات الإلهية ، وكان عليه أن يحرر الفكرة الإلهية من أحلاط شتى من
بقايا العبادات الأولى وريادات المتارעים على تأويل الديانات

(١) آل عمران ١٩ . (٢) آل عمران ٨٥ . (٣) الحجر ٩ .

الكتابية .

هـ إذا كانت رسالة المسيحية أنها أول دين أقام العبادة على « الصمير الإلهي » وبشر الناس برحمة السماء — رسالة الإسلام التي لا التباس فيها أنها أول دين تمت الفكرة الإلهية وصححها مما عرض لها في أطوار الديانات الغابرة .

فالفكرة الإلهية في الإسلام « فكرة تامة » لا يتعلب فيها حاسب على حاسب ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمثابرة ولا تجعل لله مثيلاً في الحسن ولا في الضمير ، بل له المثل الأعلى وليس كمثله شيء .

فإنه وحده لا شريك له ﴿ وسم يكر له شريك في الملك ﴾ (١) .. ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ (٢) . ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (٣) .. والمسلمون هم الذين يقولون : ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله ﴾ (٤) .. ﴿ ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ (٥) . ويرفض الإسلام الأصنام على كل وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التقريب .

ولله المثل الأعلى من صفات الكمال جمعاء وله الأسماء الحسنى ، فلا تعلب فيه صفات القوة والقدرة على صفات الرحمة والمحبة ، ولا تغلب فيه صفات الرحمة والمحبة على صفات القوة والقدرة ، فهو قادر على كل شيء وهو عزيز ذو انتقام . وهو كذلك رحمان رحيم غفور كريم . قد وسعت رحمته كل شيء و « يختص برحمته من

(١) المرقان ٢ . (٢) الأعراف ١٩٠ . (٣) يونس ١٨ .

(٤) يوسف ٣٨ . (٥) الحجى ٢ .

يشاء ﴿١﴾

وهو الخلاق دون غيره و ﴿هل من خالق غير الله ؟﴾ ﴿٢﴾ .

فليس الإله في الإسلام مصدر الطعام وكفى ، ولا مصدر الحركة الأول وكفى ، ولكن ﴿الله خالق كل شيء﴾ ﴿٣﴾ .. و ﴿خلق كل شيء فقدره﴾ ﴿٤﴾ .. و ﴿إله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ ﴿٥﴾ .. و ﴿هو بكل شيء عليم﴾ ﴿٦﴾ .

ومن صفات الله في الإسلام ما يعتبر ردا على « فكرة الله » في الفلسفة الأرسطية ، كما يعتبر ردا على أصحاب التأويل في الأديان الكتابية وغير الكتابية ، فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونه ، ويتره عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه والله كمال لا يطلب غير ذاته ويحل عن علم الكليات والحريثات لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة لأن الخلق أخرى أن يطلب الكمال بالسعى إليه .

ولكن الله في الإسلام ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ ﴿٧﴾ و ﴿لا يعرب عنه مثقال ذرة﴾ ﴿٨﴾ ... ﴿وهو بكل خلق عليم﴾ ﴿٩﴾ .. ﴿وما كنا عن الخلق عافيين﴾ ﴿١٠﴾ ... ﴿وسع كل شيء علما﴾ ﴿١١﴾ ... ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ ﴿١٢﴾ ... ﴿عليم بما فى الصلور﴾ ﴿١٣﴾ .

(١) البقرة ١٠٥ . (٢) طاهر ٣ . (٣) الزمر ٦٢ .

(٤) الفرقان ٢ . (٥) يونس ٤ . (٦) الأنعام ١٠١ .

(٧) الأنعام ٧٣ . (٨) سبأ ٣ . (٩) يس ٧٩ .

(١٠) المؤمنون ١٧ (١١) طه ٩٨ (١٢) الأعراف ٥٤ (١٣) الشورى ٢٤

هذا هو رأى الأستاذ العقاد وهو فى كل ما يقرر متأثر بفكرة ترقى الإنسان فى العقائد ترقيه فى العلوم والصناعات ، وإنى أرى أن الأستاذ العقاد قد قارن بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية بعد أن اعتورهما التبديل والتحويل لما طال على الناس الأمد فقسفت قلوبهم ، ولكن الناظر فى آيات القرآن الكريم يجد أن الإسلام الذى دعا إليه جميع الرسل والأنبياء لا يختلف عن الإسلام الذى دعا إليه محمد ﷺ . فالفكرة الإلهية فى كل من دعوة موسى عليه السلام ودعوة عيسى عليه السلام لا تختلف عن الفكرة الإلهية التى دعا إليها رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، فهى فكرة تامة فى كل الديانات السماوية . فإن كانت عوارض قد عرضت للديانات الغابرة فما ذلك من عند الله ولكنه من عند الناس ، وإن كان الإسلام الذى دعا إليه محمد عليه السلام أكد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فجميع الديانات السماوية قد أكدت نفس الدعوة وأكدت علمه وأنه عالم الغيب والشهادة وأنه الخلاق دون سواء .

إن دين الله لم يعرف الترقى منذ آدم ، إنه ثابت لا يتغير وكل ما كان يعتوره من تبديل إنما بفعل البشر كلما طال عليهم العهد . ﴿ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يهل عليكم غضب من ربكم ﴾ (١) .. ﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ﴾ (٢) ... ﴿ فضال عليهم الأمد فقسفت قلوبهم ﴾ (٣) . ﴿ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ﴾ (٤) .

واختلف علماء المقابلة بين الأديان على أصل العقيدة الدينية أو أصل الباعث عليها ، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ وإد أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما شُرِكُ آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ (١) .
 فالله قد فطر البشر على أنه لا إله إلا هو : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ (٢) . وقال رسول الله ﷺ : (كل مولود على الفطرة) فالله سبحانه وتعالى يخلق عباده حنفاء والآباء يفسدون الفطرة بما يلقون الأبناء من خرافات وأساطير .
 ويرى علماء المقابلة بين الأديان أن وحدة الوجود تأتي بعد دور التعدد ودور التميز والترجيح ودور الوجدانية ودور الشائبة ، توفيقا بين القائض والصروراء وإثباتا لوجود الله من طريق ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان . ووحدة الوجود باختصار هي القول بأن الله سبحانه وتعالى هو جميع هذه الموجودات ، وأنها ليست فيه على سبيل التجزئة والتفرقة ولكنها تكمن فيه كما يكمن الربع والصف في الواحد ، وليس هو كله وليس هو منفصلا عنه وليس هو موجودا على التحقيق ولكنه موجود بالإضافة إلى وجود الله ، أو أن وجوده كوجود الفرد بالنسبة إلى حقيقة النوع ، فهو ليس بمعدوم ولكنه لا يزيد تلك الحقيقة ولا يفصل عنها .

أرادت الفلسفة أن تحدد تفسيرا للوجود فقالت إن هذا الوجود إنما

هو تعبير عن الوجود وتعريف به حين أراد أن يعبر عن نفسه ليعرف والإسلام في هذه القضية واضح كل الوضوح ، فهو يقرر إدعان الإنسان لحالقه والإقرار بالعبودية لله وحده دون سواه وقدرة الموجد وحكمته وجلاله وعظمته ، فكل موجود قد أوجدته القدرة الإلهية وهو مقهور لهذه القدرة مسير بأمرها ويؤدي ما يجب للمعبود على العباد من طاعة وشكر : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (١) .

وقد عرف بعض متصوفة الإسلام وحدة الوجود ، ويقول لسان الدين بن الخطيب في مفهوم هذه الوحدة عند الصوفيين الموحدين في التصوف : « إن الزمان والمكان والعبية والظهور والألم والسدة والوجود إنما هي عندهم أوهام راجعة إلى إخبار الضمير وليس في الخارج شيء .. فإذا سقطت الأوهام صار مجموع العالم بأسره وما حوله واحدا .. ذلك أن الواحد هو الحق وإنما الحق مؤلف من طرفي حق وباطل ، فإذا سقط الباطل — وهو اللازم — بالأوهام ، لم يبق إلا الحق ؟! »

والتعبير عندهم عبارة عن التزام الأوهام الواقع بها التعدد والتعدد باطل ! وقالوا . العالم لا يصح أن يقال فيه قديم ومحدث ، إذ ذلك مسمى على الزمان .. ولزمان وهم إذ هو مقدار الحركة .. والحركة وهم .. وما ثم إلا حير مجرد .. لا شيء منه في الخارج . وهذا التصوير يكاد يكون نقلا عن الفلسفة الرواقية التي تنكر

معطيات الحواس وتذهب إلى دفع كل ما تجيء به من أنباء عن عالم
لحسن وعدها كل ذلك من عمل الوهم والحداع .

ويقول ابن حلدون في فلسفة الوحدة عن بعض المنصوفة الذين
يؤمنون بأن وحدة الوجود لا تقوم على الشك في معطيات الحواس
ولما تستند إلى شأنة الوجود وإلى الصلة بين الحالق وما خلق : « وأول
مراتب التجليات عندهم تجلى الذات على نفسه وهو يتضمن الكمال
بإضافة الإيجاد والطهور لقوله سبحانه في الحديث القدسي الذي
يتناقلونه . « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف فخلقت الخلق
ليعرفوني » .

وهذا الكمال المتراءى في الوجود وتفصيل الحقائق هو عندهم عالم
المعاني ولحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية ، وفيها حقائق الصفات
واللوح والقدم وحقائق الأسياء والرس أجمعين والكمّل من أهل الملة
المحمدية ، وهذا كله تفصيل للحقيقة المحمدية .. وتصدر عن هذه
الحقائق حقائق أخرى هي احصرة الهيائية وهي مرتبة المثال ثم عنها
العرش ثم الكرسي ثم الأفلاك ثم العناصر ثم عالم التركيب .. هذا في
عالم الرتق ، فإذا تجلت فهي في عالم العتق .. ويسمى هذا المذهب
مذهب أهل التجنى والمطاهر والحصرات .. وهو كلام لا يقتدر أهل
النظر على تحصيل مقتضاه بغموضه وإعلاقه .

ويقول ديور في كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية : « غير أن الغلاة
من أهل التصوف رادوا على هذا بأن قالوا : بأنه لا موجود في كل
شيء إلا الله ، ومن هذا المنزع الأخير شأ مذهب في وحدة الوجود
حالف مذهب جمهور المسلمين وكان من شأنه أن جعل العالم خيالا

لا حقيقة ، كما وحد بين الإنسان ودات الله .

وبعد أن كان لمتكلمون يقولون بوحدة الدات الإلهية — أى نعى الصفات عن الله وأنه عين صفاته — قال المتصوفة بوحدة شاملة لكل شيء . وبعد أن كان الأولون — أى الجبرية من المعتزلة — يقولون بعمل الله فى كل شيء قال الآخرون — المتصوفة — بوجود الله فى كل شيء .

وفى أقوال القائلين بوحدة الوجود من المتصوفة خسروا على مقررات الشريعة ومفاهيمها خروجاً واصحاً ، بل عودة إلى الشرك وعبادة غير الله ، فالجبلى أحد شيوخ المتصوفة يقول : « إن الحق من حيث ذاته يقتضى ألا يظهر فى شيء وإلا ويعبد ذلك الشيء . وقد طهر — أى الحق — « الله » . فى ذات الوجود ، فحق أن تعبد هذه الدوات وليس شيء منها أولى من شيء بتلك العبادة » .

طال على الناس الأمد قعست قلوبهم وما كان الله ليبعث رسولا بعد محمد عليه السلام ، فكتاب الله بين أيدي الناس يرجعون إليه ويهلون من ماهل الحق وقد كتب الله على نفسه أن يحفظه .

ولقد عرفنا آراء بعض الفلاسفة والمفكرين على مر العصور فى ذات الله ، وإن خير ما نختم به هذا التذييل سرد خطبة للإمام عيسى بن أبى طالب ربيب النبوة يتحدث فيها عن الله :

« الحمد لله الذى لا يبدخ مدحته القائلون ، ولا يُحصى نعماءه العائون . ولا يؤدى حقه المجتهدون ، الذى لا يدركه بعد الهمم . ولا يناله غوص القطى . الذى ليس لصفته حدٌ محدود ، ولا نعب موجود ، ولا وقت محدود ، ولا أجل ممدود ، فطر الخلائق بقدرته ،

ونشر الريح برحمته ، ووطد بالصخور ميدان أرضه .
 أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق
 به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفى
 الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل
 موصوف أنه غير الصمة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قر به ، ومن قر به
 فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن جهله فقد
 أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حده ، ومن حده فقد عده ، ومن قال :
 « فيم » فقد صممه ، ومن قال : « علام فقد أنخلى به (١) » .

كأن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا
 بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزاولة . فاعل لا بمعنى الحركات
 والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من حلقه . متوحد إذ لا سكن يستأنس
 به ولا يستوحش لفقده . أنشأ الخلق إنشاءً ، وابتدأ ابتداءً ، بلا روية
 أحوالها ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها . ولا همامة نفس
 اضطرب فيها . أحوال الأشياء لأوقاتها ، ولاءم بين مختلفاتها ، وغرز
 عرائزها ، وألزمها أشباحها ، عالما بها قبل ابتدائها ، محيطا بحدودها
 وانتهائها ، عارفا بقرائنها وأحنائها .

(١) من تصور أنه على الكرسي أو العرش فقد أحلى مه غير ذلك الموضع .

(غزوة بدر)

المراجع

للحافظ ابن كثير	القرآن الكريم
	الكتاب المقدس
	صحيح البخارى
	عمدة التفسير
	تاريخ الطبرى
لاين أبى الحديد	شرح نهج البلاغة
لاين هشام	السيرة النبوية
للدكتور زكريا إبراهيم	مشكلة الإنسان
للدكتور زكريا إبراهيم	مشكلة الحرية
لأبى الفرج الأصفهاني	الأغاني
لشهرستاني	الملل والنحل
لعبد الكريم الخطيب	الله .. ذاتا وموضوعا
لعماس محمود العقاد	الله
لنيسابورى	أسباب النزول
للفرويد	Moses and Monotheism
للألمسى	برغ الأرب
للتويرى	نهاية الأرب
لعلى برهان الدين الحلبي	السيرة الحلبية

للمؤلف

الطبعة الأولى

مايو سنة ١٩٤٣	قصة	احمد بن بطل الاستقلال
يوليو سنة ١٩٤٣		أبو ذر الغفاري
مايو سنة ١٩٤٤		بلال مؤذن الرسول
ديسمبر سنة ١٩٤٤	مجموعة أقاصيص	في الوظيفة
يوليو سنة ١٩٤٥		سعد بن أبي وقاص
فبراير سنة ١٩٤٦	مجموعة أقاصيص	همزات الشياطين
أكتوبر سنة ١٩٤٦		أبناء أبي بكر الصديق
يناير سنة ١٩٤٧		الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)
سنة ١٩٤٧	رواية	في قافلة الزمان
مايو سنة ١٩٤٨		أهل بيت النبي
سنة ١٩٤٩	قصة	أميرة قرطبة
مايو سنة ١٩٥٠	قصة	النقاب الأزرق
سنة ١٩٥١		المسيح عيسى بن مريم
سنة ١٩٥٢		قصص من الكتب المقدسة
سنة ١٩٥٢	رواية	الشارع الجديد
سنة ١٩٥٣	مجموعة أقاصيص	صدي السنين
سنة ١٩٥٤		حياة الحسين
سنة ١٩٥٤	قصة	قلعة الأبطال
ديسمبر سنة ١٩٥٧	قصة	المستقع
يناير سنة ١٩٥٨		أم العروسة

الطبعة الأولى

وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيفان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨
أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربي الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
التصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله وإسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	أكتوبر سنة ١٩٧٢

أعمال كتبها المؤلف ، ونشرت بعد وفاته

هذه حياتي
ذكريات سينمائية
كشك الموسيقى
خفقات قلب
صور وذكريات
الإسراء والمعراج

علو البشر
النمر
أبطال الجزيرة الخضراء
الله أكبر
ثلاثة رجال في حياتها
مسجد الرسول
عشيقه الحي

(للأطفال)

قصص الأنبياء	في ١٨ جزءا
قصص السيرة	في ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	في ٢٠ جزءا
العرب في أوروبا	في ٢٤ جزءا

محمد رسول الله

والذين معه

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

في ٢٠ جزءا

- | | | |
|----|-------------------------|-------------|
| ١ | — إبراهيم أبو الأنبياء | أكتوبر ١٩٦٥ |
| ٢ | — هاجر المصرية أم العرب | مارس ١٩٦٦ |
| ٣ | — بنو إسماعيل | سبتمبر ١٩٦٦ |
| ٤ | — العدنانيون | فبراير ١٩٦٧ |
| ٥ | — قريش | مايو ١٩٦٧ |
| ٦ | — مولد الرسول | يوليو ١٩٦٧ |
| ٧ | — اليتيم | أكتوبر ١٩٦٧ |
| ٨ | — خديجة بنت خويلد | يناير ١٩٦٨ |
| ٩ | — دعوة إبراهيم | مارس ١٩٦٨ |
| ١٠ | — عام الحزن | يونية ١٩٦٨ |
| ١١ | — الهجرة | سبتمبر ١٩٦٨ |
| ١٢ | — غزوة بدر | نوفمبر ١٩٦٨ |
| ١٣ | — غزوة أحد | يناير ١٩٦٩ |
| ١٤ | — غزوة الخندق | مايو ١٩٦٩ |
| ١٥ | — صلح الحديبية | يونية ١٩٦٩ |
| ١٦ | — فتح مكة | نوفمبر ١٩٦٩ |
| ١٧ | — غزوة تبوك | فبراير ١٩٧٠ |
| ١٨ | — عام الوفود | مايو ١٩٧٠ |
| ١٩ | — حجة الوداع | نوفمبر ١٩٧٠ |
| ٢٠ | — وفاة الرسول | ديسمبر ١٩٧٠ |